مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد ٥٣

السنة الحادية والعشرون

ذو القعدة ١٤١٧هـ ربيع الآخر ١٤١٨هـ

تموز – كانون الأول ١٩٩٧م

مجلة
مجمع اللغة العربية الأردني

(مجلة متخصصة محكمة)

تصدر مرتين في السنة

* البحوث التي ترسل إلى المجلة تكون خاصة بها ، ولم يسبق أن نشرت في مكان آخر، وأن تتوافر فيها شرائط البحث العلمي .
* يرسل كل بحث إلى ثلاثة محكمين مختصين ، وفي ضوء تقاريرهم تقرر هيئة التحرير نشر البحث أو الاعتذار عن عدم نشره .
* البحوث غير المجازة لا ترد إلى أصحابها
* يخضع ترتيب البحوث في المجلة لاعتبارات فنية .
* تقبل للنشر مراجعات الكتب إذا كانت قيمة .
* يجوز للباحث أن ينشر بحثه في مكان آخر ، بعد نشره في مجلة المجمع ، شريطة أن يشير إلى ذلك .

الاشتراكات

في الأردن	خمسة دنانير سنوياً
في البلاد العربية والأجنبية	اثنا عشر دولاراً سنوياً أو ما يعادلها

تضاف أجرة البريد الجوي لمن يشاء ذلك من المشتركين

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان - ص. ب ١٣٢٦٨ هاتف ٨٤٢٥٠٠ - ناسوخ (فاكس) ٨٤٢٥٠٠ عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ISSN 0258 - 1094

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد ٥٣

ذو القعدة ١٤١٧هـ - ربيع الآخر ١٤١٨هـ

السنة الحادية والعشرون

تموز - كانون الأول ١٩٩٧

هيئة تحرير المجلة

الفهرس

أولاً: البحوث

مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة

د. حمزة بن قبلان المزيني
جامعة الملك سعود/ قسم اللغة العربية
الرياض

مدخل

يشيع في المجال الثقافي والعلمي العربي في العصر الحاضر كثير من المفاهيم التي تقف حاجزاً بين العرب والاستفادة من التقدم العلمي المعاصر. وأوضح ما تكون هذه المفاهيم في مجال الدراسات الإنسانية. ومن هذه المفاهيم الشائعة القول بأن العلوم الإنسانية في العصر الحاضر نشأت في ظروف غريبة عن الظروف العربية الإسلامية وفي سياق فكري مختلف؛ ولذلك فإن هذه العلوم لا يمكن تعميمها على الحضارات الأخرى ومنها الحضارة العربية الإسلامية. ومن أجل ذلك كثيراً ما نسمع عن بدائل مقترحة لهذه العلوم الغربية من حيث النشأة، فنجد من ينادي بعلم اجتماع عربي أو إسلامي أو بعلم اقتصاد عربي أو إسلامي أو بلسانيات عربية إلى غير ذلك.

ولا شك أن الربط بين العلوم الإنسانية والظروف والسياقات الفكرية في المجتمعات الغربية التي تأسست فيها ليس قولاً باطلاً كله؛ فقد نشأت هذه العلوم أساساً استجابة لظواهر وجدت في تلك المجتمعات. لكن الأمر الذي يجب أن يوضح هو أنه على الرغم من هذه الحقيقة فإن هذه العلوم قابلة للتطبيق في حضارات أخرى غير الحضارة الغربية. وتأتي إمكانية التطبيق هذه من حقيقة أخرى لا يكثر الجدال حولها، تلك هي أن العلوم في تطورها تنفصل جزئياً عن المؤثرات الأساسية التي كانت نتيجة لها وتنحو نحو التعميم والشمول. فهي في تطورها لا بد أن تتناول ظواهر لم تكن وجوه القرب بينها وبين الظواهر الأولى

واضحة، كما أنه لا بد – إن أرادت أن تصل إلى مرتبة النظريات العلمية – أن تنطبق في مجتمعات غير المجتمعات الأولى التي نشأت فيها وذلك نتيجة للتجريد الذي يصاحب كل نظرية قصدها عمق التفسير والغوص وراء الظواهر الخادعة. ثم إن ما يدعى بعلوم إنسانية غربية ليس نتاجاً للغربيين وحدهم الآن وليس مطبقاً على مجتمعات غربية فقط، فالمشاركون في إنتاجه ينتمون إلى خلفيات حضارية متعددة والمجتمعات المدروسة تنتمي إلى حضارات متعددة أيضاً. بل إن ما يدعى نتاجاً علمياً غربياً مصوغاً على شكل نظريات دقيقة الآن يمكن مقارنته بما يوجد من ملاحظات وإسهامات في حضارات قديمة وغير غربية. وسنرى فيما بعد أن بعض تلك الحضارات القديمة تناولت الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية في الغرب الآن بأسلوب يقرب من الأساليب العلمية التي تدعى غربية الآن.

وتمثل مثل هذه المفاهيم أساساً لكثير من المفاهيم الفرعية التي ترى الشيء نفسه في مجالات معينة. ولأنني مهتم بالدراسات اللسانية فلا بأس من إيراد بعض تلك المفاهيم. وأكثر المفاهيم رواجاً في هذا المجال أن دارس اللغة العربية وخصوصاً النحو العربي ليس في حاجة إلى معرفة العلوم اللسانية المعاصرة. وذلك لأن النحو العربي نحو خاص بهذه اللغة التي لا يشبهها لغة من اللغات، وهو علم عربي خالص لم يترك العرب فيه مزيداً لمستزيد. وقد خلق هذا المفهوم هوة سحيقة بين دارسي اللسانيات في العالم العربي ودارسي النحو.

ومن المفاهيم الرائجة المماثلة أنه كثيراً ما يتعجب من دراسة بعض المبتعثين العرب اللغة العربية نحواً وأدباً في الغرب. بل يصل الأمر إلى القول بأن دارس النحو العربي ليس بحاجة إلى معرفة أي لغة أجنبية إذ أن كل ما يحتاجه مكتوب باللغة العربية.

وهذه المفاهيم ليست الوحيدة لكن أثرها وأمثالها كان كبيراً في تأخر الدراسات اللسانية العربية. وقد سبق لبعض الباحثين الإشارة إلى الأثر السلبي المترتب على عدم الاهتمام بالاطلاع على الدراسات المعاصرة. ومن هؤلاء

عبدالسلام المسدي[١] وعبدالقادر الفاسي الفهري[٢]وكيس فريستيغ[٣] وحمزة المزيني[٤] وغيرهم.

وسوف أحاول في هذا البحث أن أتناول جانباً مهماً من هذه القضية وهو جهل كثير من المتخصصين باللغة العربية في الوطن العربي بالأبحاث التي تنجز في الغرب عن اللغة العربية. ولست أريد لهذا البحث أن يكون وسيلة لدغدغة العواطف القومية وإشاعة الرضا في النفوس والزهو بهذا الاهتمام. بل إن قصدي هو أن أبين أنه لا يسع المتخصص في اللغة العربية اليوم إغفال هذه الدراسات. وعلى الرغم من أن هذه الجهود العلمية التي يقام بها في الغرب تستوجب منا الاعتراف للقائمين بها بالفضل إلا أنني لا أقصد هنا أن يكون هذا البحث لغرض الثناء عليهم – وهم مستحقون له – كما أنني لا أقصد به التقليل من الأبحاث الجادة التي يكتبها بعض الباحثين العرب باللغة العربية.

كما أن غرضي هنا ليس الإلمام الكامل بكل ما يكتب في اللغات الغربية المتعددة. فهذا مالا يستطيع أن يقوم به فرد في مثل هذا البحث المحدود. إن هدفي هو رسم صورة عامة لمدى الاهتمام الذي تحوز عليه اللغة العربية والدراسات العربية في الغرب؛ فقد أصبحت اللغة العربية تتصدر اللغات من حيث أخذها نموذجاً للتحليل اللساني، ومن حيث تقدير المتخصصين للدراسات العربية القديمة، كما أن النظرة المتحيزة ضدها التي كانت تشيع في بعض الأوساط حل محلها النظرة الموضوعية التي تنظر إليها – كسائر اللغات – لغة

---

(١) عبدالسلام المسدي. اللسانيات وأسسها المعرفية. (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦، ص ص(١١-٢٠)

(٢) عبدالقادر الفاسي الفهري "اللسانيات العربية: نماذج للحصيلة ونماذج للآفاق" في : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية. تحرير عبدالقادر الفاسي الفهري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٩٩١) ص ص(١١-٤٠).

(٣) Kees Versteegh . " Modern Approches to the History of Arabic" في : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ص ص(١٩٩-٢١٦).

(٤) حمزة قبلان المزيني، مراجعات لسانية. (الرياض: النادي الأدبي، ١٤١٠هـ).

طبيعية أدت دوراً كبيراً في الحضارة الإنسانية.

مقدمة

ينبع الشك والتخوف من الدراسات اللسانية المعاصرة في الوسط الثقافي العربي من أسباب وجيهة تاريخياً. وأول هذه الأسباب أن الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر كان يسيطر عليها التوجه العرقي. فقد كان هدف كثير من الدراسات التي تقوم على لغات غير أوروبية أن يبين أنها أقل تطوراً من اللغات التي تعود إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية. ومن أبرز المقولات في هذا الشأن مقولات رينان (٥) وقد ولد هذا الموقف غير العلمي شعوراً لدى العرب بأن الدراسات الأوروبية كلها تصب في هذا الهدف. غير أن الفاحص المتأني سيكتشف أن هذا الموقف لم يكن يمثل النشاط العلمي الحقيقي المهتم باللغة العربية. فقد نشر في تلك الفترة كثير من أمهات الكتب العربية في التاريخ والجغرافية والتفسير والفقه والشعر والأدب. وقد تواصل هذا التقليد في القرن الحالي فأثمر دراسات على جانب كبير من الجودة والموضوعية.

على أن كثيراً من الباحثين العرب تلفت أنظارهم بعض المقولات في هذه الأعمال مما يمكن أن يصنف بأنه نقد لبعض الظواهر في الحضارة العربية الإسلامية. لكن القارئ المنصف يجب أن يفهم هذا النقد بأنه أمر طبيعي من باحثين من خارج هذه الحضارة. فليس ضرورياً أن تكون مواقفهم متطابقة تماماً مع ما نشعر به نحن. والموقف العلمي السليم هو أن يكون هذا النقد موضوع حوار بين الباحثين العرب والباحثين الغربيين. فإذا سلمت النيات وقصدت الموضوعية فإن نتائج هذا الحوار ستكون عنصراً مهماً في تقدم معرفة الفريقين. ولا شك أن هذا الحوار سيكون مثمراً مع العلماء وليس مع الكتّاب

---

(٥) Maurice Olender. The Languages of Paradise: Race, Religion, and Philology in the Ninteenth Century.
Translated from French by Arthur Goldhammer (Cambridge, MA: Harvard University press, 1992.)

الذين تدفعهم روح التعصب ورغبة التشفي وعدم الممانعة في لعب دور الممهد لسيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية وغير ذلك وهؤلاء قلة في كل الأحوال في المجال الأكاديمي.

كما أن هناك سبباً للتخوف آخر وهو ارتباط كثير من الدراسات اللسانية الغربية للعربية بدراسة اللهجات(٦) في فترة من الفترات. فقد كان هناك نشاط كبير في مختلف أنحاء العالم العربي في هذا المنحى. لكن هذا النشاط في دراسة اللهجات العربية يجب أن ينظر إليه من خلال اهتمام الدراسات اللسانية في الغرب نفسه في تلك الفترة. والمتتبع للأمر يجد أن الدراسة اللسانية في الغرب طوال القرن التاسع عشر كانت تاريخية الطابع. وكان من مميزات هذه الدراسة تتبع اللهجات المعاصرة ورصدها؛ باعتبارها طوراً من أطوار اللغة يمكن أن ينير لنا شيئاً من تاريخها الماضي. ولذلك قامت حركة من يسمون بالنحويين الجدد في ألمانيا وكان هدفها تسجيل اللهجات الألمانية وتتبع تاريخها ثم انتقلت هذه التقاليد إلى فرنسا وبريطانيا(٧).

وقد استمر هذا التقليد إلى الفترة المبكرة من هذا القرن. ولذلك لا نعجب إن ركز الدارسون الغربيون على دراسة اللهجات العربية في تلك الفترة. فلقد كان ذلك تطبيقاً لتقاليد - تعلموها في أثناء الدراسة الجامعية - على لغات غير أوروبية. وكان الهدف واضحاً أحياناً إذ استعملت هذه الدراسات أدلة في البحث التاريخي المتعلق باللغة العربية.

كما كان من أسباب الاهتمام باللهجات في هذا القرن أن الدراسة اللسانية بتأثير من دي سوسير أصبحت تجعل الأولوية في الدرس لما يقوله الناس فعلاً بدل الاهتمام بتاريخ اللغة أو الاهتمام باللغة الأدبية المكتوبة. فلذلك اهتمت هذه الدراسات في تلك الفترة باللهجات العربية لأنها ما يقوله الناس فعلاً وفي

---

(٦) عبدالسلام المسدي، المرجع نفسه؛ وكيس فرستيغ، المرجع نفسه.

(٧) كيس فريستيغ، المرجع نفسه؛ و J.K. Chambers and Peter Trudgill. Dialectology. (Cambridge: Cambridge University Press, 1980) PP. 15 - 23.

مواقف طبيعية.

على أن هذه الدراسات العلمية ابتليت بأناس ليسوا علماء لغة أساساً أو أن لهم أغراضاً ضيقة: استعمارية أو قطرية أو غير ذلك استغلوا هذه التقاليد ليزعموا أن هذه اللهجات لا رابط بينها وأن الشقة واسعة بينها وبين اللغة العربية الفصحى وأن كل قطر من أقطار العالم العربي يجب أن يستعمل لهجته بل ويكتب هذه اللهجة بالأبجديات الغربية(٨). ومن هذا الصنف محاولات التخطيط اللغوي في مصر التي قام بها بعض المديرين الإنجليز لإحلال اللهجة المصرية محل اللغة العربية الفصحى ومحاولات سلامة موسى ومحاولات سعيد عقل وآخرين. والواقع أن هذه المحاولات أعطيت من الاهتمام أكبر مما تستحق. ويكفي أن يشار إلى أن الفروق التي وجدها العلماء بين اللهجات في أي قُطر أوروبي لم يأخذها العلماء الأوروبيون أنفسهم حجة لإثارة ما أثير عن الفروق بين اللهجات العربية في العالم العربي. والدليل الآخر على سذاجة تلك المحاولات وعدم إمكانها علمياً أن الفروق اللهجية بين مختلف الأصقاع في العالم العربي لم تمنع شيوع الثقافة وشيوع التقارب بين مستويي الفصحى والعاميات. فيجب إذن أن نعي أن التخوف من الدراسات اللسانية فيما يخص اللغة العربية هو تخوف لا يقوم على أساس صحيح.

وسيتناول البحث في جزئه الأول الاهتمام باللغة العربية نموذجاً للتحليل مبيناً فيه مدى اتخاذ المدارس اللسانية المختلفة للغة العربية مجالاً للدراسة، وفي الجزء الثاني سأبين الدراسات الغربية الحديثة لمنجزات النحو العربي، وفي الجزء الأخير سيهتم البحث بالأعمال التي ترد على من يزعمون أن اللغة العربية تعاني من أوجه نقص كثيرة مما يجعلها لغة غير متحضرة. وسيختتم البحث بخاتمة تجمل النتائج التي توصل إليها البحث بالإضافة إلى بعض الدروس التي يمكن أن نستفيد منها.

---

(٨) كيس فريستيغ، المرجع نفسه؛ وحمزة قبلان المزيني، "التحيز اللغوي: مظاهره وأسبابه" ستنشر قريبا في مجلة فصول.

الاهتمام باللغة العربية نموذجا للتحليل

يجد المطلع على الدراسات اللسانية المعاصرة أن اللغـــة العربيـــة كـــانت موضع اهتمام أكثر علماء اللسانيات تميزا في خـــلال هـــذا العصـــر. وتهتـــم دراسات هؤلاء باللغة من حيث إنها تمثل لغة طبيعية يمكن أن تسهم فـــي تقـــدم البحث اللساني النظري. فمن أعلام الدراسة اللسانية في هذا العصر الذين اهتموا باللغة العربية رومان ياكوبسون في مقال له عن الأصوات المفخمة فـــي اللغـــة العربية(٩) واستعمالها دليلاً على نظريته عن الملامح التمييزيـــة فـــي التحليـــل الصوتي للغة الإنسانية. كما كتب جوزف جرينبرج مقالاً عن نمط المورفيمـــات الأصول في السامية(١٠) اتخذ فيه العربية ممثلاً للغات الســـامية بســـبب وفـــرة المعلومات المعجمية ومحافظتها النسبية في نظامها الصواتي(١١). كما كتب زيلك هاريس – أستاذ تشومسكي – مقالاً عن الفونيمات في اللهجة المغربية(١٢) قصـــد منه ايضاح ما كان يسمى "إجراءات الاكتشاف" في الدراسة اللسانية البنيوية فـــي أمريكا(١٣). ومن هؤلاء أيضاً فيرث الذي كتب تحليلاً صوتياً للغة العربية يبيـــن فيه تطبيقه لمنهجه في التحليل المسمى بالتحليل التطريـــزي Prosodic analysis (١٤).

---

(٩) Roman Jalobson. "Mufaxxama: The Emphatic Phonemes in Arabic" in Salman AL - Ani (ed) Readings in Arabic Linguistics (Bloomington: Indiana University Linguistic Club. 1978) PP 269 - 283.

(١٠) Joseph H Greenberg. "The Patterning of Root Morphemes in Semitic. "in Salman Al - Ani> reading..... PP. 431 - 456.

(١١) Joseph H.Greenberg. Ibid. P.432.

(١٢) Zellig S. Harris. "The Phonemes of Moroccon Arabic. "in Salman Al - Ani, PP. 247 - 267

(١٣) Harris. P.265.

(١٤) J.R. Firth. " Sounds and Prosodies." in Eric P. Hamp, Fred W. Householder, and Robert Austerlitz. Readings in Linguistics II (Chicago: The University of Chicago. 1996) PP. 175 - 191

وكما يقول عالم اللسانيات الأمريكي المعاصر البارز فرد هوس هولدر في تقديمه لمجموعة المقالات التي جمعها سلمان العاني وصدرت عن نادي اللسانيات في جامعة أنديانا بأمريكا، "... عندما قرأت هذه المجموعة المختارة من المقالات ظهر لي أنه من الصعب أن تجد أي مجموعة من المقالات أكثر تمثيلاً منها لمختلف فروع اللسانيات والمدارس اللسانية المتعددة. وذلك أنه يبدو من هذه المجموعة أن اللغة العربية تحتوي على مسائل لفتت انتباه أكثر العقول المهتمة باللسانيات تميزاً، وتوضح أكثر المفاهيم النظرية الأساسية. ولو سُئل أي لساني (اليوم) أن يسمي عشرة من أكثر المبدعين في اللسانيات وأكثرهم أثراً فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٧٠ م فإنه من غير المحتمل أبداً أن لا يسمي رومان ياكوبسون وزيلك هاريس وجوزف جرينبرج وجورج تريجر. وكل هذه الأسماء تظهر في هذه المجموعة. وعلى الرغم من غياب فيرث وكينيث بايك وأندريه مارتينيه من هذه المجموعة إلا أنها تشمل تلاميذهم. وإنك لتجد في هذه المجموعة كل أقسام اللسانيات الكبرى تقريباً ممثلة، وقد يكون تمثيلها مكرراً عدة مرات"(١٥). ولقد استمرت اللغة العربية في استقطابها لأكثر العقول تميزاً في اللسانيات فيما تلا التاريخ الذي ذكره هوس هولدر. ومن أبرز المهتمين بها كان مايكل بريم؛ إذ كتب رسالته للدكتوراة في معهد ماساتشوستس في سنة ١٩٧٠م(١٦). وقد اعتبرها الباحثون عملاً بارزاً استعمل فيه مايكل بريم دراسة التركيب الصواتي للغة العربية حجة لتطبيق النظرية الصواتية التي جاء بها تشومسكي وهاله في كتابهما "نمط الأصوات في اللغة الإنجليزية"(١٧). وقد انتشرت هذه الرسالة في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها واعتمدت مرجعاً للدراسة الصواتية وظهرت الإشارة إليها في عدد كبير من الكتب والمقالات في

---

(١٥) Fred Householder, "Preface," in Salman Al - Ani Reading, P. Viii

(١٦) Michael B. Brame, Arabic phonology: Implications for Phonological Theory and Historical Semitic.
Ph.D. Dissertation, MIT, 1970

(١٧) Noam Chomsky and Morris Halle, The Sound Pattern of English, (New York: Harper and Row, 1968).

تلك الفترة. وما زالت الإشارة إليها تتكرر بوصفها عملاً كلاسيكياً في النظرية الصواتية وفي الدراسات العربية.

ويبين مايكل بريم في مقدمة رسالته أن لعمله ذاك هدفين: (١) الإسهام في المعرفة التي تتزايد بشكل سريع عن النظرية الصواتية، و(٢) الإسهام في مجال اللسانيات السامية بمعالجة واحدة من اللغات السامية معالجة أعمق مما سبقها. ويبين أن الهدف الأول لا يتحقق إلا بمعالجة لغة واحدة تختبر بفحصها المقولات النظرية في مجال الدراسة الصوتية. ولذلك فقد فحص عدداً كبيراً من القواعد الصواتية في اللغة العربية لكي يختبر كفاية النظرية الصواتية التوليدية ولتحديد الجوانب التي ينبغي مراجعتها في هذه النظرية. ثم يبين عدداً من المقولات النظرية في هذه النظرية مما يمكن للغة العربية أن تعد معياراً في إمكانها أو عدم إمكانها. أما فيما يخص الهدف الثاني فيقول: "إنه يبدو أن اللسانيات السامية في وضعها الراهن مفلسة. فليس هناك إلى الآن أي وصف صواتي معاصر لأي لغة سامية يتجاوز تحليل النحويين العرب القدماء. إنني أعتقد أن النحو العربي خاصة قد بلغ أدنى درجات الانحطاط على أيدي العلماء الغربيين. فلقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تاماً كثيراً من العمق والأصالة اللذين أورثناهما النحويون العرب. إنني سأعالج هذا الموضوع بالروح التي عالجه بها النحويون العرب. وهذا صحيح في الأقل فيما يخص المسألة التي استرعت انتباههم، وهي مسألة تحديد الأصل أو التمثيل العميق للغة...."(١٨).

وفي خلال ٤٦٧ صفحة يعالج بعض المقولات النظرية مثل الترتيب بين القواعد الصواتية ترتيباً خطياً linear، وكذلك تطبيق القواعد الصواتية تطبيقاً دورياً Cyclic وهما مقولتان شغلتا المشتغلين بالتنظير الصواتي منذ النموذج النظري الذي أتى به تشومسكي وهاله في سنة ١٩٦٨م، وما زال الانشغال بهما مستمراً إلى الآن. وقد وجد أن هناك ما يقرب من ٣٨ قاعدة صواتية وشرطاً تحكم التركيب الصواتي للغة العربية النموذجية العصرية وتكون نتيجة للتشابك

---

(١٨) Michael Brame, Arabic Phonology....., P. vii

فيما بينها بنية صوتية متضامنة تفسر الاطراد الموجود في اللغة. كما تعرض فيها إلى بعض البحث التاريخي في اللغات السامية. وقد عالج بريم بعض المقولات النظرية هذه أو غيرها مستعملاً مادة لغوية من اللهجات العربية أو اللهجات التي تفرعت عنها مثل اللغة المالطية. ولم يكن بريم الوحيد الذي عالج اللغة العربية بقصد الإسهام في النظرية اللسانية فقد وجد عدد كبير من الدراسات من هذا النوع لا يمكن حصرها هنا.

وفي سنة ١٩٧٩م أنهى جون مكارثي رسالته للدكتوراه في معهد ماساتشوستس وكانت بعنوان "مسائل شكلية في الصواتة والصرف الساميين"(١٩) وقد اعتمد تحليل العبرية والعربية الفصحى ولهجتي دمشق والقاهرة في التدليل على بعض المقولات النظرية التي اقترحها. وفي هذه الرسالة أسس مكارثي نظرية جديدة في التحليل الصواتي. فقد كان المتبع في التحليل أن ينظر إلى الكلمة كأنها مركبة من أجزاء متتابعة وهو ما يدعى بالتركيب السلسلي concatenative. وهذا التركيب هو الذي يوجد في كثير من اللغات خاصة اللغات الهندية الأوروبية التي أسست عليها النظرية اللسانية الحديثة بمختلف فروعها. وبدلاً من ذلك رأى مكارثي – مستفيداً من النظرية الصواتية ذات المستويات المستقلة Autosegmental Phonology – أن النظرية الصواتية المعيار التي يمثلها كتاب تشومسكي وهاله لا يمكن تطبيقها على اللغات السامية، وذلك بسبب أن المورفيمات في هذه اللغات ليست متوالية بل متداخلة nonconcatenative. ففي العربية مثلاً نجد أن الجذور الثلاثة للكلمة هي التي تحمل المعنى الأساسي فهي لذلك تعتبر مورفيماً مستقلاً، ويضاف إلى هذا المورفيم حركات تدخل بين أجزائه ومكونات أخرى تضاف قبله وبعده. فكلمة مثل (كتبْ) إنما هي عبارة عن مورفيمين مستقلين هما ك ت ب وحركة الفتحة التي تشغل موضعين أحدهما بين الكاف والتاء والآخر بين التاء والباء، ولا تتكون هذه الكلمة من هذين

---

(١٩) John Joseph McCarthy, III. Formal Problems in semitic Phonology and Morphology. Ph.D. Dissertation, MIT, 1979.

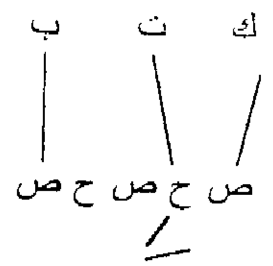
المورفيمين فقط بل إن الوزن (فعَلْ) يكوِّن مورفيماً ثالثا معناه أن هــذه الكلمــة: فعل ماض مبني للمعلوم. ولما كانت هذه المورفيمات الثلاثة مستقلة الواحد منها عن المورفيمات الأخرى فلابد أن تشغل مستويات مختلفة في التحليــــل ولذلــك اقترح مكارثي التمثيل الآتي لمثل هذه الكلمة:

ك ت ب

ص ح ص ح ص = (حيث يعني (ص) صوت صامت، و (ح) حركة)

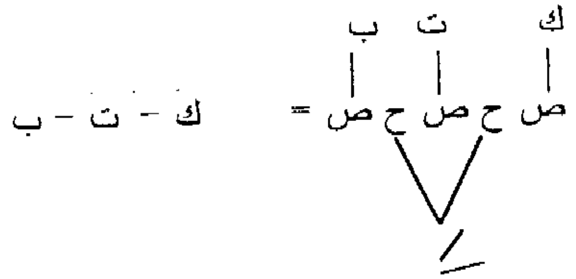
فالأصوات الصحيحة الثلاثة تكون مورفيماً واحداً معنــاه شــيء خــاص بالكتابة، أما التتابع من الأصوات الصحيحة والحركات فهو وزن الكلمة ومعنـــاه "فعل ماض" أما الفتحة فمعناها "أن الفعل ماض مبني للمعلــوم". وبذلــك تكــون المورفيمات متوالية على هذا المستوى المجرد من التمثيل. أما التداخل فيما بيــن هذه المورفيمات الثلاثة المكونة للفعل (كَتَبَ) فيتم عن طريـــق بعــض قواعــد الوصل association بين أي مورفيم والوزن. وقواعد الوصــــل هــذه محكومــة بالشروط التي تراها النظرية الصواتية ذات المستويات المستقلة.

ويتم وصل المورفيمات على النحو التالي:



وفي هذه الخطوة يوصل بين كل واحد من أجـــزاء المورفيــم (ك ت ب) وموضع محدد في الوزن (ص ح ص ح ص).

وفي الخطوة الثانية يوصل بين الفتحة والموضع الأول للحركة (ح) وكذلك الموضع الثاني:



وبهذه الكيفية يمكن أن تحلل اللغات التي لا تخضع للترتيب السلسلي المعروف في النظرية المعيار.

وكانت هذه النظرية بداية لما سمي فيما بعد (الصواتة الوزنية metrical phonology بل زوجت هذه النظرية بنظرية الصواتة ذات المستويات المستقلة) فأصبح أسمها "الصواتة الوزنية ذات المستويات المستقلة" Autosegmental Metrical Phonology.

ولم تكن دراسة مكارثي هذه إلا بداية لنظرية ما زالت مستمرة يتم تعميقها باستمرار. وكانت اللغة العربية دائماً هي المثال البارز الذي يستعمل في التدليل عليها. وقد كتب مكارثي نفسه عدداً كبيراً من المقالات في هذه النظرية وذلك مثل (١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٣، ١٩٨٦)[٢٠] وغير ذلك. كما أن هذه النظرية استقطبت أبرز الباحثين المنظرين في الصواتة مثل آلان برنس الذي كتب بالاشتراك مع مكارثي عدداً من المقالات كان موضوعها تطوير هذه النظرية مستعملين اللغة العربية مثالا (مكارثي وبرنس ١٩٩٠ وغير ذلك). كما كتب

---

(٢٠) John J. McCarthy, " A Note on the accentuation of Damascene of Arabic, " Studies in the Linguistic Science (1980), 10.2.

John J.Mc Carthy,"A Prosodic Acount of Arabic Broken Plurals" Current Trends in African Linguistics I (ed)By L. Dihoff,(Dordrecht:Foris, 1983) PP. 289- 263

J. McCarthy and A. Prince "Foot and Word In prosodic morphology: The Arabic Broken Plural, "Natural Language and Linguistic Theory 8 (1990) PP. 109 - 183.

برنس نفسه عدداً من المقالات مثل (١٩٨٧، ١٩٩٠)[٢١]. وكذلك كتب أحد رواد البحث اللساني الصواتي وهو موريس هاله أستاذ مايكل بريم وجـون مكـارثي عدداً من المقالات كان يخصص بعضها للتركيب الوزني للغة العربية أو يشـير في ثنايا أبحاثه للغة العربية.

وقد انتشر الاهتمام باللغة العربية نتيجة لهـذه النظريـة وغيرهـا مـن النظريات اللسانية المعاصرة مما نتج عنه إنشاء بعض المجلات المتخصصة في الدراسات اللسانية عن اللغة العربية مثل Journal of Arabic Linguistics في سنة ١٩٧٨م وإنشاء جمعية اللسانيات العربيـة Arabic Linguistic Society سـنة ١٩٨٨م في مدينة سولت ليك بولاية يوتاه في أمريكا. كما نشر عدد من الكتـب عن بعض القضايا في اللغة العربية وكذلك كثيراً ما تجد مقـالات فـي أشـهر الدوريات المتخصصة تعالج قضايا في اللغة العربية بقصد الإسهام في النظرية اللسانية. كما خصصت بعض الدوريات أعداداً خاصة عن الدراسـات اللسـانية العربية مثل: Arabica في سنتها ٢٨ عـددي ٢ (١٩٨١م) و Historiographia linguistica في سنتها الثامنـة عـددي ٢ و ٣ (١٩٨١م) و Anthropological linguistics في سنتها الثامنة والعشرين العدد ١ (١٩٨٦م) وكذلك International Journal of the Sociology of Language ٦١ (١٩٨٦م) وغير ذلك.

أما فيما يخص الجمعية اللسانية العربية في أمريكا فقد قامت منـذ ١٩٨٨م بعقد ندوات سنوية تجمعُ الأبحاث التي تلقى فيها في مجموعات نشر منهـا إلـى الآن أربع وذلك عن دار نشر جون بنجامين للنشر الشهيرة. وقد افتتحت مشـيرة عيد وهي من مؤسسي هذه الجمعية ومن أبرز الباحثين في اللسانيات العربية في أمريكا المجموعة الأولى بمقال طويل بعنـوان "اللسـانيات العربيـة : الوضـع الحاضر"[٢٢] تحدثت فيه عن التوسع الذي طرأ في السـنوات الأخـيرة علـى

---

(٢١) Alan Prince, "Planes and Copying, " Linguistics of Rhythmic Organization", in Papers from Chicago Linguistic Society, vol.2, (1990) PP. 355 - 398

(٢٢) Mushira Eid, "Arabic Linguistics: The Current Scene "in Perspectives on Arabic Linguistes I. ED By Mushira Eid, (Amsterdam / Philadelphia: John

الدراسة اللسانية المهتمة باللغة العربية فذكرت كثرة الأبحاث والاهتمام بهذه اللغة في المؤتمرات والندوات اللسانية العالمية الشهيرة مثل اجتماعات جمعية اللسانيات الأمريكية وجمعية شيكاغو اللسانية وغير ذلك، كما ذكرت عدداً من المؤتمرات التي اختصت باللغة العربية. كما ذكرت أن الاهتمام باللغة العربية كان ذا شقين أحدهما: البحث في اللغة العربية لذاتها، وثانيهما: البحث فيها لغرض اختبار المقولات النظرية اللسانية وتطويرها. كما تناولت كثيراً من المواضيع التي استحوذت على اهتمام الدارسين. ويمكن عد هذا المقال أوفى تغطية للنشاط الذي تركز حول اللغة العربية في السنوات الأخيرة. وهو يشير بوضوح إلى أن اللغة العربية تحتل موقعاً متميزاً بين اللغات في هذا النشاط.

وفي هذه المجموعة يكتب اللساني الأمريكي المهتم باللغة العربية تشارلز فرجسون مقالاً بعنوان " فأتوا بسورة من مثله": اللغة العربية مقياساً للمجتمع العربي"(٢٣) يقارن فيه بين وضع الدراسة عن اللغة العربية قبل أربعين سنة والوضع في سنة ١٩٨٨م، فيبين العدد الكبير من المقالات والكتب التي نشرت عنها. كما يتحدث عن وضع الدراسات اللسانية العربية في الفترة المبكرة التي يمكن وصفها بالقلة كما أنها كانت تهتم بالجانب التاريخي من الدراسة. ثم يشير إلى بعض الخصائص العربية التي لفتت أنظار الدارسين اللسانيين. كما أشار إلى التغير اللغوي في العالم العربي الذي ينحو نحو خلق لغة نموذجية جديدة خلافاً للوضع الذي كان قد وصفه في مقالة له سنة ١٩٥٩م بعنوان "الازدواجية"(٢٤) كان قد تنبأ فيه باحتمال انفصال العالم العربي لغوياً إلى ثلاث مجموعات وهي: بلاد الشام والعراق، ومصر والسودان، والمغرب العربي. لكنه في هذا المقال يؤكد أن هذا الاحتمال لا يزيد على كونه احتمالاً واحداً بين احتمالات أخرى

Benjamins Publishing co., 1990) PP. 3 - 37

(٢٣) Charles A. Ferguson, " Come forth with a Surah Like it: Arabic as a measure of Arab Society," in M. Eid . PP. 39 - 51

(٢٤) Charles A. Ferguson, "Diglossia", "Reprinted in Pier Paolo Giglioli (eds) Language and Social Context. (London : Penguin Books , 1972)PP. 232 - 251

ممكنة.

وقد احتوت هذه المجموعة على تسعة مقالات تناقش ثلاثة مواضيع هي: المنظور النحوي: ويحوي خمسة مقالات تناقش بعض المسائل النحوية في العربية من خلال النظرية اللسانية التركيبية، والموضوع الآخر هو منظور تحليل النص ويحتوي على مقالين تناقش فيهما مسائل مثل ظاهرة الشفوية وتحليل اختفاء حركات الإعراب تاريخياً في نص يعود إلى نصوص مسيحية من جنوب فلسطين. والموضوع الثالث هو المنظور اللغوي النفسي ويناقش فيه ذاكرة ثنائي اللغة وكذلك ظاهرة سبق اللسان. وكما هو واضح فإن هذه المجموعة تغطي نواحي مهمة من حيث وصف اللغة العربية لذاتها واتخاذها سبيلاً لمناقشة بعض المسائل النظرية العامة.

أما المجموعة الثانية فقد حررت أبحاثها مشيرة عيد بالاشتراك مع جون مكارثي وتحوي ثلاثة محاور هي: المنظور الصرفي والصواتي ويحتوي على ستة أبحاث، والمحور الثاني المنظور الدلالي ويحوي بحثين، والمحور الثالث المنظور اللساني الاجتماعي. ويقدم جون مكارثي ومشيرة عيد لهذه المجموعة مبينين أنه "يحدث أحياناً أن بعض الحقائق في لغة معينة أو عائلة لغوية ما تتعدى الاهتمامات الضيقة (عن هذه اللغة أو العائلة اللغوية) وتدخل في الضمير الجمعي للمنظرين اللسانيين بعامة. وتصبح هذه الحقائق عندئذ جزءاً مما يسمى (بالحالات الكلاسيكية) التي يجب على التنظير اللاحق أن يأخذها في الحسبان منذ البدء. وهذه الحالات قليلة، ولذلك فإنه من اللافت للنظر أن تسهم لغة واحدة بحالتين كلاسيكيتين في مجال نظري واحد. وعلى الرغم من ذلك فإن ذلك ما حدث فيما يخص الصرف العربي"(٢٥). والحالتان الكلاسيكيتان اللتان أسهم الصرف العربي بهما في التنظير الصرفي اللساني ما أسهم به مايكل بريم من تدليل على ما يسمى

---

(٢٥) M. Eid and J. Mc Carthy " Introduction". in M. Eid and J. McCarthy Perspectives on Arabic Linguistics. (Amesterdam II/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co. 1990) PP. xii -

"الدورة التحويلية" Transfor mational cycle والحالة الأخـــرى أن الصـــرف العربي قدم دليلاً على ما أصبح يسمى بالنظرية الصواتية غير الخطية.

وقـد احتـوى المحـور الأول علــى مقــال طويل كتبه جون مكارثي وعالم اللسانيات الشهير آلان برنس بعنوان "الصــرف التطريـــزي والصـــرف النمطي" (٢٦). وهذا المقال تطوير للنظرية الصواتية غير الخطية يذهب بعيداً في مستوى التجريد إذ يقترح مبادئ عامة قليلة تحكم ظواهر كثـــيرة فـــي الجـــانب الصواتي. وقد أصبح هذا المقال واحداً من المراجع التي لا يكـــاد يخلـو مـن الإشارة إليه أي بحث في الصواتة. ويحلل جون مور الأفعال المضعفة في اللغة العربية المعاصرة معتمداً أساساً على نظرية مكارثي وبرنس مدخلاً عليها بعض التعديلات الطفيفة(٢٧). كما يكتب روبرت راتكليف مقالاً عن جموع التكسير فـــي العربية (٢٨). كما تكتب سميرة فروانة مقالاً عن وصـــل المســتويات المختلفــة للمورفيمات المكونة للكلمة(٢٩). وتحلل س. دوجلاس جونسون نظرية الـــدورة في اللهجات الشامية(٣٠) وتقترح بديلاً لتحليل مايكل بريم لحذف الحركات في هذه اللهجات. وتكتب محاسن أبو منصور عن الحركات المزيدة والتضعيف وتركيب المقطع في اللهجة المكية(٣١) وتقترح تحليلاً يعتمد على تركيب المقاطع لتفســير بعض الظواهر الصوتية في هذه اللهجة. ويكتب جون إيسل عن التنظيم الجهوي

---

(٢٦) J. McCarthy and A. Prince. "Prosodic Morphology and Templatic Morphology," in Meid and J. McCarthy, PP. 1-54.

(٢٧) John Moore. "Double Verbs in Modern Standard Arabic". in M. Eid and J. McCarthy,PP. 55-93.

(٢٨) Robert R. Ratcliffe. "Arabic Broken Plurals: Arguments for two folds classification of Morphology." in m. Eid and J. McCarthy , PP. 94-119.

(٢٩) Samir Farwaneh. "Well - Formed Associations in Arabic: Rules or condition?" in M. Eid and J. McCarthy PP. 120- 142.

(٣٠) C. Douglas Johnson. "Levantine Cyclogenesis". in M. Eid and J. McCarthy. PP.143- 166.

(٣١) Mahasen Hasan Abu - Mansur. "Epenthesis. Gemination and Syllable Structure". in M. Eid and J. McCarthy. PP. 167-191

للأفعال في اللهجة القاهرية(٣٢). ويكتب محمود البطل عن عناصر الربـــط فـــي النصوص النثرية العربية(٣٣). ويكتب ديلوورث باركنســـون عـــن الاختلافـــات الإملائية في اللغة العربية المعاصرة متخذاً من رسم الهمزة مثالاً(٣٤). كما يكتب أخيراً عادل الطويسي عن نطق غير العرب للعربية واتخاذ ذلك دليلاً علـــى أن تبسيط اللغة وقواعدها هو مسلك عام ينطبق على تبسيط العربية وغيرهـــا مـــن اللغات وإن كان هناك ما تختلف فيه هذه الظاهرة في العربية عن غيرها(٣٥).

وهكذا نرى أن هدف هذه الأبحاث كلها هو دراسة بعض الظواهـــر فـــي العربية للإسهام في تطوير الدراسة اللسانية النظرية. ومن الأدلة على أثر مثـــل هذه الدراسات أن البحث الصواتي الآن يأخذ النظرية التي أسست على اللغـــات السامية وخاصة العربية ذات التركيب الصرفي المتميز عن غيره نموذجاً يعمم على لغات تختلف عن اللغات السامية في أن المورفيمات فيها متتابعـــة بـــدل أن تكون مستقلة بعضها عن بعض. ومن ذلك ما نجده فـــي مكـــارثي ١٩٨٩م(٣٦) وبرنس ١٩٨٧م(٣٧).

وتحتوي المجموعة الثالثة من هذه السلسلة على ثلاثة محاور: الأول عـــن اللغة العربية وصلتها باللغات الأخرى، والمحور الثاني عن النحو، والثالث عـــن اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية. وتفتتح مشيرة عيد التي حررت هـــذه

---

(٣٢) John C. Eisele, " Aspectual Classification of verbs in Cairene Arabic", in M Eid and J. McCarthy, PP. 192 - 233.

(٣٣) Mahmoud Al - Batal, "Connectives as Cohesive Elements in Modern Expository Arabic Text", in M. Eid and J. McCarthy, PP.234-268

(٣٤) Dilwort B. Parkinson, "Orthographic Variation in Modern Standard Arabic: The Case of the Hamza", in M. Eid and J. McCarthy , PP.269 - 295.

(٣٥) Adel I. Twaissi, "Foreigner Talks in Arabic: Evidence for the Universality of Language Simplification", in M. Eid and J. McCarthy, PP. 296 - 326

(٣٦) J. McCarthy, "Linear order in Phonological Representation, "Linguistic In'quiry, 20.1 (1989) PP. 71 - 99

(٣٧) A. Prince, " Planes and Copying, "Linguistic Inquiry, 18.2 (1987) PP. 491 - 509

المجموعة بالاشتراك مع عالم اللسانيات الشهير برنارد كومبري هذه المجموعة بمقدمة توضح فيها الخطوط العامة للأبحاث المتضمنة فيها. ويكتب كومبري المقال الأول بعنوان (أهمية اللغة العربية للنظرية اللسانية العامة)(٣٨). ويبين فيها بأدلة جديدة أهمية العربية للتنظير اللساني. فيقول في مقدمة مقاله "... يجب ألا تكون اللسانيات العربية موضوعاً مستقلاً، سواء أكان ذلك بعدم أخذها من النظرية اللسانية العامة أم بعدم إسهامها في النظرية العامة، وهو أمر أكثر أهمية هنا، وأريد أن أؤكد بعضاً من أوجه الأهمية للإسهام الذي أعتقد أن دراسة العربية يمكن أن تقدمه للنظرية اللسانية العامة. وبالمقابل فإنه يمكن أن يظن أنه من غير المفيد أن يبرهن الإنسان على أهمية العربية لكي يشجع دراسة العربية، إذا أخذنا في الحسبان أن هذه اللغة قد درست دراسة مستفيضة بوصفها لغة حضارة مهمة ودين مهم.... ولذلك فإنني أود أن أبين حتى لأولئك اللسانيين الذين لايهمهم هذا المنظور الحضاري الواسع أن اللغة العربية لديها الكثير مما تقدمه لهم"(٣٩).

ويناقش في هذا المقال عدداً من المواضيع ومن أخصها الطريقة التي تعبر بها اللغة العربية ولهجاتها عن الزمن والجهة. وينطلق من وصف هذه الظواهر إلى مواضيع أكثر عمقاً في النظرية اللسانية العامة.

وتكتب مشيرة عيد مقالاً عن الجملة الاسمية في العربية والعبرية(٤٠) تقترح فيه أن في الجملة الاسمية في اللغتين رابطاً قد يعبر عنه أحياناً بالضمير يؤدي وظيفة فعل الكون. ويكتب جون مكارثي مقالاً عن الأصوات الحلقية في

---

(٣٨) Bernard Comprie. "On the Importance of Arabic for General Linguistic Theory", in Bernard Comprie and M. Eid (eds.) Perspectives on Arabic Linguistics III (Amesterdam Philadelphia: John Benjamins Publishing CO., 1991) PP. 3-30.

(٣٩) B. Comprie. Ibid. PP. 3-4

(٤٠) Mushira Eid. "Verbless Sentences in Arabic and and Hebrew." In B. Comprie and M. Eid, p. 31-61.

العربية[٤١] يرى فيه أن نظرية الملامح التمييزية في النظرية اللسانية الصواتية ليس فيها ملمح يمكن أن يعبر عن هذه الأصوات. ولذلك يقترح إضافة ملمح هو "الحنجرية" إلى قائمة هذه الملامح في النظرية. ويكتب عواد الحربي مقالاً عن الكلمات العربية في إحدى اللغات الأندونوسية[٤٢] يحلل فيه النظريات المقترحة لتفسير دخول الكلمات الأجنبية في لغات أخرى. ويكتب عبد الجواد محمود مقالاً عن التحليل التقابلي في بعض أنواع الجمل في اللغتين الإنجليزية والعربية يتطرق فيه إلى اختبار بعض النظريات اللسانية المقترحة لتحليل أنواع تلك الجمل[٤٣]. وتكتب محاسن أبو منصور عن الحركات المزيدة في اللهجة المكية منطلقة من ذلك الوصف إلى مناقشة بعض النظريات الصواتية لتحليل هذه الحركات المزيدة[٤٤] ويكتب كينيث بيزلي عن التحليل الحاسوبي للصرف العربي[٤٥]. ويحلل العباس بن مأمون أفعال التعدية في العربية المغربية[٤٦] وذلك في إطار نظرية الربط العاملي Government and Binding theory التي اقترحها تشومسكي. وهناك ثلاثة مقالات عن اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية هي " الرجال والنساء والتنوع اللغوي في العالم العربي" كتبه كيث وولترز[٤٧]، و"تغيير الرمز والانسجام اللغوي في العالم العربي" كتبه عبد

---

(٤١) John McCarthy. "Semitic Gutturals and Distinctive feature Theory", in B. Comprie and M. Eid, PP. 63-91

(٤٢) Awwad Ahmad Al - Ahmadi Al - Harbi. "Arabic Loanwords in Acehnese", in B. Comprie and M. Eid, PP. 93 - 117

(٤٣) Abdel Gawad T. Mahmoud. " A Contrastive Study of Middle and Unaccusative Constructions in Arabic and English", in B. Comprie and M. Eid, PP. 119 - 134

(٤٤) Mahasen Hasan Abu - Mansour. "Epenthesis in Makkan Arabic: Unsyllabified consonants Vs. Degenerate syllables", in B. Comprie and M. Eid, PP 137 - 154.

(٤٥) Kenneth R. Beesley. "Computer Analysis of Arabic Morphology: A Two - Level Approach with Detours", in B. Comprie and M. Eid 155 - 172.

(٤٦) El - Abas Ben Mamoun. "Causative in Moroccon Arabic", in B. Comprie and M. Eid PP. 173 - 195.

(٤٧) Keith Walters. "Women, Men, and Linguistic Variations In The Arab World", in B. Comprie and M. Eid, PP. 199 - 229

الرحيم أبو ملحم[٤٨]، وفيه يتعرض للمستويات اللغوية التي يستعملها العرب في أحاديثهم اليومية. والمقال الأخير يعالج ظاهرة تحصل عند بعض من يصابون بإصابة في أدمغتهم عندما يتكلمون العربية[٤٩].

أما المجموعة الرابعة فهي من تحرير إلين بروسلو ومشيرة عيد وجون مكارثي. وتحوي ثلاثة محاور: الأول عن اللهجات العربية ومقتضياتها للسانيات العامة، والثاني عن اللسانيات الاجتماعية، والثالث عن الدراسات التاريخية. ويقدم جون مكارثي وإلين بروسلو لهذه المجموعة ثم تكتب بروسلو مقالاً عن مقاييس الاختلافات الصواتية في اللهجات العربية[٥٠]. وتبين فيه أنه على الرغم من الاختلافات الظاهرية بين هذه اللهجات إلا أنه تحكمها مبادئ عامة قليلة، وأن ما يلاحظ من هذه الاختلافات سببه تغيير ضئيل يعود إلى مبدأ خاص بتركيب المقطع. وتكتب محاسن أبو منصور عن "تقصير المقطع المغلق وعلاقته بالمستويات الصرفية" [٥١] تقارن فيه بين اللهجة المكية واللهجة المصرية في ظاهرة قصر المقطع المغلق وتقترح فيه وجود مستوى آخر في الصرف يمكن أن يفسر الاختلاف بين اللهجات واللغات. ويكتب ديفد تيستن عن الكاف التي تستخدم ضميراً للمتكلم في بعض اللهجات اليمنية[٥٢] ويشير إلى أن هذه الظاهرة ربما كانت بسبب أثر اللغات العربية الجنوبية القديمة. كما تكتب فريدة أبو حيدر

---

(٤٨) Abdel - Rahman Abu - Melhim. "Code - switching And Linguistic Accomodation In Arabic". in Arabic." In B. Compric and M. Eid. PP. 232-250

(٤٩) Sabah Safi - Stagni. "Agrammatism In Arabic B. Compric and M. Eid. PP. 250- 270

(٥٠) Ellen Broselow. "Parametric Variation in Arabic Dialect Phonology. " in Ellen Broselow - low. Mushira Eid and John McCarthy (eds) Perspectives on Arabic Linguistics IV (Amesterdam- Philadelphia: John Benjamins Publisheing Co., 1992) PP. 7- 45

(٥١) Mahasen Hasan Abu - Mansour. "Closed Syllable Shortening And Morphological Levels". in Broselow,Eid and McCarthy PP. 47 - 75.

(٥٢) David Testen. "Extra - Arabic Affiliations of K - Yemeni". Broselow. Eid and McCarth. PP. 77- 89.

عن أثر اللغة العربية المعاصرة على انسجام اللهجات البغدادية التي تتكلمها طوائف متعددة(٥٣). وتكتب مشيرة عيد عن الضمائر وأدوات الاستفهام والمطابقة في اللهجات العربية(٥٤). ويكتب جون إيزل عن الأفعال المساعدة في اللهجة المصرية من خلال المقولة النحوية المسماة "Aux" وهي إحدى المقولات المقترح وجودها في التحليل التركيبي للجمل(٥٥)، ويقترح فيه تحليلاً للظواهر التركيبية لا يلجأ إلى اقتراح هذه المقولة. وتكتب نيلو فار هايري عن التنوعات الآنية في اللهجة المصرية مركزة على ظاهرة صوتية هي تقديم بعض الأصوات الخلفية بحيث تنطق من مقدم الفم(٥٦). ويكتب كيث وولترز عن نطق الضمة الطويلة في إحدى اللهجات التونسية متخذاً هذه الظاهرة وسيلة لتحديد الاختلافات اللغوية في الأوضاع اللغوية التي توجد في مناطق لقاء لغوي بين الفرنسية والعربية(٥٧). ويكتب أحمد عطاونة عن مزج الرموز في كلام الذين يتكلمون الإنجليزية والعربية لغتين أصليتين(٥٨)، يناقش هذه الظاهرة مقارناً إياها بأوضاع مشابهة في أماكن أخرى من العالم. ويكتب ر. كيرك بيلناب وأسامة شبانة عن جموع الأشياء غير العاقلة في اللغة العربية الفصحى واللغة العربية المعاصرة والمطابقة

---

(٥٣) Farida Abu - Haidar, " Shifting Boundaries: The Effect of Standard Arabic on Dialect convergence in Baghdad", in Broselow, Eid, and McCarthy, PP. 91 - 106

(٥٤) Mushira Eid, " Pronouns, Questions and Agreement", in Broselow, Eid, and McCarthy PP. 107- 141.

(٥٥) John C. Eisele, "Egyptain Arabic Auxiliaries And The Category of Aux", in Broselow Eid , and Mc Carthy, PP. 143 - 165.

(٥٦) Niloofar Haeri, "Synchronic Variation In Cairene Arabic: The Case of Palatalization", in Broselow, Eid and McCarthy, PP. 169 - 180.

(٥٧) Keith Walters, "A sociolinguistic Description of (u:) in Korba Arabic : Defining Linguistic Variables in Contact Situation and Relic Area", in Broselow, Eid and McCarthy, PP. 181 - 217

(٥٨) Ahmad Atawneh, "Code - Mixing In Arabic - English Bilinguals", in Broselow, Eid and McCarthy, PP. 219 - 241.

بين الأسماء الجمع والصفات(٥٩)، ويقترحان فيها بعض النتائج عن تاريخ اللغة العربية. وأخيراً تكتب كارين ريدنج عن التحليل التركيبي الصرفي في كتاب الجمل في النحو محللة فيه اللغة الوصفية والمنهج في هذا الكتاب المنسوب للخليل بن أحمد(٦٠).

وتختتم كل واحدة من المقالات في المجموعات الأربع بقائمة للمراجع تشهد على مدى العمل العلمي المتشعب والمتعمق الذي حظيت به اللغة العربية.

مكانة الدراسات النحوية العربية

ظلت الإشارات إلى إسهام العرب المسلمين في دراسة اللغة نادرة، فكثير من كتب تاريخ البحث اللغوي إما أن تتجاهل ذلك الإسهام أو أن تقلل منه إذا ذكرته، ومن ذلك ما يقوله ج.س. جرين: " من اللافت للنظر أنه يبدو أن العرب لم يسهموا بشيء في دراسة اللغة يمكن أن يقارن بدراساتهم التي أدت إلى توسيع الرياضيات، والفلك والطبيعة والطب والتاريخ الطبيعي وتطويرها" (٦١).

وإذا ما ذكر تاريخ النحو العربي فكثيراً ما يقرن بأثر أجنبي أسهم في نشوئه. ومن ذلك أن النحو العربي متأثر بالدراسات اليونانية. أو متأثر بالدراسات الهندية. لكن هذا الحال تغير خصوصاً مع ازدهار الدراسات اللسانية المتأثرة بفكر تشومسكي. وذلك أن تشومسكي ينظر إلى اللغات عموماً على أنها تمثلات لشيء واحد عام في بني الإنسان مخصوصين به. ولذلك لا نستغرب التشابهات

---

(٥٩) R. Kirk and Osama Shabaneh. "Variable Agreement and Non - Human Plurals In Classical and Modern Standard Arabic". In Broselow, Eid and McCarthy, PP 245 - 262.

(٦٠) Karin C. Ryding. "Morphosentactic Analysis In Al - Jumal Fil L- Nahw: Discourse Structure And Metalanguage". In Broselow, Eid, and McCarthy, PP. 263-277

(٦١) نقلاً عن Kees Versteegh في كتابه:

Greek Elements In Arabic Linguistic Thinking (Leiden Brill, 1977) PP. Vii - Viii.

الكثيرة العميقة بين اللغات كما لا نستغرب أن يصل بنو الإنسان في دراسة لغاتهم إلى نتائج متشابهة. ونتيجة لهذا الأثر بدأ توجه جديد فيما يخص الدراسات العربية في الغرب ذلك هو البحث في تاريخ النحو العربي.

ومن أوائل الأبحاث التي تنحو هذا النحو مقال كتبه ديفد بترسون بعنوان "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب" (٦٢). ويناقش فيه لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد، ويختمه بقوله: "…. يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذي تقدم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأي حال. بل إنهم بنيويون بالمعنى نفسه الذي يصنف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلي بأنه بنيوي – إن النحويين العرب كانوا مهتمين بالتحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض وذلك ما يؤدي إلى تفسيرها. إن من اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجردة ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم…. إن دليل نجاحهم يبينه أن عملهم لم يتجاوز إلا في حالات قليلة"(٦٣) ولنتذكر هنا ما قاله مايكل بريم في مقدمة رسالته للدكتوراة وهو ما أشير إليه من قبل في هذا البحث. وهناك أعمال كثيرة اهتمت بهذا الجانب، لكنني سوف أهتم هنا بعدد من الأبحاث التي صدرت أخيراً.

ومن أشهر العاملين في هذا الاتجاه مايكل كارتر فقد كتب عدداً كبيراً من المقالات والكتب عن موضوع تاريخ النحو العربي خصوصاً ما يتعلق بكتاب سيبويه(٦٤). ومن ذلك المقالات والكتب التالية : " عشرون درهماً في كتاب

---

(٦٢) David Peterson, "Some Explanatory Methods of the Arab Grammarians", in Paul M. Peranteau, Judith N. Levi, and Gloria C. Phrase (eds.) Papers from the 8th Regional Meeting of Chicago Linguistic Society, 1972) 502 - 515.

(٦٣) David Peterson, "Some Explanntory….." P 513

(٦٤) Michael G. Carter. Astudy of Sibawaihi's Principales of Grammaticat Analysis. Ph.D. Dissertation, Oxford University, 1968.

سيبويه"(٦٥). وهو يتحدث عن استعمال سيبويه لهذا التعبير للتمثيل في كثير من الأحيان. و "أصول النحو العربي"(٦٦)، و "نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي"(٦٧)، و "الصرف والخلاف: مساهمة النحو العربي"(٦٨)، و"اللسانيات العربية"(٦٩) وهو كتاب حقق فيه وترجم مخطوطاً عربياً نحوياً هو "نور السجية في حل المسائل الأجرومية" لمؤلفه سيدي محمد الشربيني الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي في مصر. وتحتوي هذه الترجمة على النص العربي ثم ترجمته إلى اللغة الإنجليزية مضافاً إلى ذلك تعليقات مفصلة عن مسائل النحو العربي والخلاف فيها ومناقشة بعض الأعمال الحديثة التي ناقشت بعض القضايا التي ذكرت في الكتاب. ويختم بفهارس للآيات القرآنية والأبيات الشعرية المستشهد بها والأسماء والمؤلفين وعناوين الكتب. وزيادة على ذلك فهناك أثنتا عشرة صفحة تحتوي على المصطلحات العربية المستعملة وترجمتها إلى مصطلحات إنجليزية. "واستعمال أسماء العلم في كتاب سيبويه أداة للاختبار"(٧٠)، و"متى صارت كلمة النحو اسماً على النحو"(٧١)، و "المصطلح "سبب" في النحو

---

(٦٥) Michael G. Carter. "Twenty Dirhams in the Kitab of Sibawaih". Bulletin of School of Oriental And African School. 35 (1972). PP 485 - 496

(٦٦) Studies.Michael G. Carter. "Les Origions de la Grammaire Arabe". Revue des PP. 69 97. (Etudes Islamique. 40 (1972)

(٦٧) Michael G. Carter. "An Arabic Grammarian of theEighth Century A.D". Journal of Americal Oriental Socity, 93 (1973) PP. 146 - 157.

(٦٨) Michael G. Carter. "Sarf et Khilaf: Contribution a la Grammaire Arabe". Arabica, 20 (1973) PP. 292 - 304.

(٦٩) Michael G. Carter. Arabic Linguistics. (AmesterdamL Philadelphia: John Benjamins Publishing Co., 1981).

(٧٠) Michael G. Carter. "The Use Of Proper Names as a testing Device in Sibawaih's Kitab". In Versteegh. Koerner, and Niederehe (eds.) The History of Linguistics in the Middle East. (Amesterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co., 1983) PP. 109 - 120.

(٧١) Michael G. Carter. "When did the Arabic Word Nahw First Come to Denote Grammar". Language and Communication 5 (1985) PP. 265 - 272.

العربي" (٧٢)، وغير ذلك كثير. كما أسهم مع كيس فريستيغ في تحرير كتاب بعنوان "دراسات تاريخ النحو العربي٢"(٧٣). ويحتوي هذا الكتاب على اثنين وعشرين مقالاً تهتم كلها بتاريخ النحو العربي وهي حصيلة مؤتمر عُقد في جامعة نيمنجن في ألمانيا في سنة ١٩٨٧م.

ويقول المحرران في مقدمة هذا الكتاب "يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يعنى بهما مؤرخ اللسانيات : فالنقطة الأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية هو من غير شك نتيجة لتطور اللسانيات العامة وصقلها إذ وضع هذا لتطور العلماء الغربيين في مستوى يمكنهم فيه أن يقدروا عمق التفكير اللساني العربي ودقته؛ وبغض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية إلا أنها أسهمت من غير شك إسهاماً موجباً في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية هي أنه من الواضح أنه على المستوى النظري الكلي أو على المستوى التطبيقي كليهما فإن هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكليات اللسانية في الأقل ربما لايمكن نقاشه الآن من غير النظر في التنظيرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة من غير الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تعد اللغة العربية أشهرها من حيث النضج الذي لا يقل عن نضج الأنظمة اللسانية المألوفة مثل الهندية أو الصينية. إن المهتم باللسانيات العامة الذي يعرف العربية أو هو على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يمكنه من فهم محتوى المقالات الموجودة في هذه المجموعة قد يجد بعض المعلومات التي يمكن أن تقود إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية"

أما عن ما تتصف به المقالات التي تؤرخ للنشاط النحوي العربي في هذه

---

(٧٢) Michael G. Carter. "The term Sabab in Arabic grammar." Zeitshrift Fur arabische Lin- gutik. 15 (1985) PP. 53 - 66.

(٧٣) Kees Versteegh and Michael G. Carter. Studies in the History of Arabic Grammar II. (Amesterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co., 1990).

المجموعة فيقول المحرران : "إن الملاحظ في (المقالات التي تهتم بتاريخ بعض النحويين) أنها تتعدى حدود المناهج التقليدية في البحث، تلك التي تركز أساساً على التفصيلات الخاصة بسيرة حياة النحويين، وتنحو نحو فحص إنتاجهم العلمي بوصفه منظومة من الأفكار الثابتة التي لابد أنهم حصلوا عليها من سابقيهم، وبهذه الطريقة لم يُعترف إلا بوجود عدد قليل من العباقرة". أما البديل فهو: " كما يتبين من عدد من المقالات في هذه المجموعة، فإن النحوي المسلم كان حراً في تطوير أي رأي يراه معقولاً ومتماشياً مع دينه، ولذلك فإن القارئ المعاصر يجب أن يتوقف عن النظر إلى الإسلام على أنه عنصر كبت، وأن ينظر بدلاً عن ذلك إلى الخصوصية والمبادرة التي كان المثقفون المسلمون أحراراً في اتخاذها".

والمقال الأول في هذه المجموعة كتبته جورجينا أيوب بعنوان " وهذا ما لا يقال في كتاب سيبويه: مفهوم التمثيل"(٧٤). وقد تحدثت فيه عن مفهوم التمثيل الذي يتكرر إيراده في كتاب سيبويه أداة من أدوات التحليل.

ويكتب رمزي بعلبكي عن "الإعراب والبناء: من المادة اللسانية إلى النظرية النحوية"(٧٥). ويناقش بعلبكي في هذا المقال هذين المصطلحين ويرى أن سيبويه ضحى بالاختلافات اللهجية في سبيل تكوين نظرية لسانية منضبطة. ويكتب مونيك برناردز عن "النحوي البصري أبي عمرو الجرمي: موقعه بين سيبويه والمبرد"(٧٦) ويحاول فيه أن يؤرخ لآراء الجرمي. ومنها ما يخص الاعتراض على بعض آراء سيبويه. ويكتب هانز هنريش بيستر فيلت عن

---

(٧٤) Georginc Ayoub. "De ce Qui" Ne DIT Pas Dans Le Livre De Sibawayh: La Notion De TAMTIL. in versteegh and Carter. PP. 1-15"

(٧٥) Ramzi Baalbaki. "LRAB and BINA from Linguistic Reality To Grammatical Theory". in Versteegh and Carter. 17-33.

(٧٦) Monique P.L.M Bernards. "The Basran Grammarian Bu Umar Al - Garmi: His Posi tion Between Sibawayh And Murbarrad". Versteegh and Carter. PP. 35-47

"الفصل الذي كتبه ابن فرغون عن النحو العربي في كتابه جوامع العلوم"(٧٧). ويكتب هارتموت بويزن عن " غوليوم بوستال (١٥١٠ - ١٥٨١م) وكتابه عن مصطلحات النحو العربي"(٧٨). ويكتب مايكل كارتر عن "(قاضي، قاضٍ، قاض)) ما العنصر الغريب بينها"(٧٩). ويرى أن الشكل غير الممكن منها هو (قاض) وذلك اعتماداً على فحصه لكتاب سيبويه. ويرى أن وجود (قاض) في كتاب سيبويه كان نتيجة خطأ من النساخ والمحققين. ويكتب جانيوس دانيكي عن "النظرية الصوتية للمبرد"(٨٠). ويرى أنها لم تأت بشيء جديد يتجاوز نظرية سيبويه. ويكتب كنجا ديفيني عن "مناهج الفراء اللسانية في كتابه معاني القرآن"(٨١). ويقارن بين مناهج الفراء ومناهج سيبويه، فيرى أن الفراء ليس مهتماً بالتنظير أساساً بل إن تنظيره يأتي انطلاقاً من تفسيره لبعض الآيات. أما سيبويه فإن هدفه هو صوغ نظرية متماسكة للغة العربية ويأتي بالنصوص لتدعيم ذلك التنظير. ويكتب جوزيف ديشي عن "معالجة النحويين العرب للمصطلح "حرف"(٨٢). ويكتب إيفرهارد ديترز عن "جمع المادة اللغوية عند العرب قديماً وحديثاً"(٨٣). ويتحدث فيه عن التقنيات التي استعملها العرب القدماء في جمع المادة اللغوية. ويرى أن النحويين العرب أخذوا اللغة من ثلاثة مصادر: القرآن

---

(٧٧) Hans - Hinrich Biesterfeldt, "IBN Farighun's Chapter on Arabic Grammar in His Compendum of The Sciences", in Vertstegh and Carter, PP. 49 - 56.

(٧٨) Hartmut Bobzin, "Guilaume Postel (1510 - 1581) Und Die Terminologyie Der Arabischen National Grammatik", In Versteegh and Carter, PP. 57 - 71

(٧٩) Michael G. Carter, "Qadi Qadi, QAD : Which one is the Odd Man Out?" in Versteegh and Carter, PP. 3 - 90

(٨٠) Janusz Danecki, "The Phonetical Theory of Mubarrad", in Versteegh and Carter, PP. 91 - 99.

(٨١) Kinga Devenyi, "On Farra"s Linguistic Methods In His Work Maani Al Quran", In Versteegh and Carter, PP. 101 - 110

(٨٢) Joseph Dichy, "Grammatologie De L' ARAB: Les Sens Du Mot Harf Ou Le Labyrinthe D'une Evidence", In Versteegh and Carter, PP 111-128

(٨٣) Everhard Ditters, "Arabic Corpus Linguistics In Past and Present", In versteegh and Carter , PP. 129-141

الكريم، والشعر الجاهلي، وكلام البدو. وتختلف هذه المستويات بعضها عن بعض، وذلك ما أثر في وصف اللغة العربية، إذ نحت النظرية إلى معالجة هذه المصادر الثلاثة وكأنها متماثلة. ويكتب بو جمعة الأخضر عن الفرق الذي يراه بين النحو العربي الذي يعطي الأهمية للكلمة والمدارس اللسانية الحديثة التي تعطي الأولوية للجملة. ويرى أن التفكير اللساني العربي يجب أن نقرأه قراءة جديدة تقوم على الأخذ والعطاء بينه وبين المدارس اللسانية الحديثة(٨٤). ويكتب عبد العالي العمراني جمال عن الربط بين المسند والمسند إليه(٨٥). وتكتب روزالين جواين عن "الاحتجاج بالأقوى في الفقه والنحو والكلام(٨٦)". ويعني الاحتجاج بالأقوى أنه إذا صح أمر في شيء أقل فإنه يصح أيضاً في شيء أقوى منه. ومثل ذلك يقول القائد اليوناني زينوفون لجنوده " إنه ما دام أن جيشاً أقل من الجنود اليونان استطاع هزيمة الفرس وفتح مدنهم فإن الجنود اليونانيين لا بد أنهم يستطيعون مثل ذلك" وقد تتبعت الكاتبة استعمال هذه الحجة عند الشافعي في الفقه وعند سيبويه في النحو وعند المتكلمين مثل الجاحظ والنظام. وتنتهي من ذلك إلى أن هذه الحجة في النحو والفقه والكلام كانت نتيجة للبيئة العلمية العربية المحلية ولم تكن نتيجة لتأثير أجنبي. وقد بدأ استعمال هذه العلة في الفقه؛ ولما كان سيبويه في أول أمره مشتغلاً بالحديث الذي لم يكن متميزاً عن الفقه فقد اكتسب هذه الحجة واستعملها في كتابه. ويكتب جنفيف همبرت عن " تحقيقات كتاب سيبويه وعن المخطوطات التي كانت أساساً لهذه التحقيقات"(٨٧) ويبين فيها عدداً من الملاحظات على هذه التحقيقات. ويكتب بيير لارشير عن "عناصر

---

(٨٤) Boujema El - Akhdar, " Le Patrimoine Linguistique Arabe Ancien : Problems De Relecture," in Versteegh and Carter, PP. 143 - 149

(٨٥) Abdelali Elamrani - Jamal, "Verbe, Copule, Nom Derive (Fil, Kalima, Ism Mustagg) Dans Les Commontaires Arabes Du Peri Hermeneias D' Aristote (avec un texte inedit d'Ibn Rusd) , In Versteegh and Carter, PP. 151 - 164

(٨٦) Rosalind Gwynne, " The A Fortiori Argument in Fiqh, Nahw, and Kalam," In VerSteegh and Carter, PP. 165 - 177.

(٨٧) Genevieve Humbert "Remarques Sur les Editions Du Kitab De Sibawayhi Et Leur Base Manuscrite," in Versteegh and Carter, PP. 179 - 194

المقامية في النظرية العربية النحوية فيما بعد الفترة الكلاسيكية"(٨٨) ويناقش ما ورد في كتاب شرح الكافية للاستراباذي من عناصر ليست جزءاً من النحو بل هي تمثيل مجرد للمعنى وللظروف التي يقع فيها الكلام. ومن ذلك التفريق في الجملة الإنشائية بين الجملة الطلبية والجملة الإيقاعية. "فأنت في الطلبية لست على يقين من حصول مضمونها... وأما الإيقاعية نحو بعت وطلقت فإن المتكلم بها لا ينظر أيضاً إلى وقت يحصل فيه مضمونها بل مقصوده مجرد إيقاع مضمونها وهو مناف لقصد وقت الوقوع بل يعرف بالعقل لا من دلالة اللفظ أن وقت التلفظ بلفظ الإيقاع وقت وقوع مضمونه". ويشير إلى أن وجود مثل هذه العناصر في الوصف النحوي العربي يدل على معاصرتها لما يناقش اليوم حول الموضوع. وتكتب فيفيان لو عن " هل هناك تأثير هندي على دراسة العرب للأصوات أم أن التشابه بين الدراستين كان نتيجة تشابه عارض؟"(٨٩). وتبين فيه أن القول بأن العرب أسسوا وصفهم الصوتي للغتهم على استعارتهم هذا الوصف من الهنود أمر غير ممكن. وذلك أنه في الحالات المعروفة تاريخياً عن اقتباس نظام وصفي من لغة إلى لغة أخرى مثل اقتباس الرومان من اليونان، واليهود من العرب، واللغات الأوروبية الحديثة من الرومان واليابانيين والصينيين من الغرب فإن هذا الاقتباس تميز في هذه الحالات جميعاً بوجود عدد كبير من الأفكار المرتبطة بالوصف المقتبس، وعدد كبير من الكلمات المقترضة من الأصل، وترجمات لبعض تلك الكلمات. لكن هذا ليس هو الواقع في العربية. فلغة الوصف الصوتي ومصطلحاته خالية تماماً من هذه المظاهر. وكان مصدر الزعم بأن العرب استعاروا من الوصف الصوتي من الهنود – كما تبين – مساواة بعض الباحثين بين كلمة "مخرج" عند النحاة العرب وكلمة Sthana عند الهنود. وقد بينت أن هذا الزعم ليس صحيحاً بل هو وليد عدم فهم للمصطلحات الهندية. لما كان العرب قد أسسوا وصفهم الصوتي على أسس نطقية فإنه ليس

---

(٨٨) Pierre larcher. "Elements Pragmatiques Dans La Theorie Grammatical Arabe Post - classique", in Versteegh and Carter PP. 195 - 214.

(٨٩) Vivien Law. "Indian Influence on Early Arab Phonetics - or Coinsidence?" in Versteegh and Carter, PP. 215 - 227.

هناك حاجة للاستعارة من الآخرين. ويكتب أحمد المتوكل عن تحليل السكاكي لمفهوم "الغرض" وهو ما يبين أن هذه المناقشة ذات صلة بالنقاش الحديث في التحليلات الفلسفية واللسانية عن الصلة بين الفكر واللغة(٩٠). ويؤرخ أحمد مختار عمر للدراسات النحوية في مصر في العصور الأولى(٩١). ويكتب جوناثان أوين عن "بعض المفاهيم التي كانت وراء تطور النظرية العربية النحوية"(٩٢).

ويناقش في هذا البحث بعض التحليلات المتعاقبة لبعض القضايا النحوية ويشير إلى أن تغير التحليلات يدل على تطور في النظرية النحوية. ومثل ذلك التحليلات المختلفة عند سيبويه والمبرد وابن الزجاج والجرجاني للإضافة؛ وتحليلات سيبويه والأخفش والمبرد للمنصوبات. ويرى أن المدارس النحوية العربية لا تختلف بين بصريين وكوفيين وبغداديين... إلخ مكانياً بل تختلف زمانياً، ونظرياً بين المتعاصرين. ويكتب رفائيل تالمون عن "الفراء المتفلسف: تفسير قول غامض منسوب لثعلب"(٩٣). ويناقش فيه المقوله التي ترى أن النحو العربي أقيم على أسس يونانية ويؤيد هذه المقولة برد بعض المصطلحات التي استعملها الفراء إلى أصولها اليونانية التي كانت معروفة للعرب في تلك الفترة.

ويكتب كيس فريستيغ عن "مصطلح "الاتساع" والمفاهيم المتعلقة به في النحو العربي وهل تدل على حرية المتكلم؟"(٩٤). ويقصد به استعمال هذا

---

(٩٠) Ahmad Moutawakil. "LA Notion D' Actes De Language Dans La Pensee Linguistique Arab Ancienne". In Versteegh and Carter. PP. 229 - 238.

(٩١) Ahmad Mokhtar Omar. "Grammatical Studies In Muslim Egypt". Versteegh and Carter PP. 239 - 251.

(٩٢) Johnathan Owens. "Themes In The Development of Arabic Grammatical Theory" in Versteegh and Carter PP. 253 - 263.

(٩٣) Rafael Talmon. "The Philosophizing Farra", An Interpretation of An Obsecure Saying Attributed to the Grammarian . Tha' lab. In Versteegh and Carter. PP. 265 - 279.

(٩٤) Kees Versteegh "Freedom of the Speaker? The Term Ittisa ' And Related Notions In Arabic Grammar". in Versteegh and Carter. PP 281 - 293.

المصطلح في الوصف في النحو العربي. ويدل هذا المصطلح على حرية المتكلم في التصرف بالكلام مجازاً وتوسعاً في القواعد. ويكتب رونـــالد ولـــف عـــن "تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء"(٩٥). ويرى أن هذا ليس كتاباً واحـــداً إنما هو مزيج من كتب أخرى لابن مضاء. وينتهي الكتاب بفهرســـين أحدهمـــا للأسماء التي ذكرت في الكتاب والآخر في ٩ صفحات يحتوي على المصطلحات التي ذكرت. ويحتوي كل مقال على قائمة بالمراجع التي اعتمدها المؤلف وهي تعطي صورة واضحة للنشاط الواسع في هذا الميدان الحيوي.

ومن المبرزين في الإسهام بدراسة النحو العربي كذلك جوناثان أوين. فله عدد كبير من المقالات التي تناقش قضايا معينة في النظرية النحويـــة العربيـــة. وسوف أقتصر هنا على عرض كتابين حديثين له في هذا الموضوع. والكتـــاب الأول هو "مقدمة للنظرية العربية النحوية في القرون الوسطى". ويقع فـــي ٣٦١ صفحة(٩٦). ويتكون من مقدمة وثمانية فصول وثلاثة ملاحق وقائمـــة بـــالمراجع وثلاثة فهارس. وفي المدخل الذي صدر به الكتاب يشير إلى أن الفكـــرة التـــي محتواها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تفهم حق الفهم من خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أوائل السبعينات من القرن العشرين. كما يشير فـــي المقدمة إلى أن كلمة "القرون الوسطى" التي تظهر في عنوان الكتـــاب يجـــب ألاّ يفهم منها الفهم المتعود عليه في الدراسات الغربية التي يمكن فيها أن تشير هـــذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده. وذلك أن النظرية العربية النحوية في تلـــك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة في عدد من الأمور الأساسية، وهـــو ما يجعل مناقشتها أسهل بالنسبة للقارئ الغربي. ويشير كذلك إلـــى أنـــه يمكـــن البرهنة على أن أحد الأسباب التي أدت إلى عدم تقدير النظرية العربيـــة حيـــن

---

(٩٥) Ronald G. Wolfe. "Ibn Mada, Al - Qurtubi's Kitab Ar - radd' Ala N- NuhaT: An Historical Misnomer". In Versteegh and Carter, PP 295 - 304

(٩٦) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar: An Introduction to Medieval Arabic Grammatical Theory. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co. 1988).

اكتشفها الغربيون في القرن التاسع عشر عندما تكونت التقاليد الاستشراقية، هو أنه لم يكن في الحضارة الأوروبية في تلك الفترة مثيل لها. ولم توضع هذه النظرية في منظور أحسن إلاّ مع التقاليد البنيوية التي أتى بها دي سوسيروبلوم فيلد وتشومسكي(٩٧).

ويتعرض في المقدمة(٩٨) إلى المعالم البارزة في تاريخ النحو العربي بدءاً من سيبويه ويشير إلى مصادر هذا النحو التي تتكون من كتب النحو الوصفية مثل كتاب سيبويه والكتب المتخصصة في مواضيع معينة مثل كتاب المنصف لابن جني الذي يعالج الصرف وكتاب الزجاج " ما ينصرف وما لا ينصرف" الذي يعالج الممنوع من الصرف، وكتب أصول النحو مثل الإيضاح في علل النحو للزجاج والخصائص لابن جني، وكتب البلاغة مثل دلائل الإعجاز للجرجاني، وكتب اللغة والمعاجم، وكتب التفسير، وكتب أخرى ثانوية. ويبين هنا أنه سوف يقصر دراسته على الفترة الممتدة من المبرد إلى ابن عقيل وذلك بسبب تطور النظرية تطوراً محكماً من ناحية الأدوات الوصفية.

ويقول إنه على العكس من النظرية اللسانية المعاصرة التي تكون فيها مبادئ الوصف والتفسير معلنة واضحة فإن هذه المبادئ في النحو العربي لم تكن تذكر علناً في كل حال. لكن هذا لا يمنع الباحث المدقق من العثور عليها لأنها وإن لم تكن معلنة فإنها منفذة فعلاً، وهي ليست أقل من حيث الدقة(٩٩).

وفي الفصل الثاني الذي عنونه بـ " البنية، والوظيفة، والفصيلة، والتعلق"(١٠٠) يشير إلى الإطار الذي يحدد النحو العربي، فقد وعى النحويون أن الكلام له بنى محددة ولهذه البنى وظائف. وأظهر ما يكون ذلك في الدراسات

---

(٩٧) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. P.L

(٩٨) Jonathan Owen. The Foundations of Grammar. P.I - 30

(٩٩) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. P. 23

(١٠٠) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. "Structure, Function, Class, and Dependence", PP. 31 - 88

الصرفية إذ نظر إلى كلمات اللغة كلها كأمثلة لموازين معينة.

وكذلك بحثهم عن الأصل لبعض الكلمات التي يخالف ظاهرها باطنها مثل الأفعال المعتلة ونظرتهم إليها على أنها مثل الكلمات غير المعتلة في خضوعها للموازين نفسها، كما أن نظرتهم إلى أن الجملة هي الوحدة الأساسية للتحليل النحوي قادتهم إلى دراسة المواضع التي تقع فيها الكلمات التي تنتمي إلى فصائل معينة.

وقد قادهم البحث إلى فكرة "العامل" التي تظهر أنهم لم يكونوا ينظرون إلى الكلمات في الجملة على أنها نتيجة لتتابع عشوائي. فهذه الكلمات يحكم بعضها بعضاً. فوجود كلمات معينة يستدعي وجود كلمات أخرى. ووجود كلمات معينة يوجب إعراباً معيناً في كلمات تتبعها. وهذا مما يوضح نظرتهم إلى أن اللغة نتيجة لتركيب محكم. وعندما يقارن أوين هذه الأفكار بإحدى المدارس اللسانية لتحليل الجمل وهي مدرسة "نحو التعلق" dependency grammar يجد أن النظريتين تقولان الشيء نفسه. ويستمر في عقد مقارنات أخرى كلها تشير إلى هذه المتشابهات.

وفي الفصل الثالث الذي خصصه للصرف(١٠١) يناقش النظريات الصرفية العربية. وقد أشار إلى الاهتمام الواسع الذي أولته الدراسات العربية للصرف والأصوات. وأول ما يلاحظه أن النحو العربي فرق بين الصيغة ومعناها. كما يشير إلى تفريقهم بين الصوت والحرف. ويشير إلى انتباه النحويين إلى أن الكلمات العربية تعود إلى جذور ثلاثة في الغالب واختراعهم للميزان الصرفي الذي يعين الجذور الأصول في الكلمة والحروف المزيدة عليها التي تستعمل في تعيين معان فرعية. ويبين أن بعض الدراسات الحديثة أشارت إلى مماثلة هذه النظرية لنظرية اللساني البريطاني فيرث. ويتوسع في عرض الدراسات الصرفية والمبادئ التي تحكمها ويعرض كثيراً من أوجه التحليل الذي جاءت به.

---

(١٠١) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar "Morphology." PP. 89-124.

وفي الفصل الرابع "صيغ الكلمات" (١٠٢) يتكلم عن تصنيف العلماء العرب الكلمات إلى أسماء وأفعال وحروف والمبادئ التي قادت إلى هذا التصنيف. كما عرض لكثير من المسائل المتعلقة بهذا التصنيف ومحاولة النحويين حل المشكلات التي تعترض عليه والخلافات بين المدارس النحوية في ذلك. ويعقب على بعض هذه المشاكل بقوله: " ليس المهم هنا أن نعين من انتصر على الآخر، بل المهم هو أن نبين أن النحويين العرب وعوا وجود هذه المشكلات والحالات غير الواضحة، وأنهم استعملوا مبادئ لسانية عامة لحلها" (١٠٣).

وفي الفصل الخامس " العبارة الاسمية" (١٠٤) يتكلم عن تحليل النحويين العرب لتراكيب يدخل فيها الاسم مثل الصفة والموصوف والحال والمضاف والتوابع الأخرى. وعلى الرغم من عدم تطوير النحو العربي لمقولة تماثل "المركب الاسمى" في الدرس اللساني الحديث إلا أنه يمكن القول إن النحويين العرب كانوا واعين لها بصورة ضمنية.

وفي الفصل السادس "التعدية"(١٠٥) يبين تحليل النحويين العرب للمفاعيل والوسائل التي يعدى بها الفعل إليها. ويرى أنه على الرغم من عدم وجود طريقة كاملة لمعالجة هذه القضية في النحو العربي إلاّ أن النحويين العرب قدموا مادة ضخمة تتعلق بهذه القضية وتناولوها بشكل مضطرد.

وفي الفصل السابع "الحذف" (١٠٦) يعرض تقدير العلماء العرب تراكيب محذوفة في تحليلهم لبعض الجمل. وقد عرض للأدلة التي اتخذها العرب للتدليل على وجود المحذوفات على مستوى أعلى من التجريد. ومن هذه الوسائل:

---

(١٠٢) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. "Word Class". PP. 125 - 147

(١٠٣) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar P. 147.

(١٠٤) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. " The Noun Phrase". PP. 148-160

(١٠٥) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. " Transitivity, " PP. 167 - 185

(١٠٦) Jonathan Owens. The Foundation of Grammar. " Ellipsis". PP. 186 - 198

السياق، والتراكيب، والاتساع، والمجاز. كما عرض لبعض المبادئ التي تحكم تقدير هذه التراكيب المحذوفة بحيث لا يكون تقديرها عشوائياً، كما تكلم عن بعض الخلافات حولها. ويقارن أوين بين سمات الحذف في النحو العربي والحذف في النحو التحويلي ويرى أن النحوين يتفقان في أن مسببات الحذف تركيبية أساساً. وذلك لوجود فكرة العامل في النحو العربي. ففي الجملة التالية:

زيداً ضربته.

يقدر أن (زيداً) منصوب بفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور. كما أن النحو التحويلي يرى أن جملة مثل:

Shave yourself

لابد أن يكون فيها فاعل الفعل المحذوف You وذلك لتفسير وجود الضمير على شكل Yourself بدلاً من أي شكل آخر. وعلى الرغم من هذا التشابه إلا أنه يبين أن هناك أربعة فروق بين النحو العربي والنحو التحويلي في مسألة الحذف. وأول هذه الفروق أن الحذف في النحو التحويلي هو نتيجة لكون الحذف لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل في النص. أما في النحو العربي فإن الحذف له سببان: السبب الأول تركيبي كما في الجملة المذكورة آنفاً، والسبب الثاني "مقامي" Pragmatic وذلك أن المحذوف يفهم من السياق. والفارق الثاني بين النحوين هو فرق في الاهتمام ففي الوقت الذي ينظر فيه النحو العربي إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف فإن النحو التحويلي يبدأ من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهري لها. والفرق الثالث هو في النحو التحويلي قواعد معينة للحذف أما في النحو العربي فإنه لم تحدد تلك القواعد بل لقد استندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفرق الرابع هو أن النحو العربي كان ينظر إلى المعنى عندما يقترح الحذف وهذا ما لا نجده في النحو التحويلي.

ويعرض في الفصل الثامن لـــ " الأصل في النظرية العربية"(١٠٧) ويعنـــي بالأصل أنه في حال وجود أشكال مختلفة للمورفيم الواحد فإن واحداً منها يعد هو الأصل والأشكال الباقية فروع له. ويتبين عمل النحويين في هذه المســألة مــن اقتراحهم المقولات التالية:

أصل	فرع
أخف	أثقل
أقوى	أضعف
أول	بعد
الاسم	الفعل
المفرد	الجمع
المذكر	المؤنث

إلى آخر ذلك.

ويقارن في هذا الفصل أيضاً بين النحو العربي والنحو التحويلي من حيث أوجه التشابه والاختلاف في هذه المسألة وهو يرى عدم التشابه بين النحوين لأن النحو التحويلي يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى وذلك ما لم يحصل في النحو العربي. وينتهي إلى أنه من المضلل أن نساوي بين النحوين على الرغـــم مـــن وجود بعض التشابه.

وفي الفصل التاسع "التركيب، والدلالة، والمقامية" (١٠٨) يدرس مـــا عملـــه النحويون والبلاغيون العرب من ربط للمعنى بالشكل والعلاقـــة بينهمـــا. ومـــن هؤلاء الذين اهتموا بهذه المسألة سيبويه والفارسي من النحويين والجرجاني مـــن

(١٠٧) Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. "Markedness In Arabic Theory". PP. 199 - 226.

(١٠٨) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. " Syntax, Semantics, and Pragmatic". PP. 227 - 264.

البلاغيين. ويعود مرة أخرى في هذا الفصل للمقارنة بين النحو التحويلي والنحو العربي في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا تشابه بين النحوين وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

ويختتم الكتاب بسبع وأربعين صفحة تحتوي على ٣٢١ تعليقاً ضمنها مناقشات على جانب كبير من الأهمية. وتأتي بعد هذه القائمة قائمة تحوي أسماء النحويين والأماكن التي عاشوا فيها وتواريخ وفياتهم. ويتبع هذه القائمة تلخيص لقواعد النحو العربي ومبادئه. ويتبعها قائمة بالأقوال النحوية التي استشهد بها وبعدها قائمة بالمراجع. وبعدها ملحق بأسماء العلماء القدماء التي وردت في الكتاب. وتبعت بقائمة بأسماء العلماء المعاصرين. وبعدها ملحق بالمواضيع التي نوقشت. واختتمت الملاحق بملحق للمصطلحات النحوية العربية التي ذكرت.

ومن هذا العرض السريع للكتاب نرى مدى عمق المعالجة وسعة التناول. ومثل هذه الدراسات التي تنحو نحو التأطير المنهجي هي التي تنقص الدراسات العربية الحديثة إذ يتبين فيها المعنى الكلي والصورة الشاملة للنحو ومبادئه العاملة فيه. وهو يرتفع عن التفصيلات الدقيقة التي تمنع القارئ من رؤية المعالم البارزة المهمة لهذا الفكر العميق.

والكتاب الآخر لجوناثان أوين الذي سأعرضه هنا هو "النظرية العربية النحوية المبكرة: التنوع والتوحد"[١٠٩] ويقع الكتاب في ٢٩٥ صفحة ويتكون من مقدمة وعشرة فصول متبوعة بملحقين وقائمة للمراجع وثلاثة ملاحق.

ويكاد يكون هذا الكتاب مكملاً للكتاب السابق وإن لم يكن ذلك الكتاب مهتماً بتاريخ الدراسات النحوية العربية غرضاً رئيسياً. فيهتم هذا الكتاب بمرحلة التأسيس التي يمثلها سيبويه والفراء خاصة بالإضافة إلى بعض النحويين

---

(١٠٩) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: Heterogeneity and standardization (Amsterdam/ Philadelphia : John Benjamins Publishing Co. 1990)

الآخرين الذين لم يكن لهم الدور نفسه في التأسيس مثـــل الجرمـــي والمـــازني والسجستاني وقطرب. وعلى خلاف كثير من الكتب التي تؤرخ للنحو فلم يهتـــم أوين هنا بتفصيلات حياة النحويين بل كان جل الاهتمام منصبـــاً علـــى آرائهـــم ودراساتهم النحوية وإذا ذكر بعض تلك التفصيلات فإنما لعلاقتها بتلك الآراء.

وقد درس في المقدمة(١١٠) الآراء التي تصنف النحويـيـــن القدمـــاء إلـــى مدرستي البصرة والكوفة وكذلك بغداد، وقد اقترح أن هذا التصنيـــف لـــم يكـــن موجوداً في الفترة المبكرة وأكثر الاحتمال أنه يعود إلى مرحلة لاحقـــة عندمـــا استقر النحو. ودرس كذلك البدايات الأولى للنحو وصلته بالقراءات ثـــم عـــرض تعريفاً بأبرز النحويين وأعمالهم التي عرفت عنهم مثل الخليل والكسائي وسيبويه والفراء والأخفش والمبرد وثعلب والزجاج وابن السراج.

وفي الفصل الثاني(١١١) استكمل الصورة العامة للنحو فذكـــر ملاحظتيـــن مهمتين هما: أن هناك كثيراً من القضايا المهمة التي تشـــترك فيهـــا المـــدارس النحوية المبكرة، والملاحظة الثانية أن النحو لم يتوقف تطوره عند ابن الســـراج. وقد مثل لذلك ببعض القضايا مثل فكرة العامل ودراسة الإضافة.

وفي الفصل الثالث " الفراء لسانياً"(١١٢) يتحدث عن منهج الفراء كما يتمثل في كتابه "معاني القرآن". ويرى أن اهتمام الفراء كان بالتطبيق وذلـــك علـــى عكس سيبويه الذي كان التنظير همه الأول. لكن دراسة الفراء في كتابه معـــاني القرآن تعطي صورة مجملة عن آرائه النظرية. ومـــن تلـــك الآراء آراؤه عـــن "الأصل" و "الموضع" و "القواعد الكلية للغة" و "التتـــابع" و "القيـــاس". وكذلـــك دراسته للمذكر والمؤنث. ويقارن بين عمل الفراء في "معاني القـــرآن" وعمـــل

---

(١١٠) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. " Introduction", PP 1 -12

(١١١) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. "Two General Points", PP. 13- 17.

(١١٢) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory " Farra ' As Linguist", PP. 19-33

الزجاج الذي كتب كتاباً بالعنوان نفسه. وبدراسته لبعض آرائهما عن بعض الآيات، يرى أنه على الرغم من اختلاف المنهج والهدف وطريقة العرض فإن الفراء والزجاج يتبعان المبادئ نفسها وهذا ما يشير إلى أن منهج الفراء عموماً ليس مختلفاً عن منهج النحويين المعاصرين له. كما يشير ذلك إلى أن الخلاف بين البصريين والكوفيين لا يمكن أن يكون منهما مدرستين مختلفتين.

وفي الفصل الرابع "منهج سيبويه"[١١٣] يعرض المؤلف منهج سيبويه ويقارنه بمنهج المدرسة البنيوية الأمريكية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. ولم يكن هذا المنهج معلناً في سيبويه لكن كتابه كان نتيجة لمنهج محدد يمكن اكتشافه. ومن وجوه هذا المنهج استعمال سيبويه لفكرة "التبادل" وهي التي استعملها لتحديد الوظيفة النحوية وتوزيع الكلمات واكتشاف أصح الأشكال للكلمة وتحديد المعنى. ثم ذهب يعطي أمثلة لذلك. كما استعمل سيبويه بعض الطرق المنهجية الأخرى مثل استعمال الدليل السلبي والتصنيف والتبادل القياسي واستعمال الأمثلة الممثلة لغيرها وكذلك الكلمات واستعمال الأصل وغير ذلك. ويقارن بين سيبويه وابن السراج من حيث المنهج، حيث يرى أن النحو بلغ عند ابن السراج مرحلة من النضج المنهجي كبيرة.

وفي الفصل الخامس "التوابع"[١١٤] يدرس هذه التركيبات ويطبق عليها مناهج النحويين الأوائل مثل سيبويه وابن السراج والفراء والأخفش والمبرد وثعلب وآخرين مما يدل على تطور في تحليل هذه التوابع وإن كان اللاحقون لم يزيدوا من حيث المادة اللغوية شيئاً على ما ذكره سيبويه.

وفي الفصل السادس "بين سيبويه والفراء من جهة والنحويين

---

(١١٣) Jonathan Owens Early Arabic Grammatical Theory: "Sibawayh's methodology". PP. 36 -54

(١١٤) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Noun Complementation". PP. 55-102

المتأخرين"(١١٥) يقارن بين النحويين السابقين واللاحقين وبين الخطوط العامة التي تساعد على فهم تطور التنظير النحوي العربي.

وفي الفصل السابع "الفراء حلقة وصل"(١١٦) يدرس الفراء ممثلاً لحلقة تقع بين سيبويه وبين النحويين المتأخرين ويعده ممثلاً لتطور الدراسة النحوية مقارناً إياه ببعض النحويين الآخرين.

وفي الفصل الثامن "الفراء وفترة التنوع"(١١٧) يبين أن الفراء كان ذا فكر نحوي متميز ومن أهم ما يتميز به تفكيره استعماله مبادئ دلالية في مقابل المبادئ الشكلية التي يستعملها سيبويه.

وفي الفصل التاسع " نحويون غير بارزين"(١١٨) يدرس عدداً من النحويين غير البارزين مثل لغدة وابن كيسان وخلف الأحمر وثعلب وابن الأنباري ويبين إسهاماتهم ومدى موافقتهم للنحويين الكبار واختلافهم عنهم.

وفي الفصل العاشر "تطور مدرستي البصرة والكوفة"(١١٩) يتحدث عن المبادئ التي اختلفت فيها المدرستان. والتطورات التي مرتا بها.

وفي الفصل الحادي عشر "التطور البنيوي للنظرية التركيبية العربية

---

(١١٥) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Sibawayh and Farra Vs. Later Grammarians". PP 103 - 126

(١١٦) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Farra As Transitional Figure", PP 127 - 156.

(١١٧) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: " Farra And The Period of Heterogeneity" PP. 157 - 177

(١١٨) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Minor Writers". PP. 179 - 202.

(١١٩) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "The Development of The Basran And Kufan Schools", PP.203 - 219.

المبكرة" (١٢٠) يعرض المبادئ التي كانت تؤطر النحو العربي منذ أطواره المبكرة. ويمكن أن يعد هذا الفصل خلاصة البحث كله إذ يعرض فيه المصطلحات التي استعملها النحويون المختلفون ويبين الأطوار التاريخية التي سلكتها هذه المصطلحات. وقد علل تسمية الفترة التي تسبق نهاية القرن الثالث الهجري بأنها فترة التنوع بثلاثة أسباب هي : (١) أن هذه الفترة شهدت مبادئ مستقلة واضحة مختلفة عن الفترات اللاحقة، (٢) أن النحويين القدماء كانوا معروفين بكثرة الاختلاف فيما بينهم. (٣) أن التفكير النحوي كان موجهاً إما لاتباع سيبويه أو الفراء.

وفي الملحق الأول يبين المواضع المتعلقة بالمسائل الصرفية الصوتية في كتابي الفراء والزجاج، ويبين المعاني المختلفة للكلمة "حرف" في كتب النحو وكذلك معاني المصطلحين المسند والمسند إليه عند الفراء، والمصطلح "الاشتغال". ويبين مواضع التوابع الاسمية عند الأخفش، وبعض المصطلحات الأخرى التي استعملها الفراء، والمواضع التي ظهر فيها مصطلح "الإيقاع" في الجزء الأول من معاني القرآن للفراء، والمواضع التي أشار فيها ثعلب في مجالسه إلى البصريين والكوفيين، والمواضع التي أشار فيها الزجاج في الجزء الأول من كتابه معاني القرآن للبصريين والكوفيين وغيرهم. وهناك ملحق آخر يحوي الأقوال التي استشهد بها من كتب النحويين. وملحق أخير يحوي أسماء النحويين وأماكن حياتهم وتواريخ وفياتهم. وهناك قائمة بأسماء المراجع والمصادر وفهرس للصفحات التي ذُكر فيها النحويون في الكتاب، وفهرس للمصطلحات النحوية العربية، وفهرس للمواضيع التي نوقشت في الكتاب.

ويتبين من هذا العرض الموجز للكتاب أنه يضع بين أيدينا تاريخاً للنحو العربي يختلف عن ما تعودنا عليه من كتب تاريخ النحو التي لا تعطي اهتماماً كافياً لدراسة تطور النحو نفسه وتاريخه، بل تهتم بدلاً من ذلك بحياة النحويين

---

(١٢٠) Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "The Structural Development of Early Arabic Syntactic Theory" 221 - 243

وسرد القصص التي تروى عنهم. وتاريخ النحو في هذا الكتاب يعطي معنى للاختلافات التي نجدها بين النحويين ويرصد التطورات التي مر بها هذا النحو حتى استقر.

ولم تكن دراسة النحو العربي هي التي لفتت الانتباه فقط بل إن العروض كان موضوعاً للدراسة. ومن بين من درسوا العروض العربي اللساني الشهير موريس هاله(١٢١) وكذلك ألان برنس(١٢٢). لكن أكثر الدراسات الحديثة تفصيلاً هي دراسة جون مالنج التي ناقش فيها كثيراً من النقد الذي وجه إلى العروض العربي في الغرب، وبين أن نظرية الخليل محكمة جداً إذا نظر إليها على أنها تجريد يمكن أن يشتق منه البحور الستة عشر، كما يمكن أن تصاغ العلل والزحافات صياغة مشابهة لصياغة القواعد الصوتية والصرفية التي جاءت بها المدرسة التوليدية التحويلية(١٢٣).

وليس بالإمكان - كما قدمت - عرض كل ما كتب في الفترة الأخيرة عن النحو العربي لكن المطلع على الكتابين اللذين عرضتهما سيفاجأ بعدد البحوث التي كتبت وسيفاجأ بتنوعها وعمقها حتى ليكاد يقول المرء إنه لم يترك جانب واحد في هذا النحو لم يدرس.

---

(١٢١) Morris Halle "on The Metrics of pre - Islamic Arabic Poetry". Quarterly Progress Report of the Research Laboratoy of Electronics. 83 (Cambridge. . MA. : MIT Press. 1966) 83 . PP.113-116

(١٢٢) Alan Prince. " Metrical Forme. " In Paul Kiparsky and Gilbert Youmans (eds.) Phonet ics And Phonology: Rhythm And Meters. I. (New York: Academic Press. Inc. 1989) PP. 45 - 80

(١٢٣) Joan Maling. The Theory Of Classical Arabic Meter. Ph. D.Dissertation. MIT. Cam Bridge. MA. 1973.

وقد نشرت كاملة في مجلة الأبحاث التي تصدر عن الجامعة الأمريكية، العدد ٢٦ (١٩٧٣ - ١٩٨٨) ص ص ٢٩ - ١٠٦.

الموقف من اللغة العربية بصفتها لغة

سبق أن قدمت أن الدراسات الغربية عن اللغة العربية كانت قد اكتسبت سمعة سيئة عند العرب المحدثين نتيجة لكتابات بعض المفكرين الغربيين والمستشرقين، ذلك أن بعض المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر كانوا عنصريين في توجهاتهم الفكرية مما نتج عنه الاعتزاز بكل ما هو أوروبي والغض من كل ما ليس أوروبياً. وقد عوملت اللغات على أيدي هؤلاء معاملة تتسم بالزعم بأن اللغات غير الأوروبية قديمها وحديثها متخلف ولا يمكن أن تقارن باللغات الأوروبية في الجمال والإحكام والمنطقية. ومن الكتب التي تلخص تلك التوجهات وترصد تلك المقولات وتبين مدى إغراقها في العنصرية كتاب "لغات الجنة" الذي سبقت الإشارة إليه. وفيه عرض لآراء المفكرين الغربيين الذين عُرفت عنهم تلك المواقف غير العلمية من أمثال المستشرق الفرنسي رينان وغيره. ويتتبع تاريخ تلك التوجهات في أوروبة منذُ القديم حتى بزوغ فجر الدراسات اللسانية العلمية على يدي دي سوسير. وبذلك اندثرت تلك المقولات بحيث لا يعتقد أحد الآن بأفضلية لغة على لغة(١٢٤). كما عرض إدوارد سعيد لتلك المقولات والقائلين بها مثل رينان وسلفستر دي ساسي وغيرهم وبين مدى الشطط الذي ارتكبه هؤلاء(١٢٥).

ومن الكتب التي صدرت حديثاً وتتصدى للمقولات الأوروبية القديمة عن اللغة العربية كتاب ديفد جستس "دلالات الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية" (١٢٦). ويقع الكتاب في ٤٣٢ صفحة ويتكون من مقدمة واثني عشر فصلاً في أربعة أبواب ويختتم بقائمة للمراجع وعدد من الفهارس. وفي المقدمة يقول إن اللغة العربية عانت من الوصف بالغرابة والرمي بالصفات الجاهزة بالدرجة التي عانت منها اللغة الصينية وزاد الأمر سوءاً بفعل العوامل السياسية.

(١٢٤) حمزة بن قبلان المزيني " التحيز اللغوي... ".

(١٢٥) Edward W. Said. Orientalism. (New York: Pantheon Books . 1978).

(١٢٦) David Justice. The Semantics of Form In Arabic. In The Mirror of European Languages (Amesterdam Philadelphia : John Benjamins Publishing CO. 1987.

ومن التوجهات التي تسهم في زيادة الأمر سوءاً ما نقله عن أحد الكتاب في مراجعة لكتاب جوناثان رابان " الجزيرة العربية: رحلة في خلال المنعرجات"، ونشرته جريدة النيويورك تايمز: إن طبيعة لغة الجزيرة العربية، كما يقول المؤلف، منعرجات من الغموض حيث من الصعب أن تجد أي معنى حرفي (لأي كلمة)، وإنما كل ما هنالك إشارات رمزية. تلك هي اللغة التي تعبر فيها كلمة واحدة باختلاف ضئيل عن "الجماع" و "الاشتراكية" فهل من الغريب إذن، كما يتساءل المؤلف – أن يكون من الصعب فهم العرب". ويبين أن غرضه من الكتاب هو أن يكون مرآة متعاطفة مع اللغة العربية. فهو سيحاول أن يتفحص الاستراتيجيات والبنى التي تبدو مميزة للعربية وأن يزيل ما علق بها من غموض بتوضيح أن هذه المميزات تشبه ما يوجد في اللغات الأوروبية المعروفة.

وفي الفصل التمهيدي "تعريف اللغة المدروسة"(١٢٧) يتكلم عن تاريخ اللغة العربية ويشير إلى أنها ليست شيئاً واحداً بل هي مستويات مختلفة تمتد من الفصحى القديمة إلى اللهجات المعاصرة. وهي بذلك تشبه اللغات الكبرى.

وفي الفصل الأول "صعوبة العربية"(١٢٨) يشير إلى وصف اللغة العربية بأنها من أصعب اللغات إذ تقارن بالصينية واليابانية والكورية وغير ذلك من اللغات. ويقول إنه وجد العربية أصعب عند تعلمه لها من اللغات التي تعلمها من فصيلة اللغات الهندية الأوروبية، لكن هذه الصعوبة لا تعود إلى اللغة العربية بوصفها نظاماً لغوياً. فالعربية – في رأيه – لغة مطردة من جهة البنية وهناك عوامل كثيرة في هذا الاطراد تجعل تعلمها أسهل. ويشير في الوقت نفسه إلى بعض أوجه الصعوبة فيها مثل تعدد أشكال جمع الأسماء، لكنها في ذلك لا تختلف عن الألمانية أو اللاتينية. أما أسباب الصعوبة فهي ليست لغوية بحتة بل هي تاريخية وأسلوبية واجتماعية. ويفصل في الصعوبات التي تثار دائماً ويصف

---

(١٢٧) David Justice. The Semantics of form In Arabic. " Defintion of the Language of Study". PP. 11 - 15.

(١٢٨) David Justice. The Semantics of form In Arabic. " The Difficulty of Arabic". PP 17 - 31.

بعض الحلول لها.

وفي الفصل الثاني "الخطوط العامة للعربية"[129] يعرض إلى بعض العيوب التي تنسب إلى العربية مثل الترادف والمشترك اللفظي والفظاظة والخشونة. ويورد قولاً يكثر إيراده وتوصف به العربية فحواه " إن الكلمة في العربية تعني معناها، وضد ذلك المعنى، وشيئاً فاضحاً وشيئاً عن الجمل". وهو لا ينكر وجود الترادف والمشترك اللفظي وغير ذلك لكنه يحصر هذه الصفات في اللغة العربية بصورتها التي توجد في القواميس، أما اللغة كما تستعمل فليس فيها شيء كثير من ذلك. ويقارن هذه الخصائص بمثيلاتها في اللغات الأوروبية. ويعرض لغير ذلك من هذه المزاعم التي تؤخذ على العربية مثل: أن المعنى العام للكلمات المشتقة من جذر واحد واحدٌ فكأن هذه الكلمات المختلفة تقول الشيء نفسه، والسطحية والعنف والإطناب والازدواجية اللغوية والغموض والنقص التركيبي واللعب بالكلمات ووصفها بالتأخر واتصافها بالأصوات الحلقية القبيحة. وعندما يناقش هذه الصفات يوضح أن ما يصفه بعض الناس بهذه الصفات هي أمور موجودة في كثير من اللغات ومن بينها اللغات الأوروبية.

وفي الفصل الثالث "الربط بين الشكل والاستعمال"[130] يعرض للزعم بأن اللغة العربية مرآة للعقلية العربية. وهذا الفصل من أطرف الفصول وأجملها. ويبين فيه أن ما تعبر عنه العربية تعبر عنه اللغات الأخرى بشكل مشابه وبذلك ينتفي الزعم القائل إن شكل الكلمة يحدد معناها أو أن هذه اللغة تصور قصور العقلية العربية.

---

(١٢٩) David Justice. The Semantics of form In Arabic. "Thumbnail Sketches of Arabic", PP. 33 - 52.

(١٣٠) David Justice. The Semantics of form in Arabic. "The Form - use Connection", PP. 53 - 96.

وفي الفصل الرابع "نحو التثنية وتثنية النحو"(١٣١) يعرض ظاهرة التثنية في العربية واتخاذ بعض الناس هذه الظاهرة دلالة على وجود قواعد لا معنى لهـــا. ويشير فيه إلى أن اللغات الأوروبية كانت فيها تاريخياً هذه الظاهرة كمـــا أنهـــا توجد في بعض اللغات الأخرى المعاصرة. ويبين أن العربية قد تستعمل التثنيـــة إما لأغراض عميقة للتحديد أو وسيلة للجمال الأسلوبي أو لبعـــض الأغـــراض الأخرى. أما مفهوم التثنية فهو من المفاهيم التي بنيت اللغة عليها فـــي مختلـــف وجوهها.

وفي الفصل الخامس "اعتباطية الإشارة"(١٣٢) يدرس عدم الارتبـــاط فـــي العربية بين شكل الكلمة ومعناها وذلك على الرغم من الحدود الصارمـــة علـــى شكل الكلمات فيها.

وفي الفصل السادس "التراكم"(١٣٣) يدرس اتصاف اللغـــة العربيـــة بســـعة قاموسها. لكن هذه السعة تعود إلى أن القواميس العربية قد حوت كـــل الكلمـــات التي استعملت في خلال تاريخها من غير تمييز للمستعمل منها في فترة معينـــة من المستعمل في غير تلك الفترة. ويناقش ما ينسب إلى العربية من عدم قدرتها على الرغم من هذه السعة أن تعبر عن بعض الأمور. ويبرهن علـــى أن هـــذه الظاهرة ليست مقصورة على العربية.

وفي الفصل السابع "الأضداد" (١٣٤) يناقش ما ينسب إلى العربية من كـــون الكلمة تعني أحياناً الشيء وضده وذلك مثل "خائف" التي تعني الفاعل والمفعـــول، و "باع" بمعنى "باع" و "اشترى" إلى غير ذلك ويبين أن هذه الظاهرة موجودة في

---

(١٣١) David Justice. The Semantics of form In Arabic, "The Grammar of Duality And the Duality of Grammar". PP 97 - 152.

(١٣٢) David Justice. The Semantics of form In Arabic. "L'Arbitraric Du Signe". 153 - 174.

(١٣٣) David Justice. the Semantics of form in Arabic. "Accumulation". PP 175 - 193

(١٣٤) David Justice. The Semantics of form In Arabic. "Enantiosemantics". PP. 175 - 215

اللغات الأخرى. ومن ذلك في الإنجليزية rent التي تدل على "أجّر" و "استأجر". ويعرض لهذه الظاهرة في التركيب أيضاً مثل دلالة "الواو" على العطف وعلى التخيير. وكما يؤكد، فإن مثل هذه الظاهرة موجودة وإن كان ذلك بنسب متفاوتة في اللغات كلها. فيجب ألا تؤخذ دلالة على شيء له علاقة "بعقل" المتكلمين لهذه اللغات. ويجب أن تفسر هذه الظاهرة تفسيراً لغوياً بوصفها نتيجة لتطورات لغوية أو للتوسع المجازي أو غير ذلك.

وفي الفصل الثامن " أسماء النوع" (١٣٥) يتحدث عن استعمالات هذا التركيب الاسمي ويبين أسباب وجودها وأنها لا توحي بأي مظهر من مظاهر النقص بل إن لها أسباباً لغوية مثل: أن إمكان وجود صيغة خاصة مرده لطواعية تركيب الجذور في العربية واتساعها، ولأن العربية لا تستعمل التركيب المزجي أو الإسنادي كثيراً فإن في هذه الصيغة تعويضاً عن ذلك ولعدم اختلاطها بغيرها.

وفي الفصل التاسع "شكل التركيب" (١٣٦) يناقش التراكيب النحوية مستعملة استعمالاً طبيعياً. ويبين أن العربية مثلها مثل اللغات الأخرى في استعمال تلك التراكيب.

وفي الفصل العاشر "الإطناب"(١٣٧) يناقش ما يوصف بأنه إطناب لا حاجة له في العربية مثل "ليل أليل" ويبين أن أكثر هذا الإطناب إنما هو لأغراض أسلوبية كما هو موجود في الآداب الأخرى.

---

(١٣٥) David Justice. The Semantics of form In Arabic, " Nouns of Manner", PP. 217 - 234.

(١٣٦) David Justice. The Semantics of form In Arabic. " The shape of syntax", PP.235 - 276.

(١٣٧) David Justice. The Semantics of form In Arabic. " Pleonasm," PP 277 - 287.

وفي الفصل الحادي عشر "المخصصات"(١٣٨) يناقش التوابع الاسمية مثل التمييز والحال ويبين وظيفتها في اللغة العربية ووجود ما يشبهها في اللغات الأخرى.

وفي الفصل الثاني عشر "التعدية والوصف" (١٣٩) يدرس الطريقة التي تعبر بها العربية عن التعدية وذلك بصيغ خاصة للأفعال ويرى أن اللغات الأخرى تعبر عن المعنى بأساليب خاصة بها.

ويختم كل فصل من هذه الفصول بعدد من الهوامش.

إن ما يميز هذا الكتاب هو الأسلوب الذي تغلب عليه السخرية والمفارقة حين يورد مأخذاً على العربية فيكشف بهذا الأسلوب مدى جهل القائلين بهذا المأخذ أو تحاملهم على الرغم من أن ما يأخذونه على اللغة العربية موجود في اللغات التي يعرفون. ويبين أن مصدر هذه المآخذ ليس إلا المواقف الجاهزة غير العلمية من اللغات التي لا يعرفها هؤلاء أو النية المبيتة التي مصدرها العداء السياسي أو الحضاري لأهل هذه اللغة.

إن كتاب ديفد جستس يحتل مكاناً مميزاً بين الكتب التي تدعو إلى الموضوعية والدراسة العلمية للغة. وهو جدير بأن يقرأه المتخصصون من العرب وغيرهم وذلك لعمق المعالجة للمسائل التي تعرض لها وللمقارنة بين اللغات.

وبالإضافة إلى هذا الكتاب كثيراً ما نجد إشارات متعددة في كتابات الدارسين لبعض المواقف السلبية التي كانت سائدة في بعض الدراسات الغربية عن اللغة العربية. إذ يحاول هؤلاء الدارسون دفع التهم التي توجه إلى هذه اللغة.

---

(١٣٨) David Justice. The Semantics of form In Arabic. " Specivication". PP. 289 - 361.

(١٣٩) David Justice. The Semantics of form Arabic. " Causatives and Ascriptives", PP. 363 - 409.

ومن ذلك ما يقوله مايكل بريم في مقدمة رسالته للدكتوراة: "... إن اللغة التي سأبحث فيها في هذه الرسالة هي لغة حية. فهي اللغة الأدبية التي توحد كل الدول العربية، وهي التي ما تزال مستعملة في المدارس والمحاضرات والإذاعة والصحف والتمثيل والوظائف الرسمية الأخرى. إن الزعم بأن هذا النوع الأدبي للعربية هو نوع مصنوع وسطحي إنما هو قول يدل على جهل قائله. بل إن الفروق التي تفصل بين اللغة الأدبية العربية من النوعيات العامية المختلفة إنما هي فروق مبالغ فيها في الدراسات الماضية...." إلى غير ذلك.

لقد ولى الزمن الذي كانت تروج فيه كتابات مثل كتابات شوبي(١٤٠) ورافائيل بتاي(١٤١) مما يخرج على مقاييس العلمية لاعتمادها على فرضيات مثل فرضية سابير وورف التي أسيء تفسيرها واستعمالها في كثير من الأحيان وهي فرضية نقضتها البحوث اللاحقة(١٤٢).

خاتمة

كان القصد من كتابة ما تقدم بيان أن كثيراً من المفاهيم الشائعة في الثقافة العربية المعاصرة عن الدراسة اللسانية المعاصرة المتعلقة باللغة العربية إنما هي نتيجة للجهل بالتقدم الذي يتحقق كل يوم في هذا المجال الحيوي. ولم أكن أهدف إلى كتابة عرض تفصيلي للأعمال المنجزة؛ بل إن ما قصدته هو التدليل بشكل موجز على هذا النشاط العلمي الذي يبدو أن كثيراً من المتخصصين في اللغة العربية في العالم العربي إما غير واعين به أو لا يقدرونه حق قدره.

وإلى جانب شك هؤلاء المتخصصين بما ينجز في الغرب عن اللغة

---

(١٤٠) E. Shouby, " The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs", The Middle East Journal, Vol 5 (1951).

(١٤١) Raphael Patai, The Arab Mind, 2nd Edition (New York: Charles Scribner's Sons, 1976).

انظر خاصة الفصل الذي عنوانه: Under the Spell of Language," ص ص ٤١ – ٧٢.

(١٤٢) حمزة قبلان المزيني "التحيز اللغوي....".

العربية لارتباط هذه الدراسات في الضمير الجمعي العربي بدراسة اللهجات بدلاً من الفصحى، وبالدراسات الاستشراقية التي كانت في بعض الأحيان أداة في يد المستعمر، فإن هناك سبباً آخر جوهرياً هو القول بأن الأجانب لا يمكن أن يفهموا اللغة العربية مثل فهم أبنائها لها. وللرد على هذا القول ينبغي الإشارة إلى أن بعض الباحثين في هذه المجالات هم من العرب. وبالإضافة إلى هذه الحجة فإن القول بأن الأجانب أقل قدرة على فهم اللغة العربية من أبنائها هو قول ينقصه الدليل. أما الحقيقة فهي أن غير العربي يمكن أن يفهم تركيب اللغة العربية فهماً يتساوى مع فهم الناطقين بها إذا توافرت له أدوات البحث وكان جاداً. ويمكن أن يدلل على صدق هذه المقولة بأن أبرز علماء اللغة العربية لم يكونوا عرباً، بل لقد اتهم بعضهم بعدم إجادة اللغة العربية، وأول هؤلاء سيبويه(١٤٣).

وإذا نظرنا في تاريخ اللغات الأخرى فإننا نجد أحياناً أن أوفى كتب النحو لبعض اللغات كتبها علماء لم يكونوا من أهل تلك اللغات. وأظهر مثال على ذلك أوتوجسبرسن الذي كتب عن نحو اللغة الإنجليزية وهو دانماركي الأصل واللغة. وعلى الرغم من ذلك فإن كتاباته عنها ما تزال تتمتع بمكانة عالية في الدراسات الإنجليزية(١٤٤).

وهناك ملاحظة مهمة جداً هي أن الأجنبي في بعض الأحيان قد يكون أكثر قدرة على الفهم. وقد حدث هذا فعلاً في دراسة بعض المجتمعات. ومن ذلك ما يقوله ديل إيكلمان: " يعد الكتابان اللذان ألفهما باحثان أجنبيان عن المجتمع الأمريكي، في كثير من الجوانب، من أهم وأجود ما كتب في دراسة المجتمع

---

(١٤٣) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي. طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٨٤ ص ٦٦.

(١٤٤) انظر مثلاً: James D. McCawley, " Review of," Otto Jesperson: Facets of his Life and Work. Edited by Arne Juul and Hans F. Nielsen. (Amesterdam/ Philadilphia: John Benjamins Publishing Co. 1989) Languag, Vol.67, No.1 (1991) PP. 117-120

وكذلك: Julia S. Faalk, " Otto Jesperson, Leonard Bloomfield, And American Structural Linguistics", Language, Vol, 68, no 3 (1992) PP. 465 - 491.

الأمريكي وتأويل قيمه الأساسية. ونعني بهما كتـــاب الأرســتقراطي الفرنســي الكسيس دوتوكفيل" الديمقراطية في أمريكا" الذي صدر في سنة ١٨٣٥م، وكتاب السويدي المعاصر كونار ميردال "مأزق أمريكا" الـــذي صــدر ســنة ١٩٤٤م. ويمكن للمرء أن يحاج في هذا الباب ويقول بما أن هذين الملاحظين، وإن كانـــا أجنبيين عن المجتمع الأمريكي، فإنهما كانا أكثر وعيــاً بــالجوانب الأساســية والثابتة من الأمريكيين الذين يأخذون تلك الجوانب على أساس أنها بديهيــات أو يكونون على وعي ضعيف بها"(١٤٥).

وهذا يصح في فهم اللغة أيضاً. فلذلك يجب ألا يستخف بما يكتبـــه غــير العرب عنها. وهذه ليست دعوة لأن يسلم بكل ما يكتبون لكنها دعوة إلي الاطلاع عليه وقراءته قراءة نقدية والاستفادة من الحوار معه.

كما يتبين من البحوث التي عرض جانب منها أن اللغة العربيــة لا تــزال مجالاً بكراً للدراسة. فهناك قضايا كثيرة جداً في اللغة العربية الفصحـــى وفــي اللهجات العربية لم تبحث أو لم تنل حظاً كافياً من البحث أو أنها في حاجة إلـــى إعادة التحليل. وهذه المسألة تدعو إلى التفاؤل إذ إن التحقيق من وجـــود هــذه القضايا سيكون دافعاً إلي الانخراط بحماس في البحث اللساني في هـــذه اللغــة. ومما له صلة بهذا الموضوع أن المقولة التي تردد عن النحو العربي ومفادها أنه لا يمكن الزيادة فيه على ما كتبه النحويون العرب القدماء ليست دقيقة تماماً. فقد كشفت الأبحاث التي عرضت – على الرغم من تقديرها لإســهامات النحوييــن القدماء – أن هناك جوانب عديدة ما تزال في حاجة إلى دراسة.

إن أول شروط النهضة باللسانيات في العالم العربي – في ظني – هو أن نفهم حق الفهم النحو العربي بمنطلقاته الفكرية وتقنياتـــه وأطــره النظريــة ولا نستطيع أن نحقق هذا الفهم إذا اكتفينا بالنظر إليه من داخله فقط. إننـــي أظـــن – كما ذكر ذلك بعض الباحثين ممن أشير إليهم أعـــلاه – أن الدراســة اللســانية

---

(١٤٥) ديل إيكلمان. الإسلام في المغرب. ترجمة محمد أعفيف. (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٩م) ج١، ص ١١.

الحديثة قادرة على مدنا بالأدوات المنهجية والأطر النظرية التي نستطيع بها فهم النحو العربي فهماً دقيقاً. وتتعلق هذه النقطة بما يسمى أحياناً "إحيـــاء الـــتراث". فإحياء التراث لا يعني في نظري إلا تفسيره تفسيراً يجعله معاصراً لنـــا. وهـــذا التفسير المعاصر ليس تكلفاً إذا ما تعلق الأمر بالنحو العربي - فقد بيّن كثير من الأبحاث التي عرضت أن هناك أرضية مشـــتركة فـــي المنطلقـــات والأهـــداف والتقنيات بين اللسانيات والنحو العربي. ولا يعني هذا أبداً أن نكتفي - كما يفعل بعض الباحثين العرب المعاصرين - بالمقارنات السطحية منطلقين منهـــا إلـــى الفخر أو إلى تأكيد أسبقية العرب في هذا المجال، بل الهدف هو إقامة الصلة بين منجزات النحو المعاصرة والبناء على ذلك مسهمين في وصف اللغـــة العربيـــة وصفاً وافياً ومطورين للنظرية اللسانية المعاصرة نفسها.

ويعني هذا أن الفصل الحاد بين النحويين واللسانيين في الثقافـــة العربيـــة يجب أن يحل محله الاتصال لخير الفريقين. ومن مقتضيـــات هـــذه الصلـــة أن ينخرط دارس اللسانيات المعاصرة في قراءة النحو العربي قراءة قصدهـــا الأول فهم هذا النحو ومن بعد ذلك نقده وتمحيصه. أما النحوي فيجب عليـــه الاطـــلاع على منهجيات اللسانيات الحديثة إذ سيكون قادراً نتيجة لذلك على الإسهام فيهـــا بما يعرفه معرفة حقة من منهجيات النحو.

وهذه الدعوة للاتصال بين الفريقين قصدها إزالة الجفـــاء بيـــن الفريقيـــن وتوحيد الجهود بقصد تحقيق نهضة لغوية ليست غريبة على الثقافـــة العربيـــة. وعلى الرغم مما يشاع في الجو الثقافي العام من ضعـــف الصلـــة بيـــن النحـــو واللسانيات إلا أن الواقع يؤكد أن نشاط النحوي ودارس اللســـانيات واحـــد فـــي الأساس. فالنحوي ودارس اللسانيات كلاهما لابد لهما من جمع المـــادة اللغويـــة ولابد له من وصفها ولا بد له من تفسيرها. وعند هـــذه النقطـــة يتوقـــف دارس اللسانيات ويستمر دارس النحو في جعل القواعد التي توصل إليهـــا موضوعـــاً للتطبيق في تعليمه الناس اللغة.

وخلاصة القول أن واحداً من معوقات النهضة العلمية اللغوية في الثقافـــة

العربية المعاصرة هو شيوع بعض المقولات التي لا تستند إلى حقائق. وذلك مثل أن النظريات اللسانية المعاصرة لا يصلح تطبيقها على اللغة العربية لأن هذه النظريات أقيمت على لغات غربية. وأن الدراسة في اللسانية المعاصرة قصدها فيما يتعلق باللغة العربية تقعيد اللهجات وإحلالها محل اللغة الفصحى، أو أن الدراسة اللسانية المعاصرة تريد أن تكون بديلاً للنحو العربي بعد إزاحته من مركز الصدارة في الدراسة العربية. إن شيوع هذه المقولات يمكن أن يوصف بأنه نتيجة لما يسميه تشومسكي " مشكلة أورويل" نسبة إلى الروائي الإنجليزي الشهير مؤلف رواية (١٩٨٤). ويعني بذلك أن كثيراً من المقولات في المجالات الاجتماعية والسياسية والفكرية تقوم على أسس يمكن بقليل من البحث التأكد من عدم صحتها، وعلى الرغم من ذلك تبقى سائدة من غير أي تساؤل(١٤٦).

ولذلك فإنه لا يسع المتخصص في النحو العربي في هذا العصر أن يتجاهل التقدم الذي ينجز في اللسانيات، كما أنه لا غنى له عن الإطلاع على ما يكتب باللغات الأخرى عن الدراسات العربية. وبدلاً من القطيعة بينه وبين المتخصصين في هذه المجالات فإنه ينبغي عليه أن يسعى إلى الاطلاع على ذلك والاستفادة منه والحوار معه.

---

(١٤٦) Noam Chomsky. Knowledge of Language: Its Nature, Origin , and use. (New York: Praeger. 1986) P. xxiii

وتدليله على هذه المشكلة ببعض الظواهر السياسية في الكتاب نفسه، ص ص٢٦٧ – ٢٨٧.

الصرف بين سيبويه والفراء

د. حسن حمزة و د. سلام بزي – حمزة
جامعة لوميير/ ليون٢
مركز البحث في المصطلح والترجمة C.R.T.T

أ- وحدة النظرية النحوية العربية

تتميز النظرية النحوية العربية بقدر كبير من الاستقرار منذ الكتاب الأول الذي وصل إلينا، كتاب سيبويه، إلى أيامنا هذه. بيد أن هذه النظرية لم تقفل الباب أمام التغيير لتكرر نفسها على الدوام. وسيكون من قصر النظر اعتبار تاريخ الفكر النحوي العربي كله تقليداً واجتراراً مملاً لعمل الأولين، فمواطن التجديد كثيرة في التراث النحوي العربي. غير أن هذا التجديد لم يصل إلى حد القطيعة النظرية مع سيبويه، فلم يقدم نظرية جديدة تختلف عن النظرية التي جاء بها الكتاب، فكانت خلافات النحويين العرب عبر العصور تنوعاً في داخل النظرية النحوية لا في خارجها. أما ما سمي بـ "مدارس النحو العربي" في البصرة والكوفة وغيرهما من حواضر العالم العربي الإسلامي فلا يجوز أن ينظر إليه على أن كل "مدرسة" فيه تشكل خطاً نظرياً بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما هو استعمال لمصطلح المدرسة على سبيل الاتساع. والرجوع إلى النحاة الأولين الذين يقال عنهم إنهم يشكلون أسس "مدرستي البصرة والكوفة" من أمثال سيبويه والفراء يعزز قناعاتنا بأن هؤلاء النحاة إنما كانوا يصدرون عن منطلق نظري واحد[1]. بل أن كثيراً من نقاط الخلاف الفرعي التي سجلتها كتب النحو عامة، وكتب الخلاف خاصة، لا تشكل مواضيع خلافية حقيقية بين النحاة

---

(١) انظر: Hassan HAMZE: Unité et diversité dans la tradition grammaticale arabe,

الأولين[٢]. وسنتناول في هذه الدراسة واحدة من المسائل التي اعتبرها الأقدمون، ويعتبرها الدارسون جميعاً في أيامنا مسألة خلافية مسلماً بها، وهي مسألة الصرف.

ب- القول باختلاف البصريين والكوفيين

يخصص ابن الأنباري في كتاب الإنصاف عدداً من الفصول أو المسائل لموضوع النصب، ولا سيما المسألتين الخامسة والسبعين والسادسة والسبعين، وهما تتناولان على التوالي عامل النصب في الفعل المضارع بعد واو المعية وعامل النصب في الفعل المضارع بعد فاء السببية. وخلاصة قول ابن الأنباري أن البصريين ينصبون الفعل المضارع في هذه المواضع بـ "أن" مقدرة، وأن الكوفيين يختلفون: فمنهم من ينصب الفعل بالحرف نفسه، ومنهم من ينصبه بالصرف. ويقدم النحاة العرب تفصيلات أخرى: فابن جني ينسب القول بالصرف إلى البغداديين (سر صناعة الإعراب، ١/٢٧٦-٢٧٧). والسيوطي ينسب القول بالصرف إلى الفراء، ويذكر أن الكسائي وأصحابه يقولون بأن "الواو" هي الناصب للفعل، لا الخلاف. ويجعل النصب بالخلاف وجهة نظر الفراء وقوم من الكوفيين. (همع الهوامع، ٤/١١٧). والعلائي يقول: "ذهب الكوفيون ومن تبعهم من البغداديين إلى أن النصب في هذه الأماكن بالخلاف ويسمونه الصرف" (الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ٢١٨). أما الأستراباذي فيقول: "إن الظاهر من مذهب الفراء أنه جعل الخلاف أمرا معنويا ناصبا" (شرح الكافية ٢/٢٤١).

هذه خلاصة آراء القوم في الصرف. ولم نجد أحداً تصدى لمعارضة هذه الآراء، فلا يقدم الدارسون المعاصرون، فيما نعلم، جديداً في الموضوع لأنهم يتابعون الأقدمين في ما ذكروه[٣]. أما ما كتبه ميخائيل كارتر عن الصرف

---

(٢) انظر محمد خير الحلواني: *الخلاف النحوي*. وانظر: Hassan HAMZE: La coordination à un pronom "conjoint".

(٣) انظر على سبيل المثال مهدي مخزومي: *مدرسة الكوفة*، ص٢٩٢ وما بعدها؛ شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص١٦٤ وما بعدها؛ عبدالرحمن السيد: مدرسة البصرة، ص١١٥......إلخ.

والخلاف فإنه لا يمس جوهر الخلاف في المسألة التي تعنينا رغم حديثه عن الشبه بين تحليلي سيبويه والفراء، فهو كما يقول، يأخذ النتائج التي توصل إليها مهدي مخزومي ويطورها ويعدلها(٤)، غير أنه عني بجانب، وأهمل جانباً آخر هو بيت القصيد في الخلاف النحوي. فقد أصاب في تأكيده أن "الخلاف" أو "الصرف" أمر مشترك بين البصريين والكوفيين. غير أنه اعتبر اشتراكهم في هذه المسألة خاتمة المطاف، فكأنه جعل اتفاق الفريقين على القول بـ "الخلاف" و "الصرف" رداً على من زعم اختلافهم، فأهمل بحث العامل عند الفراء وما ينسب إليه من القول بأن الصرف عامل معنوي ناصب بنفسه. وإنما يقع الخلاف في عامل النصب في الفعل المضارع لا في العمليات الذهنية المؤدية إليه.

ج- العطف والصرف

الواو والفاء و أو من حروف العطف. وحروف العطف تجمع بين المتعاطفين في حركة الإعراب وفي المعنى. يقول سيبويه: *"فإن قلت: مررت برجل وامرأة" فقد أشركت الواو بينهما في الباء فجريا عليه" وكذلك إن قلت: "مررت برجل فامرأة" أو "مررت برجل أو امرأة" فأو أشركت بينهما في الجر، وأثبتت المرور لأحدهما دون الآخر، وسوت بينهما في الدعوى"* (الكتاب، ١/٤٣٧-٤٣٨).

أما في الفعل المضارع المنصوب بعد ما يعرف بـ "واو المعية" فلا يشير سيبويه إلى الجمع بين الفعلين، بل إلى اختلافهما في حركة الآخر وفي المعنى. يقول في الجملة المشهورة التي تداولتها كتب النحاة:

لا تأكل السمك وتشرب اللبن

"ومنعك أن ينجزم في الأول لأنه إنما أراد أن يقول له: لا تجمع بين اللبن والسمك، ولا ينهاه أن يأكل السمك على حدة ويشرب اللبن على حدة، فإذا جزم فكأنه نهاه أن يأكل السمك على كل حال أو يشرب اللبن على كل حال" (الكتاب،

---

(٤) انظر: Sarf et kilâf, P.294.

٣/٤٢-٤٣).

ويقول في تفسير انتصاب الفعل المضارع في مثل: "لا تأتيني فتحدثني":

لم ترد أن تدخل الآخر فيما دخل فيه الأول، فتقول: لا تأتيني ولا تحدثني، ولكنك لما ***حولت*** *المعنى عن ذلك* ***تحول*** *إلى الاسم،* [٥] (الكتاب، ٣/٢٨).

فسيبويه يفسر للنصب في هذه المواضيع برغبة المتكلم في ألا يشرك بين الأول والآخر، فهو يحول معنى الآخر فيخرجه من معنى الأول[٦].

إن تعليل سيبويه للنصب في هذه الأفعال المضارعة يقوم على التمييز بين العطف الذي يشرك الآخر فيما دخل فيه الأول، والتحويل الذي يخرج الآخر مما دخل فيه الأول، فيحول المعنى بتحويل حركة الفعل المضارع من الرفع أو الجزم إلى النصب.

إن هذا التعليل نفسه هو تعليل الفراء للصرف. فقد حده حين ذكره لأول مرة في كتابه، فقال:

---

(٥) انظر: Salam HAMZE: *Les unités amorphes libres dans le Kitâb de Sîbawayhi,* .PP. 196-201

(٦) يقول عبدالقاهر الجرجاني عن الواو في مثل:

لَلُبسُ عباءة وتقرَّ عيني   أحبُّ إليّ من لُبس الشفوفِ

إن الغرض منها أن يجمع بين لبس العباءة وقرة العين، فيقال: إنهما جميعاً أحب من لبس الشفوف. وليس المقصود أن لبس العباءة أحب من لبس الشفوف [...] فلو رفعت لكان التقدير: للبس عباءة أحب إلي من لبس الشفوف. ثم تقول: وتقر عيني. وليس هذا دليل [كذا] على أن المحبة تحصل من لبس العباءة مقترناً بقرة العين.

وينبغي أن يعلم أن الواو هنا ليس للعطف فقط كقولك: زيدٌ وعمروٌ خير من بكر، تريد أن كل واحد منهما خيرٌ من بكر، وإنما الواو متضمن لمعنى: "مع"؛ فكأنه قال:للبس عباءة مع قرة العين أحبُّ إليّ، كما تقول: الشرح والمشروح خيرٌ من المشروح، تريد أنهما جميعاً خيرٌ من هذا الواحد، ولا تريد أن كل واحد من الشرح والمشروح خير. كيف وفي ذلك استحالة؛ لأنه بمنزلة أن تقول: كل واحد من زيد وعمرو خيرٌ من زيد، وهو كقولك: زيد خير من زيد، وذا محال (شرح المقتصد، ٢/١٠٥٩).

"فإن قلت: "وما الصرف؟" قلت: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان ذلك فهو الصرف، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله　　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة "لا" في "تأتي مثله" فلذلك سمي صرفاً، إذ كان معطوفاً ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله" (معاني القرآن، ١/٣٣-٣٤)(٧).

وقال في موضع آخر:

"والصرف أن يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو "أو"، وفي أوله جحد أو استفهام، ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعاً أن يكرّ في العطف، فذلك الصرف [..] يقولون: لا يسعني شيء ويضيق عنك، ولا تكرّ "لا" في "يضيق". فهذا تفسير الصرف" (معاني القرآن، ١/٢٣٦).

والصرف بهذا المعنى مصطلح ورد أول ما ورد في معاني القرآن للفراء. وربما يكون الفراء واضع هذا المصطلح، وإن أشار إلى استعمال النحويين له(٨).

د- تقدير المعنى

واضح مما ذكرنا أن **التحويل** عند سيبويه هو الصرف عند الفراء. وواضح أنهما يلجآن في تعليلهما نصب المضارع في الأمثلة السابقة إلى العمليات

---

(٧) في الكتاب، ٣/٤٢: "وإنما أراد " لا يجتمعنّ النهي والإتيان" فصار "تأتي" على إضمار "أن".

(٨) لم يرد مصطلح الصرف بهذا المعنى الخاص في كتاب سيبويه. إلا أنه ورد في موضوع واحد (الكتاب ٣/٣١) في سياق قريب من السياق الذي يستعمله فيه الفراء، وذلك في تعليله لنصب الفعل المضارع في مثل :" ما أتيتنا فتحدثنا؛ لأن حد الكلام أن يقال: "ما أتيتنا فحدّثتنا" باستخدام الفعل الماضي. فلما صُرف إلى المضارع نصب، لأنه ضعيف أن يعطف المضارع على الماضي.

الذهنية التي تبني المعنى، أي إلى قصد المتكلم الجمع والإشراك بين الحكمين، أو قصده صرف الحكم الثاني عن الأول(٩)، كما يرجعان إلى هذه العمليات الذهنية لتعليل نصب المستثنى بعد "إلا"، وهي عمليات يريد بها المتكلم إخراج الآخر مما دخل فيه الأول كما يقول سيبويه، أو مخالفة الثاني للأول كما يقول الفراء(١٠)، في تفسيره للآية ١٥٠ من سورة البقرة،:

(وقوله: "لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم".

*يقول القائل: "يكون كيف استثنى الذين ظلموا في هذا الموضع؟" ولعلهم توهموا أن ما بعد "إلا" **يخالف** ما قبلها، فإن كان ما قبل "إلا" فاعلا كان الذي بعدها **خارجا** من الفعل الذي ذكر، وإن كان قد نفى قبلها الفعل ثبت لما بعد "إلا". كما تقول: "ذهب الناس إلا زيدا" فـ "زيد" خارج من الذهاب، و "لم يذهب الناس إلا زيد" فـ "زيد" ذاهب والذهاب مثبت لـ "زيد")* (معاني القرآن، ٨٩/١).

كما أنه يعلل نصب المستثنى **بالانقطاع** في الآية التالية:

"فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس" (يونس/٩٨) فيقول:

*" وهي في قراءة أُبيّ: (فهلا) ومعناهما أنهم لم يؤمنوا، ثم استثنى قوم يونس بالنصب على **الانقطاع** مما قبله)* (معاني القرآن، ٤٧٩/١).

---

(٩) انظر ما يجوز فيه العطف والصرف تبعاً لقصد المتكلم. (الكتاب، ٤٤/٣) و(معاني القرآن ١١٥/١، ٢٢١، ٢٣٥، إلخ).

(١٠) يبدو أن مهدي مخزومي لا يهتم كثيراً بالعمليات الذهنية التي يعلل الكوفيون بها الاستثناء، بل يصرف همه إلى العامل فيه، فهو يقول:
(فمقالة الخليل في نصب المستثنى بـ "إلا" هي سبعث القول بالخلاف عند الكوفيين. ولكنهم رسموا له حدودا وطبقوه في موضوعات أخرى. فقالوا بالخلاف في أربعة مواضع لم يكن المستثنى بـ "إلا" واحدا منها). ثم يضيف معلقا: *(ومن الغريب أن يقول الكوفيون بالنصب على الخلاف في هذه المواضع) ولا يقولوا به في نصب المستثنى بـ "إلا" مع أن المخالفة بين المستثنى وما قبله أبين منها في هذه المواضع". (مدرسة الكوفة، ٢٩٧).*

والانقطاع مصطلح قد يستخدمه الفراء في مكان مصطلح الصرف، كما فعل في المثل التالي: "لستُ لأبي إن لم أقتلك أو تسبقني في الأرض"؛ فقد جعل الفعل "تسبق" منصوباً على أن آخره منقطع من أوله (معاني القرآن، ٢/٧١). غير أنه يفضل استعمال مصطلح الصرف في الأفعال المنصوبة بعد حروف النسق لأن المنصوب فيها مختلف عن المنصوب بعد الاستثناء. ووجه الاختلاف بينهما أنك إن لم تصرف عطفت فأعدت أمام الثاني النفي أو الاستفهام الذي يسبق الأول، وليس ذلك في الاستثناء. ويبدو أن مصطلح القطع أوسع مجالاً من مصطلح الصرف؛ فالفراء يستعمله في الصرف (معاني القرآن، ٢/٧١)، وفي الاستثناء (١/٤٧٩)، وقبل الاستئناف (١،٢٢٤)، وفي الحال (١/٣٤٨) وفي التمييز (٢/٦). فكل صرف انقطاع، وليس كل انقطاع صرفاً. إنما الصرف الانقطاع بعد الواو والفاء و ثم و أو.

هـ- بين تقدير الإعراب وتقدير المعنى

حين يعلل سيبويه النصب في الفعل المضارع بعد واو المعية أو بعد فاء السببية بالتحول، أو بخروج الآخر مما دخل فيه الأول، فإنما يقدم المعنى الذي قام في الذهن وأدى إلى تغيير الإعراب. غير أنه لا يكتفي بذلك، فلا يعتبر هذا المعنى عاملاً. وإنما يبحث عن عامل لفظي ناصب للفعل؛ ذلك أن تغير المعنى لا ينصب بنفسه، بل بعامل لفظي يقتضيه. يقول سيبويه في نصب الفعل المضارع في مثل" لألزمنّك أو تقضيني":

"*اعلم أن ما انتصب بعد "أو" فإنه ينتصب على إضمار "أن"، كما انتصب في الفاء والواو على إضمارها*" (الكتاب، ٣/٤٦).

ويقول المبرد في مثل ذلك:

"*اعلم أن الفاء عاطفة في الفعل كما تعطف في الأسماء [..] فإن خالف الأول الثاني لم يجز أن يحمل عليه، فحمل الأول على معناه، فانتصب الثاني بإضمار "أنّ"*) (المقتضب، ٢/١٣).

أما الفراء فيقول بالنصب على الصرف في مواضع كثيرة من كتابه. وقد أحسن الأستراباذي صنعاً حين قال إن ظاهر كلام الفراء يدل على أنه يجعل الصرف عاملاً ناصباً. فالقول ما قال. غير أنه يحسُن ألا يُحمل كلام الفراء على ظاهره "*فأكثر ما ترى من هذه الآراء المختلفة والأقوال المستشنعة- كما يقول ابن جني- إنما دعا إليها القائلين بها تعلقهم بظواهر هذه الأماكن*". ويعطي ابن جني مثلاً لذلك ظاهر كلام سيبويه الذي يقول "*في بعض ألفاظه: "حتى" الناصبة للفعل يعني في نحو قولنا: "اتق الله حتى يدخلك الجنة". فإذا سمع هذا من يضعف نظره اعتدها في جملة الحروف الناصبة للفعل، وإنما النصب بعدها بـ "أن" مضمرة"*) (الخصائص، ٢/٢٦٠-٢٦١)(١١).

و- الصرف ليس عاملاً عند الفراء

يبدو مما ذكره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني أن البغداديين الذين ينسب إليهم القول والصرف، وهم كوفيو بغداد(١٢)، لم يميزوا مستويين مختلفين من مستويات التحليل اللغوي: العمليات الذهنية في الفعل المضارع المنصوب بعد واو المعية وفاء السببية، وعامل النصب فيه، فسموا هذه العمليات الذهنية عاملاً. يقول ابن جني:

"*وقول البغداديين: " إننا ننصب الجواب على الصرف" كلام فيه إجمال، بعضه فاسد وبعضه صحيح. أما الصحيح فقولهم: الصرف، أي ينصرف بالفعل الثاني عن معنى الأول، وهذا هو معنى قولنا: "إن الثاني يخالف الأول". فأما انتصابه بالصرف فخطأ، ولا بد له من ناصب مقتض له؛ لأن المعاني لا تنصب*

---

(١١) ومن مثل ذلك قول النحويين في مثل "الحمد لله" إن "لله" خبر المبتدأ، وإنما حرف الخفض وما يتبعه من صلة فعل أو معناه (انظر الزجاجي: اللامات، ٥١-٥٢). ومن ذلك قول السيوطي إن الزجاجي قد ذهب إلى أن "كان وأخواتها" حروف (همع الهوامع، ٢٨/١) ربما لأن ذلك قد ورد في أحد عناوين كتاب الجمل الذي يقول: باب الحروف التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار (الجمل، ٤١)، وإنما كان وأخواتها عند الزجاجي أفعال لا حروف. انظر الجمل، ١٠٣)،

(١٢) Hassan HAMZE: Unité et diversité dans la tradition grammaticale arabe

الأفعال، وإنما ترفعها المعاني. والمعنى الذي يرفع الفعل هو وقوع الفعل موقع الاسم [...] وكما أن الأسماء لا تنتصب إلا بناصب لفظي، فكذلك الأفعال لا تنتصب إلا بناصب لفظي" (سر صناعة الإعراب، ١/٢٧٦-٢٧٧).

ويقول عبد القاهر الجرجاني:

" وأما قول البغداديين إنه منصوب على الصرف، فالذي يصح منه أن يراد صرف الثاني عن إعراب الأول، فكأنهم لما قصدوا أن يكون الثاني غير داخل في حكم الأول فنصبوه صار العدول به عن معنى الأول كأنه نصبه إذا كان سبباً لإضمار "أن". فأما أن يراد أن النصب بنفس مخالفته للأول حتى كأن عامله ذلك المعنى فلا. ولو جاز ذلك جاز أن تقول إن "زيداً " في قولك" "ضربت زيداً "، لم ينتصب بالفعل وإنما عمل النصب فيه كونه مفعولاً؛ وذلك غير سديد" (المقتصد، ٢/١٠٧٤-١٠٧٥).

في تقديرنا أن الصرف عند الفراء ليس عاملاً ناصباً، بل مثله كمثل التحويل، أو كمثل خروج الآخر مما دخل فيه الأول عند سيبويه، يشرح العمليات الذهنية عند المتكلم، ويربط تغير اللفظ بتغير المعنى، فيبرر تغير الإعراب برغبة المتكلم في ألا يدخل الآخر فيما دخل فيه الأول[١٣] دون أن يعني ذلك أن الصرف نفسه هو العامل الذي يحدث النصب في الفعل المضارع. فالفراء يستعمل مصطلحات كثيرة يفسر بها تغير حركة الإعراب كالصرف، والخلاف، والعدل، والانقطاع مما قبله، والخروج مما قبله، إلخ. وقد يعطي المثال الواحد فيجعله منصوباً على الصرف مرة، وعلى أن آخره منقطع من أوله مرة أخرى، كما في المثال التالي: لا يسعني شيء ويضيق عنك (معاني القرآن، ٢، ٧١؛

(١٣) يقول عبدالقاهر الجرجاني في هذا المعنى:
"وإذا قلت: لا تأتينا فنعطيك، فعدلت بالفعل الواقع بعد الفاء عن إعراب ما قبله، فنصبته وما قبله مرفوع في قولك: ما تأتينا فنعطيك، ومجزوم في نحو قوله تعالى: ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي [طه/٨١] علم ضرورة أنه غير داخل فيما قبله؛ إذ لو شاركه لما عدل به عن إعرابه" (المقتصد، ٢/١٠٦٣).

٢٣٦/١). ولا يعني الانقطاع ولا الصرف ولا المصطلحات الأخرى، ضرورة عوامل معنوية تغني عن العامل اللفظي.

إننا نعتقد أن الفراء حين يتحدث عن الصرف، أو حين يقول بالنصب على الصرف فإنما يسعى، مثله مثل سيبويه في التحويل وفي خروج الآخر مما دخل فيه الأول، إلى تقدير المعنى لا إلى تقدير الإعراب[١٤]. وفي معاني القرآن ما يكاد يكون تصريحاً بذلك. وسوف نقدم عدداً من الأدلة على ما نقول:

١- يستعمل الفراء مصطلح الصرف في مواطن غيرِ التي ذكرناها من نصب الفعل المضارع لا يمكن أن يكون فيها ناصباً؛ فهو يستعمله في الأعداد المركبة المبنية على فتح الجزأين، من أحد عشر إلى تسعة عشر. ومعلوم أن هذه الأعداد لا تحتاج إلى عامل لتقدير الفتح فيها. يقول الفراء:

"وذلك أنهم جعلوا اسمين معروفين واحداً، فلم يضيفوا الأول إلى الثاني فيخرج من معنى العدد. ولم يرفعوا آخره فيكون بمنزلة "بعلبك" إذا رفعوا آخرها. واستجازوا أن يضيفوا "بعل" إلى "بكّ" لأن هذا لا يعرف فيه الانفصال من ذا، والخمسة تنفرد من العشرة والعشرة من الخمسة، فجعلوهما بإعراب واحد؛ لأن معناهما في الأصل: هذه عشرة وخمسة. فلما عُدلا عن جهتهما أعطيا إعراباً واحداً في الصرف[١٥] كما كان إعرابهما واحداً قبل أن يُصرفا **عُدلا عن جهتهما أعطيا إعراباً واحداً في الصرف كما كان إعرابهما واحداً قبل أن يُصرفا**) (معاني القرآن ٣٢/٢).

---

(١٤) انظر سيبويه في باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى (الكتاب، ٢١١/١) وانظر الأبواب الثلاثة التالية في الخصائص لابن جني: باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى (٢٧٩/١-٢٨٤)، باب في تجاذب المعاني والإعراب (٢٥٥/٣-٢٦٠)، باب في التفسير على المعنى دون اللفظ (٢٦٠/٣-٢٦٤).

(١٥) يقول محقق الكتاب في الحاشية: "يريد صرفهما عن حالة الإفراد إلى التركيب".

٢- لا يستعمل الفراء مصطلح النصب **بالصرف** في معاني القرآن[١٦]، بل مصطلح النصب على **الصرف**. وهذا لا يسمح بالقول إن الفراء يجعل الصرف ناصباً. كما أن البابين اللذين عقدهما سيبويه لـ "ما ينتصب على **التعظيم والمدح**" (الكتاب، ٦٢/٢؛ ١٩٤/٢) لا يسمحان بالقول إن سيبويه يجعل التعظيم أو المدح عاملاً ناصباً[١٧]. وقد يستعمل الفراء مصطلحات أخرى في المنصوب على الصرف، كالنصب على الجواب (معاني القرآن، ٢٧٦/١)، والنصب على الانقطاع (معاني القرآن، ٧١/٢)، وليس الجواب والانقطاع ناصبين. ويبدو من الأمثلة التي أعطاها حين حدّ هذا المصطلح[١٨] أنه يصرف همه إلى معناه لا إلى عمله، وأن الصرف يقوم على ألا تُكرَّ أمام الفعل الثاني أداة النفي الواردة أمام الفعل الأول، لا على نصب الفعل الثاني.

٣- الصرف لا يعمل النصب؛ فالفعل قد يكون منصوباً وهو مصروف، ومرفوعاً وهو مصروف، ومجزوماً وهو مصروف. واعتبار الصرف عاملاً معنوياً ناصباً في الفعل المنصوب يقتضي اعتباره رافعاً في المرفوع وجازماً في المجزوم ولم يقل بذلك أحد، بل يشير ما في معاني القرآن للفراء إلى خلاف ذلك.

---

(١٦) معاني القــران، ٣٣/١، ٣٤، ١١٥، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٧٦، ٢٩٢، ٣٩١، ٤٠٨؛ ٢٦٣/٢؛ ٢٤/٣، ٦٤.

(١٧) والأمر كذلك عند الأستراباذي الذي يستعمل مصطلح "واو الصرف" التي نصبوا الفعل المضارع بعدها "ليكون الصرف عن سنن الكلام المتقدم مرشدا من أول الأمر أنها ليست للعطف" (شرح الكافية، ٢٤٦/٢)، ومصطلح "النصب على الصرف" (شرح الكافية، ٢٤٩/٢) في قول الشاعر:

وما أنا للشيء الذي ليس نافعي ويغضب منه صاحبي بقؤول

والصرف عنده ليس ناصباً بنفسه، لأنه بعد أن ذكر أن الظاهر من مذهب الفراء أنه "يجعل الخلاف أمرا معنويا ناصبا" يقول: "ولو أوجب الخلاف الانتصاب لم يجز العطف في النحو: "ما مررت بزيد لكن عمرو، وجاءني زيدٌ لا عمروٌ" (شرح الكافية، ٢٤١/٢).

(١٨) معاني القران، ٣٣/١-٣٤، ٣٥.

- قد يكون الفعل الثاني مرفوعاً وهو مصروف إذا كان الفعل الأول منصوباً، كما في البيت التالي:

على الحكم المأتيّ يوماً إذا قضى قضيّته أنْ لا يجورَ ويقصدُ[19]

ينقل السيوطي رأي الفراء في رفع الفعل الثاني "يقصد" فيقول:

"قال الفراء: "*هو مرفوع على المخالفة*" (الأشباه والنظائر، ٢، ٢٤٢)[20].

ووجه المخالفة فيه أن يخالف الفعل الثاني الأول فلا ينصب مثله لأن نصبه يقتضي تكرار "ألا" الواردة أمام الفعل الأول، فيصبح المعنى: على الحكم ألا يجوز وألا يقصد، وهو خلاف المقصود. وأما سيبويه فيعلل رفع الفعل (يقصدُ) في البيت المذكور أعلاه بالانقطاع فيقول:

"*ومما جاء منقطعا قول الشاعر، وهو عبد الرحمن بن الحكم:*

على الحكم المأتيِّ يوما إذا قضى قضيته أن لا يجور ويقصدُ

كأنه قال: عليه غير الجور، ولكنه يقصد، أو هو قاصد فابتدأ، ولم يحمل الكلام على "أن") (الكتاب ٣/٥٦)[21].

قد يأتي الفعل الثاني مصروفاً وحركة إعرابه هي حركة إعراب الفعل الأول. ووجه صرفه ألا يكر فيه النفي الذي في الفعل الأول أو اليمين الذي في الفعل الأول. فلو كان الصرف ناصباً لوجب أن يكون الفعل المصروف منصوباً على أي حال لوجود ناصبه. يقول قائل للفراء:

(١٩) لم نجد هذا البيت في معاني القرآن للفراء.

(٢٠) يقول الأستراباذي: "وقولهم في نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن إنه نصب على الصرف بمعنى قولهم: نصب على الخلاف سواء" (شرح الكافية، ٢/٢٤١).

(٢١) وبمثل هذا المصطلح: الانقطاع من النسق والاستئناف، يعلل الفراء قراءة من قرأ:"ولا يأمركم" بالرفع في الآيتين: "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس [...] ولا يأمركم" [آل عمران، ٧٩ ٨٠].

"هل يجوز في الأفاعيل التي ***نصبت بالواو*** *على الصرف أن تكون مردودة على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟"* ويجيب الفراء: *"قلت: "نعم. العرب تقول: "لست لأبي إن لم أقتلك أو تذهبْ نفسي"، ويقولون: "والله لأضربنّك أو تسبقَني في الأرض". فهذا مردود على أول الكلام ومعناه الصرف؛ لأنه لا يجوز على الثاني إعادة الجزم بـ "لم"، ولا إعادة اليمين على "والله لتسبقنّي"* (معاني القرآن، ١/٣٤).

إن ملاحظة أمثلة الصرف التي يقدمها الفراء تظهر أن الفعل المصروف قد يكون منصوباً أو مرفوعاً أو مجزوماً، وإن كان النصب أغلب وأكثر، وأن حركته قد تماثل حركة الفعل الأول، وإن كانت المغايرة أغلب وأكثر. ولو كان الصرف عاملاً معنوياً ناصباً لما جاز أن يكون الفعل الثاني مجزوماً أو مرفوعاً وفيه معنى الصرف. ومع جواز جزم الفعلين في المثال الأول[٢٢] فإن حد الكلام أن يقال: "لست لأبي إن لم أقتلْك أو تذهب نفسي " لتنبيه السامع إلى أن إعادة "إن لم" أمام الفعل الثاني ليست مقصودة. كما أن حد الكلام في المثال الثاني أن يقال: والله لأضربنّك أو تسبقني في الأرض لتنبيه السامع بتغيير حركة آخر الفعل الثاني إلى أن تكرار اليمين ليس مقصوداً فيه. غير أن ما يعنينا هنا هو أن الفراء يعتبر الفعل الثاني مصروفاً وهو مجزوم مردود على الفعل الأول تابع له في حركة آخره مما يعني أن الصرف ليس عاملاً ناصباً عنده.

إن مثل الصرف عند الفراء كمثل الخلاف والانقطاع والعدل يشرح العمليات الذهنية للمتكلم ويبرر تغيير حركة الآخر دون أن يكون عاملاً. فعندما ينصب المتكلم الفعل المضارع بعد "أو" فإنما ينصبه *"ليُؤذن نصبه بالانقطاع عما قبله"* كما يقول الفراء (معاني القرآن، ٢/٧٠). فالتغيير يحدثه العامل ليُؤذن بالصرف أو العدل أو القطع أو الخلاف الذي ينويه المتكلم، لا أن العامل هو الصرف نفسه أو العدل أو القطع أو الخلاف، فهذه معان تهيّئ للعوامل أنْ تعمل،

(٢٢) معاني القران، ٢/٧٢.

لا أنها عوامل في أنفسها كما يقول الجرجاني[٢٣]

وليس الفراء، فيما يبدو لنا، بعيداً عن هذا التصوير، فهو في الآية ٧٢ من سورة التوبة/براءة:

"وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبةً في جنات عدن ورضوانٌ من الله أكبر" يجعل العدل سبباً لرفع "رضوانٌ"؛ لأنه عدل به عن أن ينسق على ما قبله فينصب. وليس العدل رافعاً لـ "رضوانٌ" في نظر الفراء. إنما الرافع عنده هو الخبر "أكبر" عملاً بقول الكوفيين أن المبتدأ والخبر يترافعان. يقول الفراء:

(وقوله: "ورضوانٌ من الله أكبر" رفع بـ "الأكبر"، وعدل عن أن ينسق على ما قبله وهو مما قد وعدهم الله تبارك وتعالى، ولكنه أوثر بالرفع لتفضيله" (معاني القرآن، ١/٤٤٦). فالرفع إيذان بعدل الاسم المرفوع عما قبله، لا أنَّ العدل عامل رافع بنفسه.

ز- العامل في المنصوب على الصرف

ورد في معاني القرآن مرة واحدة مصطلح **النصب بالواو** على الصرف، على لسان سائل في ما يبدو[٢٤]، رداً على قول الفراء إن العرب تنصب الأسماء المعطوفة على المرفوع في مثل قولهم: لو تُركت والأسد لأكلك، ولو خُلّيت ورأيك لضللت: *"لما لم يحسن في الثاني أن تقول: لو تُركت وتُرك رأيك لضللت*

(٢٣) فـ "زيداً" في "ضربت زيداً" منصوب بالفعل "ضرب" لا بكونه مفعولاً لأنه لو كان ذلك صحيحاً لما جاز أن يقال: "زيد مضروب" برفع زيد لأنه مفعول، ولقيل "زيداً مضروب". فكون زيد مفعولاً في "ضربت زيداً" ليس ناصباً له، وإنما الصحيح أن يقال إن كونه مفعولاً هو الذي "*أوجب أن يكون "ضربت" عاملاً فيه النصب، فالذي يجوز نصبه بالفعل هو وقوع الفعل في المعنى عليه*" (المقتصد، ٢/١٠٧٥).

(٢٤) في النص بعض الاضطراب، فقد جاء فيه: (*قال فهل يجوز [...]! قلت: نعم [...]*) دون ذكر القائل. يقول محقق الكتاب: " كأنّ الأصل: "قال قائل". وعلى هذا الافتراض يعود "قال" إلى سائل يسأل، و "قلت" إلى الفراء. (معاني القرآن، ١/٣٤).

تهيّبوا أن يعطفوا حرفاً لا يستقيم فيه ما حدث في الذي قبله. قال: فإن العرب تجيز الرفع؛ لو ترك عبدالله والأسد[25] لأكله، فهل يجوز في الأفاعيل التي ***نصبتْ بالواو على الصرف*** *أن تكون مردودة على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟ قلت: نعم. العرب تقول [..]* (معاني القرآن، ١/٣٤).

وفي السؤال إشارة واضحة إلى أن الصرف ليس عاملاً ناصباً. وظاهر كلام السائل الذي لا يعارضه الفراء، أو السائل الذي يفترض الفراء وجوده، يشير إلى أنه يجعل الفعل منصوباً **بالواو على الصرف لا** بالصرف نفسه. فإن أخذنا بهذا القول على أنه قول الفراء فإنه يعني أن الواو عنده، لا الصرف، هي عامل النصب في الفعل المضارع إلا إن كان ذلك قد قيل على سبيل الاتساع.

على أن في معاني القرآن للفراء، وهو ليس كتاباً في النحو، موضعين على الأقل، يشير فيهما الفراء تلميحاً يقرب من التصريح، إلى أن النصب في الفعل المضارع المنصوب على الصرف إنما يكون بعامل لفظي هو "أن" المضمرة، لا بالواو ولا بالصرف نفسه:

١- يقول في الآية ٧٣ من سورة النساء: "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً":

" *العرب تنصب ما أجابت بالفاء في "ليت"؛ لأنها تمنٍّ، وفي التمني معنى: "يسرني أن تفعل فأفعل" فهذا* ***نصبٌ كأنه منسوق*** *كقولك في الكلام: وددت أن أقوم فيتبعني الناس*" (معاني القرآن، ١/٢٧٦).

والنسق يقتضي التكرير. يقول الفراء في الآيتين:

---

(٢٥) يقول الفراء في تجويز الوجهين: "لما جاءت الواو ترد اسماً على اسم قبله، وقبح أن ترد الفعل الذي رفع الأول على الثاني نصب؛ ألا ترى أنك لا تقول: لو تركت وتُرك الأسد لأكلك. فمن هنا أتاه النصب. وجاز الرفع لأن الواو حرف نسق معروف فجاز فيه الوجهان للعلتين" (معاني القران، ٢، ٧١).

"وما كان لبشر أنْ يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوةَ [..] ولا يأمركم" (آل عمران/٧٩-٨٠). إن أكثر القراء على النصب "ولا يأمركم" لأنهم يردونها على "أنْ يؤتيه الله"، فتكون:"*ولا أن يأمركم*". (معاني القرآن، ١/٢٢٤). فكأن الفراء يقول: يسرني أن تفعل فـ (أنْ) أفعل، ولو لم تكن (أن) مكررة أمام الفعل الثاني لما جاز أنْ ينسق على الفعل الأول. ويبدو لنا أن الفراء لا يسعى لتقدير المعنى فحسب، بل إلى تقدير الإعراب كذلك لأنه يبرر النصب بالنسق الذي يقتضي التكرير، وليس في المثال ما يكرر إلا (أن) التي تنصب الفعل الأول. فيكون الثاني منصوباً بـ "أن" المقدرة التي تدل عليها "أن" المظهرة أمام الأول.

٢- ويقول كذلك في المثالين التاليين:

"والله لأضربنّك أو تقرّ لي:"

"وقال الذين كفروا لرسلهم لنُخرجنّكم من أرضنا أو لتعودُنّ في ملتنا" (إبراهيم/١٣):

(*إن معنى "أو" هنا معنى "حتى" أو "إلا"*[26]*، إلا أنها جاءت بحرف نسق؛ فمن العرب من يجعل الشرط متبعا للذي قبله، إن كان في الأول لام كان في الثاني لام، وإن كان الأول منصوباً أو مجزوماً نسقوا عليه، كقوله: "لتعودُنّ". ومن العرب من ينصب بعد "أو" ليؤذن نصبه بالانقطاع عما قبله. وقال الشاعر*[27]*:*

"لتقعُدِنّ مقعد القصيِّ ... منّي ذي القاذورة المقليِّ
أو تحلفي بربك العليِّ ... أنّي أبو ذيالك الصبيِّ

فنصب "تحلفي" لأنه أراد: "أن تحلفيَ") (معاني القرآن، ٢/٧٠).

---

(٢٦) المقصود بالطبع: إلا أنْ.

(٢٧) [في امرأته وقد عاد فوجدها قد ولدت غلاما فأنكره].

وهذا القول للفراء شبيه بقول سيبويه:

"*أعلم أن ما انتصب بعد "أو" فإنه ينتصب على إضمار "أن"* (الكتاب، ٤٦/٣).

ح- إن هذه النتيجة التي وصلنا إليها تضيق شقة الخلاف بين البصريين والكوفيين، أو بين رأسي "المدرستين". ويظهر أن هذين النحويين كانا يصدران عن نظرية واحدة، وأن كثيراً من الخلافات الفرعية التي تداولتها كتب النحاة لم تكن في حقيقة الأمر خلافات بين النحويين الأوائل (٢٨) وإنما نظن أن النحاة الذين افتنوا في التعليل وفي التوليد على مذاهب الأقدمين، ولاسيما نحاة القرن الرابع الهجري، قد أخذوا بظاهر كلام الفراء فوسعوا شقة الخلاف، وأن الآراء الخلافية المنسوبة إلى البصريين والكوفيين تحتاج إلى إعادة النظر فيها.

---

(٢٨) يقول الزجاجي بعد أن ينقل اراء الفراء في بناء قبلُ وبعدُ وحيثُ وقطْ ومنذُ ونحنُ على الضم: "*ولولا كراهية التطويل لبينت ما يلزمه في فصل فصل من هذا، ومن أين أخذه، وكيف ولّده؛ لأنه كلّه مأخوذ من معاني كلام سيبويه*". (شرح مقدمة رسالة أدب الكتاب، ورقة ٦ ظهر).

المصادر والمراجع

١ - المصادر والمراجع العربية:

ابن الأنباري: *الإنصاف في مسائل الخلاف*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د.ت.

ابن جني: *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٧٦/-١٩٥٧م.

: *سر صناعة الإعراب*، تحقيق مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وابراهيم مصطفى وعبدالله أمين، الجزء الأول، البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٧٤/١٩٥٤م

الأستراباذي: *شرح الكافية*، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الجرجاني: *المقتصد في شرح الإيضاح*، تحقيق كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة كتب التراث، رقم ١١٥، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.

الحلواني (محمد خير): *الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف*، دار القلم العربي، حلب، ١٩٧٤.

الزجاجي: *كتاب الجمل في النحو*، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ودار الأمل، إربد، ط١، ١٤٠٤/١٩٨٤م.

: *كتاب اللامات*، تحقيق مازن المبارك، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٨٩/١٩٦٩م.

: *شرح مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة*، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٢٩ش أدب، عنوان المخطوط: تفسير رسالة ابن سعيد في أدب الكتاب.

سيبويه: *الكتاب*، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١-١٩٧٧م.

السيد (عبد الرحمن): *مدرسة البصرة النحويـــة*، دار المعــارف، القــاهرة، ط١، ١٣٨٨/١٩٦٨م.

السيوطي: *الأشباه والنظائر في النحو*، تحقيق عبدالعال ســالم مكـرم، مؤسســة الرسالة، بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

: *همع الهوامع*، تحقيق عبدالسلام هارون وعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ضيف (شوقي): *المدارس النحوية*، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٩.

الفراء: *معاني القرآن*، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوســف نجــاتي، عــالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

العلائي (صلاح الدين خليل بن كيكلدي): *الفصول المفيدة فــي الــواو المزيــدة*، تحقيق حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، ط١، ١٤١٠/١٩٩٠م.

المبرد: *المقتضب*، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عـــالم الكتــب، بــيروت، ١٣٨٢/١٩٦٣م.

مخزومي (مهدي): *مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغـــة والنحــو*، البــابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٧٧/١٩٨٥م.

٢ - المراجع الأجنبية:

M.G. CARTER: Sarf et kilâf, contribution à l'histoire de la grammaire arabe, *Arabica*, XX, 1973, 292-304.

Hassan HAMZE: Unité et diversité dans la tradition grammaticale arabe, *Linguistico Communicatio*, Fès, à paraître

Hassan HAMZE: La coordination à un pronom "conjoint", *Arabica*, XXXVI, 1989, 249-271.

Salam Hamze: *Les unités amorphes libres dans le Kitāb de Sîbawayhi*, thèse de 3e cycle, Université de Provence, 1984

طرفة بن العبد

نحو تصحيح الإطار الزمني لحياة الشعراء الجاهليين *

الدكتور عرسان حسين الراميني
قسم اللغة العربية - جامعة اليرموك

تشير المصادر إلى وفاة طرفة بن العبد البكري عادة في سياق القصة المشهورة الخاصة بما يسمى "صحيفة المتلمس". وتتلخص هذه القصة في أن ملك الحيرة عمرو بن المنذر الثالث بن ماء السماء، المعروف لدى المؤرخين بعمرو بن هند، أرسل مع طرفة والمتلمس كتابين إلى عامله على البحرين يأمره بقتلهما. فكان أن فتح المتلمس كتابه فعلم ما فيه ونجا، بينما لم يفعل ذلك طرفة فانتهى به الأمر إلى القتل وهو شاب في العشرينات من عمره(١).

---

* أشكر الأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن على تلطفه بقراءة مسودة البحث.

(١) ترد القصة في مصادر عديدة. حول أكثر الروايات تفصيلاً، انظر: الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين ت٣٦٥هـ): (كتاب الأغاني)، طبعة دار الثقافة، ج٢٤، صص٥٣٩-٠٠ ، البغدادي (عبد القادر بن عمر ١٠٣٠-١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون،القاهرة ١٩٦٧،ج٢،صص٤١٥- ٤٢٤؛ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء Leiden 1902 صص٨٥-٩١، وانظر أيضاً: الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ت٥١٨)، مجمع الأمثال تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ١٩٨٧، رقم ٢١١٣ (صص ٢٢٤-٢٢٨)؛ أبو البقاء هبة الله الحلي، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، عمان ١٩٨٤، ج١، صص ١٣١-١٤١ (وفيه أن كتاب طرفة كان إلى الربيع بن حوثرة العبدي عامل عمرو بن هند على البحرين، بينما كان كتاب المتلمس إلى المكعبر أحد مرازبة الفرس)؛ المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران ت٣٨٤هـ، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة ١٩٦٠، صص ٥-٦؛ المرتضى (علي بن الحسين الموسوي ت٤٣٦هـ)، غرر الفوائد ودرر القلائد (الأمالي)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤، ج١، صص ١٨٣-٥؛ ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ابن محمد ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-٧٢،ج٦، صص ٢٩-٣.

لقد شك الدارسون المعاصرون في صحة كثير من تفاصيل قصة "صحيفة المتلمس"[٢]، لكنهم في الوقت نفسه قبلوا المعطيات الأساسية السابقة من غير مناقشة. ومن أهم هذه المعطيات الادعاء بأن المسؤول عن مقتل طرفة هو ابن المنذر الثالث، عمرو بن هند، الذي تولى حكم الحيرة ما بين سنتي ٥٥٤ و٥٦٩م. وبناء على ذلك، أجمع الدارسون عموماً على أن طرفة عاش في الفترة الوسيطة من القرن السادس للميلاد، مع اختلافات طفيفة بينهم في تقدير السنة التقريبية لمقتله في تلك الفترة. إن هذا يوضحه الهاشمي حين يقول "غير أن بعض الباحثين المحدثين حاول تحديد سنة ولادته ووفاته بالأرقام. فقد ذهب كل من فون غرونباوم والزركلي إلى أنه عاش بين ٥٣٨-٥٦٤م على وجه التقريب[٣]. وذهب كل من فؤاد أفرام البستاني وحنا الفاخوري إلى أن حياته كانت على وجه التقريب أيضاً بين ٥٤٣-٥٦٩. وقال مصطفى صادق الرافعي في تحديد سنة وفاته "ويقال إن مقتله كان بعد سنة ٥٥٢ بعد الميلاد وقبل سنة ٥٦٤" وهذا ما رجحه الدكتور بدوي طبانة منكراً على الرافعي رقمه الأول. أما جرجي زيدان فذهب إلى أن وفاة طرفة كانت سنة ٥٠٠م، وذهب شيخو إلى أن وفاته سنة ٥٦٤، وانفرد عمر فروخ بتحديد سنة وفاته بنحو ٥٦٠". ويتابع الهاشمي فيقول "ونحن إذا نظرنا في هذه الأرقام.... ترجّح لدينا أن أقربها إلى

---

(٢) لاحظ هذه الشكوك في: علي الجندي، الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد - تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، القاهرة ١٩٨٠، ص١٥؛ وانظر أيضاً حسن جعفر نور الدين، طرفة بن العبد: سيرته وشعره، بيروت ١٩٩٠، ص٣٥. من الطريف أن عمر فروخ يشير في الحاشية، إلى الرواية الشائعة عن مقتل طرفة واصفاً إياها بأنها مصنوعة، بينما في المتن يذكر من غير الإشارة إلى مصدره أن طرفة "قتل مع عمرو بن مامة (أمامة)، أخي عمرو بن هند أثناء رحلة تجارة لهما إلى اليمن" (تاريخ الأدب العربي، بيروت ١٩٨٥، ص١٣٦). إن الرواية السائدة الخاصة برحلته مع عمرو بن أمامة إلى اليمن لا يفهم منها ذلك، ثم إن شعره يدل على أنه عاد من تلك الرحلة سالماً(انظر ديوان طرفة بن العبد تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق١٩٧٥، رقم ٤١).

(٣) يبدو أن الهاشمي أساء اقتباس جرونباوم هنا، إذ في الحقيقة يرى هذا الأخير أن التاريخ التقريبي لولادة طرفة ووفاته هو سنتا ٥٣٥، ٥٦٨م على التوالي Gustave E. von Grunebaum, *Themes in Medieval Arabic Literature*, London 1981 (collected studies), Article iii, p.126.

الصواب في تاريخ ميلاده ما ذهب إليه كل من الزركلي وفون غرونباوم، أي نحو سنة ٥٣٨م. أما سنة مقتله فأرجح أنها كانت نحو سنة ٥٦٧م، وذلك أن طرفة غادر حيه مطوفاً في الآفاق..."(٤).

في مقابل ذلك كله، تحتوي بعض المصادر على روايات تخالف ما استقر في الأذهان من أن طرفة ينتمي إلى عهد عمرو بن المنذر الثالث، لكنها حتى الآن لم تلق اهتماماً كافياً في الدراسات المعاصرة(٥). هذه الروايات تعود بالشاعر، بدلاً من ذلك، إلى فترة آخر الملوك اللخميين، النعمان بن المنذر، الذي حكم الحيرة خلال العقدين الأخيرين من القرن السادس للميلاد (٥٨٠/٥٨٢-٦٠٢/٦٠٤). ففي؛ "نشوة الطرب"، يخبرنا ابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ) أن طرفة "كان ينادم النعمان بن المنذر" وأن هذا الأخير حنق عليه بسبب شعر هجاه

---

(٤) محمد علي الهاشمي، طرفة بن العبد: حياته وشعره، بيروت ١٩٨٠، صص ٣٩-٤٠. بالإضافة إلى الدارسين الذين يذكرهم الهاشمي هنا، انظر أيضا، فيم يتعلق بالرأي التقليدي في طرفة: علي الجندي، طرفة، ص ١٠؛ حسن نور الدين، طرفة، Nicholson R.A., A Literary history of the Arabs, Cambridge, 1962 (first edn. 1906), pp. 107-14 ناصر الدين الأسد، "مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام: هجراتها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية"، دراسات عربية وإسلامية (مهداة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستين)، تحرير وداد القاضي، بيروت ١٩٨١، ص٤٧؛ Abdulla El-Tayibi, "Pre-Islamic Poetry", *The Cambridge history of Arabic literature*, London 1983 pp. 76-8 عبد الله التطاوي، القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة ١٩٨٤، صص ٨١-؛ عمر شرف الدين، الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة، القاهرة ١٩٨٧، صص ٥٥-٦٤؛ عبد العزيز نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٥٢؛ محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الجاهلي: نصوص ودراسة، بيروت ١٩٩١، ص١١٤.

(٥) فقط الهاشمي يذكر رواية الشريف المرتضى المشار إليها لاحقاً (حاشية ٧) ثم يرفضها بشدة على أساس أن "أبا منذر" في هذا الشعر ليس بالضرورة أن يكون النعمان، وأيضا على أساس أن اسم عمرو بن هند يتكرر في شعر لطرفة هو أثبت من الشعر الذي يذكره المرتضى وأنه من الثابت أن عمرو بن هند تولى الحكم قبل النعمان وأن طرفة مات في عهده (طرفة ص٦٤).

فيه "فكتب له وللمتلمس لعامله على البحرين بأن يقتلهما.[٦]" وبعد أن يذكر ابن سعيد هذا الخبر، يشير إلى الرواية القائلة إن الذي أمر بقتل طرفة هو عمرو بن هند "وقد قيل إن عمرو بن هند هو الذي أمر بقتله".

هذه الإشارة إلى الاختلاف فيمن أمر بقتل طرفة وردت قبل ذلك في كتاب "الغرر والدرر" للشريف المرتضى (٤٣٦هج)، وفيه يؤيد الشريف الرأي القائل بأن المسؤول عن قتل طرفة هو النعمان بن المنذر[٧]، وهو بذلك يتفق مع ابن سعيد الأندلسي، الذي يعرض الخبر بطريق نفهم منها أنه يميل هو الآخر إلى هذا الرأي. وتلك الإشارة نفسها نصادفها كذلك في كتاب أقدم هو "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري (ت٣٨٢هج)، لكن من غير ترجيح مباشر لواحدة من الروايتين على الأخرى[٨]. بالإضافة إلى ذلك، يضمن خبر الصحيفة، كما ورد في رواية أبي عبيد،إشارة واضحة إلى أن هذه الحادثة وقعت في عهد النعمان بن المنذر "لما بلغ النعمان بن المنذر لحوق المتلمس بالشام، وكانت غسان قتلت أباه يوم عين أباغ، شق عليه لحوقه بغسان وحلف ألا يدخل العراق ولا يطعم بها

(٦) ابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى بن محمد ت ٦٨٥)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبدالرحمن، عمان ١٩٨٢، صص ٦٢١-٢. من المحتمل جداً أن تكون القصة نفسها مصنوعة لكن فكرة علاقة طرفة ببلاط النعمان هي المهمة هنا.

(٧) "ويقال إن صاحب المتلمس وطرفة في هذه القصة هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفة:

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي ... ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان (ج١، ص ١٨٥). أيضاً يورد الميداني البيت الثاني ويقول في التقديم له ؛ "هذا من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله (مجمع الأمثال، ج١، ص ١٦٤).

(٨) الحسن بن عبدالله بن سهل، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، القاهرة ١٩٦٤، رقم ١٠٨٦.

حتى يموت"[٩]. ومن الجدير بالملاحظة أن أبا العلاء المعري انتبه إلى انقسام الناس إلى فريقين حول من المسؤول عن مقتل طرفة، لكنه لم يحاول تأييد فريق على آخر[١٠]. هذا الرأي الآخر في المصادر، وهو أن طرفة قُتل في عهد النعمان بن المنذر وليس في عهد عمرو بن هند، يوجد عليه دليل مباشر في شعر طرفة نفسه، وإن تجاهلت الدراسات المعاصرة عموماً هذه الحقيقة، ربما على أساس أن شعره الذي يمثل ذلك ليس من مرويات الأصمعي، الإخباري الأكثر احتراساً: ففي قصيدة له رائية يذكر طرفة النعمان حانقاً عليه بسبب مواعيده الكاذبة[١١]؛ وفي قصيدة ضادية تعد من مشاهير شعره، ينتقده بشدة بسبب حرب إبادة يسعرها ضد ضبيعة، عشيرة الشاعر، بالتعاون مع الجماعات الموالية للحيرة بالبحرين[١٢]؛ وأخيراً، يذكره في قصيدة يائية مشيراً مرة أخرى إلى

---

(٩) الأغاني، ثقافة، ج٣، ص٥٤٩. ومع ذلك يقول أبو عبيدة في رواية أخرى مسندة إليه "لما لحق المتلمس بالشام هارباً من عمرو بن هند" (المصدر نفسه، ص ٥٥٤).

(١٠) (رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٣٨) اقتبسها جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٩، ج١، ص٢٤٦) واقتبسها أيضاً الهاشمي (طرفة، ص٦٣)، لكن من غير تعليق.

(١١)

فدعها وانحل النعمان قولاً كنحت الفأس ينجد أو يغور

(ديوان طرفة، قصيدة٣٨، بيت ٥)

(١٢)

ألا أبلغا بكر العراق بن وائل بكأس سقى النصري شاربها رمض
فإن يقتل النعمان قومي فإنما هي الميتة الأولى وتقدمة القبض
فميلوا على النعمان في الحرب ميلة وكعب بن زيد فاشغلوه عن المحض

(السابق، قصيدة ٥٦، أبيات:٣٨-٤٠). لاحظ ما جاء في تحقيق البيت الأول "يقصد "بالنصري" في هذا البيت، و "النعمان" في البيتين ٣٩، ٤٠ الآتيين: عمرو بن هند" (ديوان طرفة بن العبد: تحقيق وتحليل ونقد، القاهرة ١٩٥٨، البيتان: ٦١٦، ٦١٧). وهذا أيضاً ما يقوله عمر شرف الدين دون الإشارة إلى الجندي (المتجردة، ص٥٩، الحاشية).

سياسة التعسف التي يتبعها ضد قومه[١٣]. طبعاً، من ناحية نظرية، تعد رواية الأصمعي للشعر القديم أكثر دقة من غيرها، لكن يبقى تصحيح الشعر الجاهلي أمراً نسبياً عموماً. فالأشعار المروية عن غير طريق الأصمعي وسواه من ثقات المشتغلين بجمع الشعر الجاهلي تظل أشعاراً مقبولة ما لم يقم الدليل على بطلانها سواء كان هذا الدليل من داخل القصيدة أو خارجها. كذلك المرويات التي استقبلها الناس باحترام شديد منذ عصر التدوين حتى الآن، لا يدعي لها أحد مطلق الصحة. ومهما يكن من أمر، فإن قصائد طرفة آنفة الذكر لم توجّه إليها قديماً اتهامات بالزيف، وكذلك لم يشك فيها أحد من محققي شعره، على الرغم من أن هؤلاء لم يحاولوا التوفيق بين الرأي الشائع حول مقتله من ناحية، وبين ذكر النعمان بن المنذر في شعره من ناحية أخرى. فقط درية الخطيب ولطفي الصقال أشارا في معرض شرحهما على أحد الأبيات التي ذكر فيها النعمان إلى أن هذا الأخير هو عمرو بن هند[١٤]، ثم أكدا الشيء نفسه في فهرس الأعلام الملحق بالديوان، وذلك كما يفهم من قولهما "عمرو بن هند= النعمان بن المنذر= النصري= أبو منذر". لكنهما، في المقابل، لم يبينا للقارئ كيف حدث أن عمرو بن هند والنعمان بن المنذر شيء واحد.

طبعاً عمرو بن هند هو الآخر ورد ذكره في شعر طرفة، وبالتحديد في خمس قصائد منسوبة إلى الشاعر، واحدة منها فقط رواها الأصمعي، وهي قصيدة رائية تقع في ثمانية أبيات [١٥]؛ ولكن من الطريف أن مروية الأصمعي

---

(١٣)

خرجنا وداعي الموت فينا يقودنا   وكان لنا النعمان بالسيف حاديا

(السابق، قصيدة ٩١، بيت ٣).

(١٤) انظر حاشية ١٢.

(١٥) وهي القصيدة رقم ٩ في الديوان. أرقام القصائد وأرقام الأبيات الخاصة بالمواطن الأربعة الباقية هي على التوالي: ٢:٣٣، ١:٤١، ٥:٥٠، ١:٦٦.

هذه جاءت في رواية ابن السكيت مكونة من ثلاثة وعشرين بيتاً[١٦]، أي بزيادة خمسة عشر بيتاً تؤلف هي نفسها القصيدة الرائية رقم ٣٨ في طبعة مجمع دمشق، حيث واحد من المواطن الثلاثة التي ذكر فيها النعمان، أي أن عمرو بن هند والنعمان بن المنذر ذكرا معاً في قصيدة واحدة في رواية ابن السكيت؛ وإذا ما صح أن كنية؛ "أبو منذر" في شعر طرفة هي لعمرو بن هند، وهو الحاصل فعلاً كما يبدو[١٧]، فإن القصيدة الضادية رقم ٥٦ في طبعة مجمع دمشق تمثل نموذجاً آخر يظهر فيه ذكر الشخصيتين معاً في موطن واحد. إن ما يمكن استفادته هنا هو أن بعض القدماء لم يجدوا حرجاً في نسبة شعر إلى طرفة يذكر فيه النعمان بن المنذر إلى جانب عمرو بن هند.

إذا كان عمرو بن هند هذا الذي يرد ذكره في شعر طرفة هو نفسه عمرو بن المنذر الثالث كما يعتقد عموماً، فإنه حتماً لا سبيل إلى التوفيق بين الروايتين المتضاربتين أعلاه، وبالتالي ينبغي أن نلقي جانباً كل ما يتعلق بالنعمان في شعر طرفة أو أن نقول مع طبعة مجمع دمشق إن النعمان بن المنذر هو عمرو بن هند وإن عمرو بن هند هو النعمان بن المنذر. لكن المصادر، لحسن الحظ تتيح لنا مخرجاً واسعاً من هذا المأزق. فالخطيب البغدادي (ت١٠٩٣ هج) يروي خبر؛ "الصحيفة" في سياق تعليقه على الشاهد رقم ١٥٢ وفي نهاية الخبر يسجل ملاحظة مهمة فيقول " وعمرو بن هند المذكور هنا هو من ملوك الحيرة، كان عاتياً جباراً ويسمى محرقاً أيضاً،لأنه حرق بني تميم،وقيل بل حرق نخل اليمامة.والنعمان بن المنذرصاحب النابغة أخو عمروبن هند،وسيأتي إن شاء

---

(١٦) انظر (ديوان طرفة)، ص١٥٢، حاشية ٤؛ قارن ما جاء في مقدمة التحقيق عن نسخة قازان (ص:ك).

(١٧) من المستبعد أن تكون هذه الكنية للنعمان بن المنذر، على النقيض مما يرى المرتضى والميداني؛ (انظر حاشية ٧)، إذ من المعروف على نطاق واسع في المصادر أن كنية النعمان هي "أبوقابوس" Rothstein, G. *DieDynasttie der Lahmiden in al-Hira*. Berlin 1899, p 107؛ ابن منظور (جمال الدين أبو الفل محمد بن مكرم ت٧١١)، لسان العرب، مادة: قبس). أضف إلى ذلك أنه في مقابل كنية؛ "أبو قابوس"، التي ترد كثيراً في الشعر الجاهلي في سياق مخاطبة النعمان أو الحديث عنه، فإن كنية "أبو منذر" لم تستعمل لذلك قط، في حدود معرفتي.

الله تعالى نسب عمرو بن المنذر في نسب أخيه النعمان بن المنذر في الشاهد الثالث بعد هذا"[١٨]. وفي تعليقه على هذا الشاهد الثالث، وهو الشاهد رقم ١٥٥، يتتبع البغدادي تعاقب ملوك آل نصر على حكم الحيرة نقلاً عن كتاب العمدة لابن رشيق (ت ٤٦٣هج)، ويقول في معرض ذلك مقتبساً هذا الأخير؛ "ثم عمرو بن المنذر بن المنذر وهو عمرو بن هند ملك بعد المنذر بن المنذر وقبل النعمان بن المنذر صاحب النابغة وهو آخر ملوك لخم"[١٩].

إن ما يذكره البغدادي في هذا الصدد أمكن تتبعه في مصادر أقدم من "العمدة": فالقائمة بأسماء ملوك الحيرة وفق التسلسل الذي يراه ابن رشيق موجودة في معارف ابن قتيبة[٢٠] المتوفى سنة ٢٧٦هج؛ أيضاً يروي المبرد(٢٨٦هج) خبر وفادة على عمرو بن هند قام بها أوس بن حارثة بن لأم وحاتم الطائي، ويعرف المبرد خلال ذلك بعمرو بن هند قائلاً إنه ابن المنذر بن المنذر بن ماء السماء[٢١]؛ كذلك في سياق شرحه على البيت الستين من معلقة الحارث بن حلزة اليشكري، يخبرنا أبو جعفر النحاس "أن عمرو بن هند لما قتل أبوه وجه أخاه

---

(١٨) خزانة الأدب، ج٢ ص ٤٢٥. تعليق المحقق على معلومة البغدادي محاولة غير ضرورية للدفاع عن الرأي التقليدي؛ إن وقوع تصحيف في العبارة هنا أمر يصعب تصوره، أولاً لوضوح السياق، وثانياً لورود هذه المعلومة في أشكال مختلفة في غير موطن في الخزانة (انظر، بالإضافة إلى ما سبق: ج٢، ص٤٥١؛ "عمرو بن المنذر بن المنذر وهو عمرو بن هند"؛ ج٤، ص٤٤٢؛ "عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء"؛ ج٨، ص ٤٩٤؛ ج٩، ص٤٠١؛ ج١١، ص٢٦٩).

(١٩) ج٢، ص٤٥١. نص ابن رشيق يجري كالتالي: ثم المنذر بن المنذر، وهو الأصغر، ثم أخوه عمرو بن المنذر، وهو عمرو بن هند، ويسمى محرقاً لأنه حرق بني تميم، وقيل: بل حرق نخل اليمامة، ثم النعمان بن المنذر صاحب النابغة" (الحسن بن رشيق القيرواني ٤٦٣هج، (العمدة، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٢، ج٢، ص٢٢٩).

(٢٠) تحقيق ثروت عكاشة، القاهر ١٩٦٩، صص ٦٤٥-٩. من جانبه يقدم اليعقوبي رواية شاذة يظهر فيها ابنان للمنذر الثالث، كل منهما اسمه عمرو، والثاني هو صاحب لقب "ابن هند"، وقد خلفا أباهما الواحد بعد الآخر (اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ت بعد٢٩٢هج)، تاريخ، بيروت، ص ٢١٠).

(٢١) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت٢٨٦هج، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، القاهرة، ج١، صص ٢٣١-٢.

النعمان وحشد معه من قدر عليه من أهل مملكته وأمره أن يقاتل بني غسان ومن خالفه من بني تغلب"(٢٢). إن ما يرويه ابن النحاس هنا يتفق، كما هو واضح، مع قائمة ابن قتيبة التي تجعل ملك عمرو بن هند بعد ملك المنذر بن المنذر وقبل ملك النعمان.

على أن أقدم مصدر بين أيدينا نستفيد منه، في الأقل، أن شخصية لخمية تعرف بعمرو بن هند كانت معاصرة للنعمان بن المنذر هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هج. ففي حديثه عن العداوة بين قبيلتي بكر وتغلب، يخبرنا أبو الفرج، بإسناد إلى ابن الكلبي، أن كلاً من هاتين القبيلتين أودعت رهناً لدى ملك الحيرة ضماناً لالتزامهما بشروط الصلح الذي عقده هذا الأخير بينهما فلبثوا كذلك إلى ما شاء الله، ثم يتابع أبو الفرج فيقول (بالإسناد نفسه) "فسرح النعمان بن المنذر ركباً من بني تغلب إلى جبل طيئ في أمر من أموره فنزلوا بالطرفة، وهي لبني شيبان وتيم اللات، فذكروا أنهم أجلوهم عن الماء وحملوهم على المفازة فمات القوم عطشاً. فلما بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وأتوا عمرو بن هند فاستعدوه على بكر وقالوا غدرتم ونقضتم العهد وانتهكتم الحرمة وسفكتم الدماء."(٢٣)

نظرياً، يمكن أن يفسر هذا الخبر، الذي ينقله ابن الكلبي عن أبيه، بطريق تتفق مع رواية أبي جعفر النحاس، التي بدورها تتفق مع تسلسل ملوك الحيرة في قائمة ابن قتيبة، أي أن عمرو بن هند كان ملك الحيرة آنذاك بينما كان النعمان بن المنذر في خدمته، وليس العكس. لكن عملياً، هذا التفسير لا يصح، لأنه ببساطة يتعارض مع رأي ابن الكلبي نفسه في تسلسل ملوك الحيرة. فعمرو بن

---

(٢٢) أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ت٣٣٨هج، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، بغداد ١٩٧٣، ص٥٩٤. والرواية نفسها يوردها التبريزي أبو زكريا يحيى ابن علي بن محمد ٥٠٢هج)، شرح القصائد العشر، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت ١٩٨٠، ص٤٠١.

(٢٣) أغاني (دار الكتب، القاهرة ١٩٢٧-١٩٧٤) ج١١، ص٤٤ (ستكون الإشارة من الآن فصاعداً إلى هذه الطبعة إلا إذا نصّ على غير ذلك).

هند، في روايته، هو عمرو بن المنذر الثالث بن ماء السماء ويضعه مباشرة بعد أبيه المنذر، ثم يضع بعده أخاه قابوساً، ثم أخاه المنذر بن المنذر، ثم ابن هذا الأخير النعمان بن المنذر بن المنذر[٢٤]. طبعاً، لن نخوض في تفاصيل الخلاف الشديد في المصادر حول تسلسل ملوك الحيرة وسني حكم كل منهم، فهذه القضية، وبخاصة بالنسبة إلى المنذر الثالث وخلفائه، قد حسمت منذ فترة طويلة نسبياً، والفضل في ذلك يعود لسدني سميث في مقاله عن أحداث الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد[٢٥]، وقد جاءت نتائجه، وهي مبنية على استشارة مصادر متنوعة، عربية وغير عربية ونقوش، تؤكد الهيكل العام لرواية ابن الكلبي عن ملوك الحيرة.[٢٦]

من الواضح، إذن، أن بعض الإخباريين كان لديهم معلومات تشير إلى وجود أخ للنعمان بن المنذر يقال له عمرو بن هند وإلى أن عمراً هذا كان يتمتع بسلطة كبيرة في الحيرة ويقود الجيوش وينعم بلقب "ملك" تبعاً للعرف السائد آنذاك، وهو استعمال هذا اللقب أيضاً في مخاطبة أبناء الملك الفعلي وإخوته؛ ويبدو أن هذا الوضع دفع أناساً منهم إلى الاعتقاد بأن هذا الأمير اللخمي حكم الحيرة فترة من الزمن، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون موقعه بين ملوك الحيرة إلا بعد أبيه المنذر بن المنذر وقبل أخيه النعمان، فوضعوه هناك في

---

(٢٤) انظر قائمة ابن الكلبي بأسماء ملوك الحيرة وسني حكمهم في جواد علي :المفصل، ج٣، صص ٣٠٦-٨. ومن الجدير ملاحظة أن قائمة ابن الكلبي، خاصة في الجزء الخاص بالمنذر الثالث وخلفائه، تتفق مع قائمتي ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب، (المحبر، تحقيق Lichtestaedter, I. بيروت ١٩٦٢ص ٣٥٨) وحمزة الأصفهاني (أبو عبد الله بن الحسن، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت ، صص ٨٣-٧).

(٢٥) Smith, S., "Events in Arabia in the sixth century A.D. ",*Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 26(1954).

(٢٦) إن هذا التفسير لرواية ابن الكلبي يجد أيضاً ما يؤيده في رواية ينقلها الميداني، تجري كالتالي: كان مخالس بن مزاحم الكلبي وقاصر بن سلمة الجذامي بباب النعمان بن المنذر، وكان بينهما عداوة، فأتى قاصر إلى ابن فرتنى، وهو عمرو بن هند أخو النعمان بن المنذر، وقال...(مجمع الأمثال)، ج١، صص٣٦٩-٧٠). يقتبسها أحمد زكي صفوت (جمهرة خطب العرب، القاهرة ١٩٦٢، ج١، ص٦٥).

قوائمهم؛ لكن هذا الاعتقاد لم يعد له قيمة منذ أن أصبح من الثابت أن النعمان بن المنذر هو الذي خلف أباه على عرش الحيرة. إن عمرو بن هند في رواية ابن الكلبي آنفة الذكر ينبغي إذن أن يكون أميراً لخمياً مكلفاً الإشراف على القبائل وإدارة شؤون الحرب في مملكة الحيرة في عهد أخيه النعمان بن المنذر(٢٧).

هذه النتيجة يمكن تعزيزها بإشارة نادرة يوردها أبو الفرج الأصفهاني في سياق ترجمته للشاعر المنخل اليشكري. ففي حديثه عن سبب قتل المنخل(٢٨) يقول أبو الفرج في رواية مسندة إلى أبي عمرو الشيباني(٢٩)."إن المتجردة- واسمها ماوية، وقيل: هند بنت الأسود بن المنذر الكلبية- كانت عند ابن عم لها يقال له حلم، وهو الأسود بن المنذر بن حارثة الكلبي، وكانت أجمل أهل زمانها. فرآها المنذر بن المنذر الملك اللخمي فعشقها. فجلس ذات يوم على شرابه ومعه حلم وامرأته المتجردة، فقال المنذر لحلم: إنه لا يليق بالرجل أن يقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسه شعرة بيضاء إلا عرفتها، فهل لك أن تطلق امرأتك المتجردة وأطلق امرأتي سلمى قال: نعم. فأخذ كل واحد منهما على صاحبه عهداً. قال فطلق المنذر امرأته سلمى وطلق حلم امرأته المتجردة، فتزوجها المنذر، ولم يطلق لسلمى أن تتزوج حلماً وحجبها، وهي أم ابنه النعمان بن المنذر، فقال النابغة يذكر ذلك:

---

(٢٧) ومع ذلك، انظر، حاشية ٣١.

(٢٨) المنخل يمثل حالة مشابهه لحالة طرفة من حيث اختلاف الإخباريين فيمن قتله أهو عمرو بن هند أم النعمان بن المنذر، والفرق بينهما، بالإضافة إلى دواعي القتل. إن الروايتين المتناقضتين هما، بالنسبة إلى المنخل، على درجة واحدة من الشيوع تقريبا. إن الدارسين المعاصرين يميلون في العادة إلى رفض رواية مقتل المنخل على يد عمرو بن هند، وذلك بسبب شهرة حبه للمتجردة امرأة النعمان (انظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي)، ج١، صص١٦٨-٩؛ أحمد الربعي، المتجردة، بغداد ١٩٧٨، صص ٣٢-٤١،٣٦).

(٢٩) أغاني، ج٢١ (تحقيق العزباوي بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم) صص ١-٢. هذه الرواية مذكورة في أكثر من مصدر، مع اختلافات طفيفة (انظر الربعي، المتجردة)، لكن في رواية أبي البقاء أن قصة حلم/جلم هي مع النعمان وليس مع أبيه، المنذر (المناقب، ج١، ١٤٧ - ٨). لا يذكر الربعي رواية أبي البقاء.

قد خادعوا حلماً عن حـــرة خـــرد   حتى تبطنها الخداع ذو الحلـــم[٣٠]

قال ثم مات المنذر بن المنذر، فتزوجها بعده النعمان بن المنـــذر، ابنـــه.". وهكذا تجعل المصادر من المحتمل أن يكون للمنذر الرابع زوجة اســـمها هنـــد، وبالتالي، أن يكون ابنه عمرو منسوباً لهند تلك[٣١].

حتى الآن لا تعني هذه النتيجة فيما يتعلق بهوية عمرو بن هند سوى أنـــه كان هناك أميران لخميان، كل واحد منهما، كما يفهم الإخباريون، يحمـــل هـــذا الاسم، الأول عمرو بن المنذر الثالث، الذي حكم الحيرة في أواسط القرن السادس للميلاد، والثاني عمرو بن المنذر الرابع، وكان متنفذاً جداً في عهد أخيه النعمان في أواخر ذلك القرن؛ فأي منهما هو صاحب طرفة؟ إذا لم نشأ إثارة شك حـــول صحة الأبيات التي ورد فيها ذكر النعمان في الشعر المنسوب إلى طرفة، فـــإن الإجابة عن هذا السؤال جاهزة على الفور؛ لكن ما دام دارسو حياتـــه ومحققـــو ديوانه قد غضوا الطرف عموماً عن ورود اسم النعمان في شعره، وبذلك عبروا ضمنياً عن شكهم في صحة الأبيات ذات العلاقة، فإنه ينبغي أن نقدم أدلة أخرى تثبت أن عمرو بن هند الذي يذكره طرفة إنما هو عمرو بن المنذر الرابع أخـــو النعمان. هذه الأدلة تتمثل إجمالاً في عدد من الحقائق تشير مجتمعة إلى أن طرفة كان، في الواقع، نشطاً في أواخر القرن السادس للميلاد، وليس في أواسطه، وإذا كان عمرو بن هند هو المسؤول عن قتله فلا بد أن يكون عمرو هذا هـــو ابـــن

---

(٣٠) في ديوان النابغة: وقال النابغة في زوج المتجردة واسمه جلم:

تسفهوا جلماً عـــن طفلـــة رؤد   حتى تقممها الكـــزاز ذو الحلـــم
ما كان من جلم في معصد خلف   مخرب بيت الغنى ومورث العدم

(صنعة ابن السكيت، تحقيق شكري فيصل، دمشق ١٩٦٨، قصيدة ٤٢).

(٣١) طبعا هذا مخالف للاتجاه السائد في المصادر وهو أن هند التي ينسب إليها عمرو بـــن المنذر هي ابنة ملك كندة المشهور الحارث بن عمرو وزوجـــة المنـــذر الثـــالث، لكـــن المصادر هنا ليست مقنعة بتاتا (انظر الخاتمة).

المنذر الرابع[٣٢].

من بين الشخصيات القبلية القليلة إلى يرد ذكرها في شعر طرفة، يبرز عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بوصفه الأكثر حضوراً. فهو يستحوذ على قصيدتين من أصل أربع عشرة قصيدة يرويها الأصمعي لطرفة[٣٣]، وفي هاتين القصيدتين يهجوه الشاعر هجاء مراً ويتهمه بإفشاء سره وبأنه يتنكر لأبناء عمومته، بينما هو سهل في معاملته للأباعد. إنه في ضوء هذه العلاقة المتوترة بين الرجلين يفسر المؤرخون عادة مقتل طرفة، إذ يقولون إن عبد عمرو بن بشر هو الذي أخبر عمرو بن هند بأهاجي طرفة فيه فأوغر صدره عليه وانتهى الأمر إلى الإيعاز بقتله. وفي سياق هذه القصة نفسها يخبرنا المؤرخون أن عبد عمرو بن بشر كان متزوجاً من أخت طرفة، ونفهم منهم أيضاً أنه كان يحظى بمكانة خاصة لدى عمرو بن هند، وأنه بالتالي كان يتمتع بنفوذ واسع في أوساط بني قيس بن ثعلبة، وهذا ما ينص عليه ابن قتيبة حرفياً حين يصف عبد عمرو بن بشر بأنه كان سيد زمانه[٣٤]، وهو أيضاً ما يتضمنه ابن حبيب حين يدرج اسم عبد عمرو بن بشر في قائمة "الأشراف العرجان"[٣٥].

إن الإشارات المتعلقة مباشرة بعبد عمرو بن بشر محدودة للغاية، لكن لحسن الحظ توجد واحدة منها تفصح بوضوح عن الجيل الذي ينتمي إليه. فقد ورد ذكره بوصفه قائداً لإحدى الكتائب التي قاتلت الفرس في ذي قار[٣٦]، أي بعد زمن يسير من إقصاء النعمان بن المنذر عن الحكم في سنة (٦٠٢/٦٠٤م). هذا يعني أن عبد عمرو بن بشر كان من رجال أواخر القرن السادس وأول السابع للميلاد، وهي حقيقة يمكن تعزيزها بأدلة ظرفية تتعلق مباشرة بأقرباء لعبد

---

(٣٢) هذا لا يتعارض مع الرواية الي تسند المسؤولية عن قتل طرفة إلى النعمان بن المنذر(حاشية ٦)؛ إن عمرو بن هند يمثل النعمان.
(٣٣) هما ٤ و ٨ في الديوان.
(٣٤) الشعر والشعراء، ص ٨٩س٣
(٣٥) المحبر، ص٣٠٤.
(٣٦) أغاني ج٢٤ (تحقيق العزباوي ومطر بإشراف محمد أبو الفضل ابراهيم)، ص٦٦.

عمرو، وبالتحديد جده عمرو بن مرثد، وابنه حمران، وجماعة من أبنـــاء عمـــه الأدنين. فجده عمرو بن مرثد كان زعيماً قبلياً مرموقاً في عهد المنذر الثالث، جد النعمان. فقد أسند إليه المنذر، كما نفهم من الأنباري، مهمة جمع الإتاوة من قبائل ربيعة(٣٧). وفي شعر طرفة يرد ذكره بطريقة تدل على سعة النفوذ الـــذي كـــان يتمتع به آنذاك، إذ يقول طرفة في معلقته (وربما كان قد أنشدها في بلاط الحيرة) إن ربه (ويعني به ملك الحيرة على الأرجح) لو شاء جعله في منزلة قيـــس بـــن خالد ذي الجدين أو في منزلة عمرو بن مرثد(٣٨)، وهو هنا يشير إلى منزلة هذين الزعيمين كشيء من الماضي بالطبع(٣٩). هذه المكان لعمرو بن مرثد في بـــلاط الحيرة ينبغي أن تعود في تاريخها إلى الجزء الأخير من عهد المنذر الثالث، بعد أن قضى اللخميون على نفوذ كندة في شرق الجزيرة العربية ووسطها واستقطبوا بالتالي قبائل بكر بن وائل إلى جانبهم، وتم ذلك في الثلاثينات من القرن السادس للميلاد(٤٠). وهكذا إذاً كانت زعامة عمرو بن مرثد قد انتعشت في أواسط القرن السادس ، فطبيعي أن تكون زعامة حفيده عبد عمرو بن بشر بدأت في الظهـــور في أواخر ذلك القرن.

كذلك أخبار حمران، الابن الوحيد المشهور لعبد عمرو بن بشر، تؤكد مـــا

---

(٣٧) الأنباري (محمد بن القاسم ت٣٢٨هج)، شرح المفضليات، تحقيـــق Lyall, C., Oxford 1921 ص٢٢؛س١.

(٣٨)

فلو شاء ربي كنت قيس بن خـــالد ولوشاء ربي كنت عمرو بن مرثد

(الديوان، قصيدة ١، بيت ٨٠).

(٣٩) وذلك في مقابل الخبر الذي يذكر عادة في شرح هذا البيت، وهو أن عمرو بـــن مرثـــد حين سمع قول طرفة استدعاه فأمر أبناءه، وهم سبعة، أن يعطوه عشراً عشراً من الإبل، ثم أمر ثلاثة من أحفاده أن يعطوه كذلك، حى حصل له مائة بعير (انظر السابق). ربمـــا تكون هذه القصة غير صحيحة بالنظر إلى العداوة بين طرفـــة وعائلـــة مرثـــد. أمـــا إن صحت، فإنه ليس دون مغزى أن يكون أبناء عمرو بن مرثد وأحفاده هم الذيـــن أعطـــوا طرفة، وليس عمرو بن مرثد نفسه.

(٤٠) Olinder, G., "The King of Kinda", *Lunds Universitets Årsskrifts* (Nova series, band 23(1927), pp. 90ff.

سبق. فحمران ينتمي، كما هو واضح من تلك الأخبار، إلى جيل البعثة النبوية، أي إلى جيل العقدين الثاني والثالث من القرن السابع للميلاد. إنه هو شخصياً، على الرغم من كونه، كما نفهم من ابن حبيب، واحداً من شيوخ القبائل المتنفذين في شرق الجزيرة العربية(٤١)، ليس له اتصال مع النبي، وهو وضع طبيعي منذ أن كانت عائلة مرثد التي ينتمي إليها هي واحدة من أبرز العائلات المؤيدة للإمبراطورية الفارسية في البحرين؛ وقد تزعمت هذه العائلة ممثلة بشريح بن ضبيعة، الملقب بالحطم، حملة عسكرية واسعة النطاق لإنهاء النفوذ الإسلامي هناك وإعادة المنطقة إلى حظيرة الفرس(٤٢). لكن مع ذلك، تكتسب الإشارات المتعلقة بشيوخ معاصرين لحمران مغزى خاصاً في صدد ما نحن فيه. فحمران له اسم في سجل أيام العرب، إذ يذكره مؤرخو الأيام في ثلاث مواجهات كبيرة كلها حدثت مع تميميين(٤٣)، ويبرز من قادة تميم فيها كل من قيس بن عاصم والأهتم سنان بن سمي وفدكي بن أعبد المنقريون: إن قيس بن عاصم كان من أبرز صحابة النبي (ص) في بني تميم(٤٤)؛ والأهتم لم تكن له صحبة على ما يبدو، لكنه قاتل في يوم الكلاب الثاني(٤٥)، وكان ذلك بعد مبعث النبي

---

(٤١) كان ممن أخذ المرباع في الجاهلية (المحبر، ص ٢٦٣).

(٤٢) انظر الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق de Goeje MJ. and others, Leiden 1879-1901، سلسلة ١، صص ١٩٦٠-١؛ وقارن البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٥٦-٥٧، ص ١٠١س١٧؛ ابن أعثم (أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي ٣١٤هـ)، (الفتوح)، حيدرأباد ١٩٦٨-٧٥، صص٤٥-٧، ٤٨س٩؛ الكلاع البلنسي (أبو الربيع سليمان بن موسى ٦٣٤هج)، تاريخ الردة (مجتزأ من كتابه: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي المصطفى ومغازي الخلفاء)، تحقيق خورشيد أحمد فارق، نيودلهي ١٩٧٠، صص ١٣٥-٦.

(٤٣) وهي أيام جدود، والنباج وثيتل، والزويرين؛ انظر :نقائض جرير والفرزدق، تحقيق Bevan. A.A.. Leiden 1905-7 (الفهارس)؛ ابن الأثير (عز الدين علي أبو الحسن بن محمد ٦٣٠هج)، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥-٧، ج١، صص ٦٠٤-٦.

(٤٤) عينه النبي (ص) على صدقات واحد من التجمعين الرئيسيين داخل بني سعد التميميين، وهو "مقاعس والبطون" (أغاني، ج١٤، ص ٧٦س٢؛ الطبري، سلسلة ١، صص ١٩٠٨-٩).

(٤٥) النقائض، صص ١٤٩-١٥٥.

(ص)[٤٦]؛ أما فدكي بن أعبد فقد ظهر ابنه مسعر ظهوراً واضحاً في أحداث الحرب الأهلية الأولى في الخلافة الإسلامية ولقي مصرعه بعد ذلك في معركة النهروان في سنة ٣٨هج (٦٥٨/٦٥٩)[٤٧]. أيضاً معلوماتنا عن بعض فرسان القبائل العاملين جنباً إلى جنب مع حمران في تلك المواجهات لها دلالتها هي الأخرى. فأشهر هؤلاء الفرسان هو الحارث بن شريك[٤٨]، الملقب بالحوفزان، ووالد الحوفزان هذا، شريك بن عمرو، كان، كما نفهم من ابن الكلبي، قد كلفه النعمان بن المنذر قيادة القوة المنوط بها حفظ الأمن والنظام في مدينة الحيرة[٤٩].

أيضاً ما نملكه من معلومات عن أبناء عم عبد عمرو بن بشر لحًا تشير إلى الاتجاه نفسه. فللشاعر الأعشى ميمون بن قيس، وهو، مثل طرفة وعبد عمرو، ينحدر من ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، هجاء مقذع في أولاد شرحبيل بن عمرو ابن مرثد، وهو يخص بالذكر ضبيعة ووائلاً[٥٠]. طبعاً كان الأعشى من رجال أواخر القرن السادس وأوائل السابع للميلاد، وإذا صح خبر وفادته على النبي بالمدينة[٥١]، فإن حياته تكون قد امتدت إلى نهاية العشرينات من القرن السابع. ومهما يكن من أمر فإن معاصرة أبناء شرحبيل ابن عمرو بن مرثد للأعشى تعني في الوضع الطبيعي أن أبناء بشر بن عمرو بن مرثد، ومنهم عبد

---

(٤٦) كان يوم الصفقة من مقدمات يوم الكلاب الثاني، ويقول ابن الأثير: كان يوم الصفقة وقد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة بعد لم يهاجر (تاريخ، ج١، ص ٦٢١س٢٠).

(٤٧) الطبري، سلسلة ١ (الفهارس).

(٤٨) انظر أخباره في النقائض (الفهارس).

(٤٩) "ولي شرطة المنذر والنعمان من بعده" (أبو منذر هشام بن محمد بن السائب ت٢٠٤هج، جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، بيروت ١٩٨٦، ص ٥١٠ س١٦). اقتبسه Kister, M.J., ("Al-hira: some notes on its relations with Arabia", Arabica xv (1968), p. 159, note 3). وانظر أيضا الميداني، مجمع الأمثال، رقم ٣٦١ (ج١، ص١٢٣س٢).

(٥٠) الديوان، تحقيق محمد محمد حسين، بيروت ١٩٨٣، قصيدة ٤٤.

(٥١) يأتي ذلك في سياق قصيدة منسوبة إليه في مدح النبي عليه السلام (السابق، قصيدة ٧١).

عمرو، كانوا هم أيضاً معاصرين له.

هناك زعيم قبلي آخر يظهر بوضوح في شعر طرفة، ومعلوماتنا عنه- مع أنها قليلة جداً - تشير أيضاً من غير شك إلى انتمائه إلى أواخر القرن السادس وأول السابع من التاريخ الميلادي. إنه قتادة بن مسلمة/سلمة الحنفي الذي يمدحه طرفة بقصيدة يرويها الأصمعي وتنتهي ببيت حاز على إعجاب البلاغيين على مر العصور(٥٢). كان قتادة، بالإضافة إلى نفوذه الواسع في منطقة اليمامة(٥٣)، شاعراً هو الآخر، إذ يسجل له أبو تمام في حماسته قصيدة قصيرة نسبياً يتحدث فيها عن بعض حروبه مع بني تميم (٥٤). هذه القصيدة مهمة في هذا السياق من حيث إنه يذكر فيها. "سراة آل مقاعس" بوصفهم قادة الجماعات التميمية المعادية(٥٥)، إذ إن بني مقاعس كانوا مغمورين تماماً قبل أن يظهر فيهم قيس بن عاصم وفدكي بن أعبد والأهتم(٥٦)، وهؤلاء نشطوا جميعاً، كما مرّ؛ قبل قليل، في العقود الأولى من القرن السابع للميلاد. إن هذا التحديد لهوية "آل مقاعس" في شعر قتادة يتفق مع رواية نادرة مدونة في كل من أمثال الميداني(٥٧) ومعجم

---

(٥٢) فسقى بلادك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

(الديوان، قصيدة ٧). ومناسبتها أن قوم طرفة؛ "أصابهم سنة فأتوا قتادة فأحسن عطيتهم".

(٥٣) يرد اسمه في قائمة الجرارين (ابن حبيب، المحبر، ص٢٥٠).

(٥٤) المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ٤٢١هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت ١٩٩١، قصيدة ٢٥٨.

(٥٥) قاتلتهم حتى تكافأ جمعهم والخيل في سبل الدماء تعوم
إذ تتقي بسراة ال مقاعس حذر الأسنة والسيوف تميم

(٥٦) كانت زعامة بني سعد من قبل في يد بني عوف بن كعب (قارن: ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٨، قصائد:٧، ١٩، ٢٠؛ Kister M.J., "Mecca and Tamim (Aspects of their relations , *Journal of the Economic and social history of the Orient*, viii (1965).PP 154f. Irsan Ramini, *The Tribe of Tamim and the origins of the early crisis in the Caliphate*. Ph.D.thesis, Cambridge Un. 1989, p. 17f.

(٥٧) مجمع الأمثال، ج٤، ص ٤ (اقرأ "قتل فيه قيس بن عاصم قتادة بن سلمة الحنفي").

ياقوت[٥٨] تخبرنا أن قتادة بن مسلمة لقي مصرعه يوم الستار على يد قيس بن عاصم المنقري. ودليل آخر على تعيين الفترة التي نشط فيها قتادة يمكن أن يلتمس في شعر للبيد بن ربيعة العامري يرثي فيه جماعة من بني عامر بن صعصعة قُتلوا، كما يقول ابن منظور، في حرب مع قتادة بن مسلمة الحنفي[٥٩]؛ ومعلوم أن لبيداً كان من شعراء العقود الأولى من القرن السابع للميلاد وقد صحب النبي (ص) وعاش طويلاً بعده[٦٠]. إضافة إلى ما سبق، يرى الإخباريون في معرض حديثهم عن مطاردة ملك الحيرة للحارث بن ظالم المري[٦١] ان هذا الأخير دخل مرة في جوار قتادة بن مسلمة؛ ونفهم منهم أيضاً في معرض حديثهم عن حرب داحس والغبراء أن قتادة بن مسلمة كان من بين الشيوخ الذين استجار بهم بنو عبس حين كان هؤلاء يطوفون بالقبائل بحثاً عن الحماية في أعقاب مقتل حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الهباءة المشهور. إن الإشارة إلى هذه الأحداث تبدو مهمة هنا من حيث إنها جميعاً وقعت في عهد النعمان بن المنذر[٦٢].

بالإضافة إلى عبد عمرو بن بشر وقتادة بن مسلمة، يذكر طرفة بصورة عابرة أسماء زعماء قبليين آخرين معاصرين له كما هو واضح من سياق الشعر؛ وإذا صح تقديرنا بخصوص هويتهم، فإنهم هم الآخرون يكونون قد نشطوا عشية الإسلام. إن أسماءهم ترد في قصيدة نونية لطرفة بقي منها خمسة أبيات فقط[٦٣]،وهي تجري على النحو التالي:

---

(٥٨) معجم البلدان، ج٣، ص٣٨ س١٧-٢٠ (قارن ج٢، ص٨٩س١٠).

(٥٩) لسان العرب، مادة:سنر.

(٦٠) (ديوان لبيد)، تحقيق إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢، ص ١١.

(٦١) أخبار هذه المطاردة يرويها أبو الفرج في إسهاب شديد (أغاني) ج١١، صص٩٤-١٦٣).

(٦٢) أولاً، رواية مقتل الحارث بن ظالم في عهد النعمان هي رواية كل من البصريين والكوفيين (أغاني ج١١، ص١٢٠ س٣)، وثانيا، مقدمات حرب داحس والغبراء نشأت في بلاط النعمان، وفقا لرواية نادرة لكنها صحيحة يذكرها البلاذري (أنساب الأشراف)، ج٢ (مخطوط)، ص١١٢٢ س١٠-؛ وانظر (Ramini, *Origins of crisis*, pp. 19-20).

(٦٣) الديوان، قصيدة ٨٧.

أبلغ سراة بني بكر مغلغة فجدع الله من آذانها اليمنا
عنيت ثعلبة العجلي مألكة عند الحوادث إذ ألّى وإذ غبنا
والمرء قيساً يرى نواحة بعثت تبكي لميت ولا تبكي به شجنا
وهانئاً هانئاً في الحي مومسة ناطت سخابا وناطت فوقه ثكنا
ما دافعوا فيرى فيهم مكانهم ولا سمعنا لها من ذكرها حسنا

لا يحاول محققا ديوان طرفة تحديد هوية "سراة بني بكر" (ثعلبة وقيس وهانىء) المذكورين في هذه الأبيات، سوى أنهما يفسران "ثعلبة العجلي" بقولهما: "ثعلبة العجلي: بنو ثعلبة من أجداد طرفة"(٦٤)؛ وهذا أيضاً ما يقوله على الجندي "ثعلبة العجلي: يقصد بني ثعلبة وهو أحد أجداد طرفة" (٦٥). لكن طرفة ليس من بني عجل، ثم هو لا يومئ، كما يبدو، إلى عشائر، بل إلى أفراد بكر بن وائل. إن تاريخ هذه القبيلة كما وصل إلينا لا يعرف زعيماً مشهوراً باسم ثعلبة إلا ثعلبة بن سيار العجلي، المذكور في موطنين من قصيدة منتخبة من قصائد الشعر الجاهلي منسوبة إلى المفضل النكري، من عبد القيس(٦٦). ويورد ابن دريد أحد هذين الموطنين، ثم يقول معلقاً "يريد ثعلبة بن سيار.... وهو صاحب قبة ذي قار "(٦٧). إذا صح ذلك فمن المرجح جداً أن يكون قيس وهانئ المذكورين هنا في شعر طرفة هما قيس بن مسعود الشيباني، أشهر زعيم بكري على الإطلاق في عصره، وهانئ بن قبيصة الشيباني، ولكليهما-كما هو حال ثعلبة بن سيار- علاقة وثيقة بيوم ذي قار؛ هذا اليوم يعود تاريخه، كما نعرف، إلى ما بعد إقصاء النعمان بن المنذر عن عرش الحيرة في عام ٦٠٢/٦٠٤م.

---

(٦٤) السابق، ص١٩٨ حاشية ٢.

(٦٥) ديوان طرفة، بيت ٧،٩(ص٢٣٢).

(٦٦) الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب ٢١٦هج)، (الأصمعيات)، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، بيروت ١٩٦٣، قصيدة ٩٦، البيتان ١٨، ٣٤.

(٦٧) جمهرة اللغة، حيدرأباد ١٣٤٥هج، ج٣، ص ٥٠٣. ويسميه ابن حزم "ثعلبة بن حنظلة بن سيار" (جمهرة أنساب العرب، ص ٣١٢)، ولعل هذا يفسر تسمية صاحب قبة ذي قار في بعض المصادر بـ "حنظلة بن سيار".

ليس فقط سجل الشخصيات القبلية في شعر طرفة هو الذي يبين أن الشاعر ينتمي إلى أواخر القرن السادس للميلاد، بل أيضاً يتضمن شعره أدلة أخرى على ذلك، وبالتحديد في قصيدتين: الأولى رائية موجهة إلى "عمرو ابن هند"، وفيها تحريض على الأخذ بثأر أمير لخمي يكنى "أبا حسان"[٦٨]؛ والثانية قصيدته الضادية التي يهاجم فيها الحيرة وبعض حلفائها من القبائل[٦٩]. في حديثهم عن مناسبة القصيدة الأولى، يقول شراح شعره إن أبا حسان المذكور فيها هو عمرو بن أمامة، وهو أخ غير شقيق لعمرو بن هند، وإنه كان قد وقع بينه وبين هذا الأخير خلاف على السلطة في الحيرة، بحيث انتهى به الأمر إلى أن ذهب إلى اليمن واستعان بملكها الحميري، فأرسل هذا معه جماعة من مراد عليهم هبيرة بن عبد يغوث، الملقب بالمكشوح. لكن المراديين، كما يقول الشراح، ثاروا به وهم في الطريق إلى العراق وقتلوه في واد يقال له قضيبب من أرض قيس عيلان، فقال طرفة هذه القصيدة يرثيه ويحرض عمرو بن هند على الأخذ بثأره[٧٠]. وكان طرفة حين رافق عمرو بن أمامة في رحلته تلك إلى اليمن، كما تقول القصة، قد أودع ماله عند عمرو بن قيس بن عامر الشيباني، الملقب بالأصم[٧١].

مهما يكن من أمر الاضطراب الظاهر حتى في الخط العريض لقصة مناسبة القصيدة كما هو مبين أعلاه[٧٢]، فإن القصة بشخصياتها المسماة فيها،

---

(٦٨) الديوان، قصيدة ٤١.

(٦٩) الديوان، قصيدة ٥٦.

(٧٠) القصة في أكثر صورها تفصيلاً يرويها الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم ٣٢٨هـ)، شرح القصائد السبع الطوال، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩، ص ص ١١٧-٢١؛ وانظر أيضا: المرزباني، (معجم الشعراء)، ص ١٢؛ ياقوت، معجم البلدان، مادتا: قضيب، مرجح.

(٧١) السابق.

(٧٢) انتهى الحكم الحميري في اليمن في أوائل العشرينات من القرن السادس للميلاد، وحين عاد الحميريون إلى الحكم لفترة قصيرة نسبيا، بعد طرد الأحباش في أواسط السبعينات من ذلك القرن، كانوا يعملون تحت وصاية الفرس، وبالتالي لم يكونوا ليؤيدوا ثورة ضد الحيرة.

وبالتحديد هبيرة بن عبد يغوث المرادي وعمرو بن قيس الشيباني، لا تتفق زمنياً مع فترة عمرو بن المنذر الثالث، بل مع فترة النعمان بن المنذر. فهبيرة المكشوح، الذي تدعي القصة أنه قتل عمرو بن أمامة، يرد ذكره في أخبار يظهر منها أنه كان على صلة وطيدة بيزيد بن عبد المدان الحارثي[٧٣]. ان يزيد هذا، بالإضافة إلى أنه من ممدوحي الأعشى ميمون بن قيس[٧٤]، كان من قادة الجيش اليمني في يوم الكلاب الثاني، الذي وقع في العقد الثاني من القرن السابع للميلاد، وفي بعض الروايات أنه قتل في ذلك اليوم[٧٥]، لكن كتب الصحابة تذكره بين أعضاء وفد نجران إلى النبي (ص)[٧٦]. أيضاً كان المكشوح متزوجاً من أخت لعمرو بن معدي كرب الزبيدي[٧٧]، وهذا الأخير أدرك النبي وشهد فتح الشام والعراق[٧٨]. ودليل آخر على الجيل الذي ينتمي إليه هبيرة هو أن ابنه قيس بن المكشوح، وكان سيداً مرموقاً جداً، نشط في عصر النبي وخلافة الراشدين. فقد كان من زعماء أهل اليمن الذين أعلنوا ولاءهم للنبي ثم ارتدوا، لكنه ثاب إلى الإسلام، وشارك بعد ذلك في عمليات الفتح في كل من العراق والشام، واستقر به المقام في الكوفة، ثم شهد صفين مع علي بن أبي طالب وقُتل في المعركة في سنة ٣٧هج (٦٥٧/٦٥٨م)[٧٩].

---

(٧٣) انظر الأغاني، ج١٢، ص ص ٥- (في بعض المواطن يتغير الاسم إلى "قيس بن المكشوح"، وهو تصحيف كما يبدو أو تداخل في الرواية (قارن ما سيأتي).

(٧٤) الديوان، قصائد:٢٢، ٢٧:٣٢، ٤٧:٣٢، ٤٢.

(٧٥) أغاني، ج١٦، صص ٣٢٩-. وتذكر له المصادر أيضا مجموعة من الأخبار مع معاصرين للنبى (ص)، مثل: دريد بن الصمة، وعامر بن الطفيل، وقيس بن عاصم (المصدر نفسه، ج١٠، صص ٣٥-٩، ج١٢، صص ٩-٠ ، على التوالي).

(٧٦) ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي٨٥٢هـج)، (الإصابة في تمييز الصحابة)، القاهرة ١٩٠٧، ج٦، ص٣٤٥.

(٧٧) خزانة الأدب،ج١٠، ص٢١٠.

(٧٨) انظر أخباره في الأغاني، ج١٥، صص ٢٠٨ .

(٧٩) لمزيد من التفاصيل حول هذه النشاطات، انظر الطبري (الفهارس).

أيضاً تشير الأخبار الخاصة بعمرو بن قيس الشيباني[٨٠]، الذي يقال إن طرفة استودعه ماله، إلى أنه بالفعل كان، كما تتضمن القصة، معاصراً لهبيرة بن عبد يغوث. فهو من جانب، له ذكر في أراجيز الأغلب العجلي (الشاعر المخضرم)[٨١]، ومن جانب آخر، تسجل له روايات أيام العرب نشاطات تعود في تاريخها إلى زمن البعثة النبوية[٨٢]، ومن جانب ثالث، ظهر ابنه مفروق بن عمرو على مسرح الأحداث عشية حركة الفتح الإسلامي[٨٣]، وكان واحداً من الشيوخ البكريين الذين قاوموا نفوذ المدينة في شرق الجزيرة العربية[٨٤].

أما قصيدة طرفة الثانية فهي تحتوي على دليل من نوع مختلف، لكنه لا يقل أهمية عما سبق. فهذه القصيدة، كما مرّ قبل قليل، تتأجج ثورة على الحيرة وعلى الجماعات القبلية المتحالفة معها في هجر، وفي خضم هذه الثورة يحذر طرفة "أهل المشقر والصفا" من انتقام قومه ويسميهم "عبيد أسبذ"[٨٥]:

خذوا حذركم أهل المشقر والصفا   عبيد أسبذ والقرض يجزي من القرض

---

(٨٠) له ترجمة في: المرزباني: معجم الشعراء، ص ٣٨؛ الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر ٣٧٠هج)، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٦١، صص ٥١-٢.

(٨١) انظر: (النقائض) (راجع الفهرس)؛ ابن الأثير: تاريخ، ج١، صص ٦٠٤-٦٠٦ (لاحظ أسماء بعض الشيوخ المذكورين في هذه النشاطات: حمران بن عبد عمرو، والحوفزان بن شريك، والأعشى).

(٨٢) ابن الأثير تاريخ، ج١، ص٦٠٥؛ قارن النقائض، ص٢٤٥.

(٨٣) السابق، ج١، صص ٦١٢-٣ (خبر يوم الإياد).

(٨٤) الطبري، سلسلة ١، ص١٩٧٣.

(٨٥) رواية "بني عمّنا" محاولة واضحة لتغطية ما توهمته بعض الدوائر من أن طرفة يشير إلى عقيدة وثنية (انظر ما سيأتي)؛ على الأقل، "بني عمنا" لا تتفق مع السياق، ويثبت ابن الجواليقي رواية "عبيد أسبذ"، ويشير إلى رواية أخرى هي "عبيد العصا"، لكنه لا يشير إلى "بني عمنا" (موهوب بن أحمد ٥٤٠هج، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، طهران ١٩٦٦، ص٣٩). من جانب آخر، يغفل دريه الخطيب/لطفي الصقال أن يشيرا في التحقيق إلى رواية "عبيد أسبذ"، مع أن الجندي يشير إليها في تحقيقه للبيت.

تختلف المصادر في تفسير كلمة "أسبذ" الواردة في البيت: فرأي يذهب إلى أن أصلها "أسب" ثم زيدت الذال تعريباً، وهي كلمة فارسية معناها الفرس أو البرذون، والمراد هنا قوم من أهل البحرين كانوا يعبدون الخيل؛ ورأي ثان يفيد أن "أسبذ" قرية، ثم ينقسم أصحاب هذا الرأى إلى فريق يقول إنها قرية في البحرين وفريق آخر يجعلها قرية في عُمان(٨٦)؛ ورأى ثالث يمثله أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة ونفهم منه أن "أسبذ" هو اسم لقائد من قواد كسرى على البحرين وأن أفراد المسلحة الفارسية التابعة له، ومقرها المشقر، كانوا يسمون الأسابذ(٨٧). من الواضح أن الرأي الأول في "عبيد أسبذ" يحاول تفسير العبارة تفسيراً معجمياً كما هي في أصل اللغتين الفارسية والعربية، لكنه في الوقت نفسه يفتقر إلى رؤية تاريخية محددة وأيضاً يغفل حقيقة أن طرفة يخاطب هنا العناصر العربية المتحالفة مع الحيرة في البحرين ولا يوجد ما يشير إلى أن هذه العناصر كانت تعبد الخيول أو البراذين. أما الرأي الثاني فإنه لا يقيم وزناً للارتباط في بيت طرفة بين "عبيد أسبذ" من ناحية والمشقر والصفا من ناحية ثانية، وهو ارتباط ظهر مرة أخرى في شعر منسوب إلى مالك بن نويرة اليربوعي (صحابي)(٨٨). إن الرأي الثالث، في المقابل، يبدو معقولاً ومقنعاً تماماً، ثم هو

---

(٨٦) بخصوص الرأيين، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة: أسبذ.

(٨٧) "وأسبذ: قال أبو عبيدة اسم قائد من قواد كسرى على البحرين" (الجواليقي، المعرّب، ص٣٩)؛ "قال أبو عمرو: الأسابذ قوم من الفرس كانوا مسلحة المشقر" (السابق، ص٤٠)؛ أسبذ اسم ملك كان من الفرس ملكه كسرى على البحرين فاستعبدهم وأذلهم، وإنما اسمه في الفارسية أسبيدويه، يريد الأبيض الوجه، فعرّبه طرفة" (ياقوت، ومعجم البلدان، مادة: أسبذ (رواية أبي عمرو الشيباني)).

(٨٨)

أرى كل بكر ثم غير أبيكم — وخالفتمو حجنا من اللؤم حيدرا
أبى أن يريم الدهر وسط بيوتكم — كما لا يريم الأسبذي المشقرا

(ياقوت، معجم البلدان، مادة: أسبذ) على أية حال، لا يتناقض هذا الرأي بالضرورة مع ما يقوله أبو عمرو وأبو عبيدة، إذ ربما أسس هؤلاء الأسابذ فيما بعد قرية سميت باسمهم.

معزّز أيضاً. فبالإضافة إلى أن له تمثيلاً في كل من البصرة والكوفة، فإنه يجد ما يؤيده في حديث مرفوع إلى ابن عباس يفيد أن الأسابذ هم قوم من مجوس البحرين، وأن مندوباً عنهم قدم إلى المدينة للتفاوض مع النبي حول طبيعة العلاقة التي ستربطهم بالمسلمين(٨٩). إن هذا يتفق مع الخط العريض لتاريخ المنطقة آنذاك، فقد انقسم حكام البحرين الفرس بين مؤيد للنبي (ص) ومعارض له، معبرين بذلك عن تأثرهم بحالة نزاع شديد على السلطة عصفت بالبلاط الفارسي في أعقاب اغتيال كسرى أبرويز في سنة ٦٢٨م(٩٠). الآن، إذا كان طرفة يشير في البيت السابق إلى قائد المسلحة الفارسية المرابطة بالمشقر، فلا بد أن يكون قد نظم قصيدته تلك بعد تولي كسرى أبرويز السلطة في فارس في سنة ٥٩١م. ذلك أن أبرويز هذا قبل أن يقصي اللخميين عن الحكم في الحيرة ويضع المدينة تحت رقابة فارسية مباشرة في مطلع القرن السابع للميلاد كان قد اتخذ هذا الإجراء نفسه في المشقر التي كانت حتى ذلك الوقت تحكمها كندة لصالح الفرس(٩١).

إذن، تشير كل الأدلة الممكنة في شعر طرفة بن العبد إلى أن هذا الشاعر ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى عصر النعمان بن المنذر، ومن ثم تؤكد أن عمرو بن هند المذكور في شعره والمسؤول، حسب المصادر، عن مقتله إنما هو عمرو بن المنذر الرابع، وليس عمرو بن المنذر الثالث. بقي أن نقول إن المعلومات المتعلقة بطرفة من خارج شعره تكاد تنحصر في قصة مقتله، وهي قصة يختلف الإخباريون في بعض تفاصيلها، بالإضافة إلى ما يعتريها من عناصر القصص الشعبي. لا توجد بين أيدينا وسائل علمية يمكن بها أن نفحص

---

(٨٩) يقول ابن عباس "جاء رجل من الأسبذيين من أهل البحرين، وهم مجوس أهل هجر، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمكث عنده ثم خرج، فسألته: ما قضى الله ورسوله فيكم؟ قال: شر! قلت: مه؛ قال: الإسلام أو القتل." (البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ت٤٥٨هج)، (السنن الكبرى، حيدر أباد ١٣٤٤ ١٣٥٦هج، ج٩، ص ١٩٠).

(٩٠) Frye, R.N., "The Political history of Iran under the Sasanians", *The Cambridge history of Iran*, Cambridge 1983, 3/1, pp. 170-1.

(٩١) انظر عرسان الراميني، "حلقة مفقودة في تاريخ مملكة كندة" (يتوقع نشره في وقائع المؤتمر العلمي الثاني لجامعة صلاح الدين، أربيل، العراق).

هذه القصة، لكن تجدر الإشارة إلى أنها لا تحتوي على معلومات تتعارض مع نتيجة هذا البحث. في الواقع، تبدو بعض التفاصيل مساعدة تماماً. فالرواة، مثلا، يختلفون في تسمية من يصفونه بأنه عامل عمرو بن هند على البحرين، أي الذي قيل إنه تسلم صحيفة طرفة ونفذ أوامر الملك، وهم يذكرون هنا أسماء ثلاثة من العرب وفارسي واحد هو فروز/فيروز بن جشنس/جشيش، الملقب بالمكعبر. إن المصادر لا تساعد في التعرف على أي من الشخصيات العربية الثلاث[٩٢]، أما المكعبر فقد برز اسمه في بعض الأحداث المهمة في شرق الجزيرة، وهذه الأحداث وقعت في زمن البعثة النبوية، وهي تحديداً يوم الصفقة المشهور[٩٣] وحرب الردة[٩٤]. على أن قصة مقتل طرفة في البحرين ربما تكون برمتها غير صحيحة، على الرغم من أنها تمثل الرأي السائد في المصادر. فابن خلكان يخبرنا في رواية فريدة أن عمرو بن هند بعث طرفة والمتلمس بالصحيفة إلى الحيرة، وليس إلى البحرين[٩٥]. أي أنه بعثهما إلى صاحب سلطة أعلى يقيم بالحيرة، وهو في هذه الحالة ينبغي أن يكون النعمان بن المنذر. وهكذا يبدو أن لدينا أساساً كافياً للاعتقاد بأن قصة نهاية حياة طرفة تعني أن الشاعر لم يمت قبل نهاية القرن السادس للميلاد.

---

(٩٢) فقط المعلّى بن حنش من بين هؤلاء يمكن أن يكون له صلة بالجارود العبدي، الصحابي المشهور. فابن حزم يذكر أن اسم الجارود هو أبو غياث بن حنش بن المعلى (جمهرة أنساب العرب، ص ٢٩٦)؛ ويذكر ابن دريد في (الاشتقاق) (ص٣٠٦) أن اسم الجارود هو بشر بن المعلى ؛ لكنه يذكر في (جمهرة اللغة) (ج٢، ص٨٥) أن اسمه بشر بن عمرو بن المعلى.

(٩٣) الطبري، سلسلة ١، صص ٩٨٤-٨.

(٩٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٠٣. وقد ظهر المكعبر أيضاً في أحداث فتح فارس بعد ذلك ببضع سنوات (الطبري، سلسلة١، ص٢٦٩٩).

(٩٥) ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ٦٨١هج)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-٧٢، ج٦، صص ٩٢-٣.

خاتمة

إن غالبية الشعراء الجاهليين المشهورين يشتركون مع طرفة بن العبد في أن لهم أخباراً مع كل من عمرو بن هند والنعمان بن المنذر، وهي أخبار تؤكدها الأشعار المنسوبة إليهم. على أن الفرق بينه وبينهم هو أن حياته انتهت على يد عمرو بن هند؛ ولما كان الإخباريون قد اعتقدوا أن هذا الأخير هو ابن المنذر الثالث، أصبح من الصعب على الدارسين أن يقتنعوا بصحة الإشارات القليلة الخاصة بصلة طرفة بالنعمان، فرفضوها أو أهملوها تماماً. حتى جامعو شعر طرفة من القدماء أسقطوا لهذا السبب كما يظهر تلك الأشعار التي يذكر فيها طرفة النعمان بن المنذر، مع أن بعضها يبدو حقيقياً جداً، في الأقل لأنه يحوي تفاصيل قبلية بزخم لا نجده في أي موطن آخر في ديوانه. أما الشعراء الآخرون فسجلاتهم تخلو من أية إشارة مباشرة تحول دون قبول ما يروى عن علاقتهم بكلتا الشخصيتين اللخميتين. لذا كان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوضع إلى ظهور تصورات غير دقيقة، ليس فقط على صعيد الارتباط السياسي للشعر الجاهلي، بل أيضاً على صعيد تحديد الأطر الزمنية لحيوات الشعراء ذوي العلاقة؛ لقد دخلت أسماؤهم جميعاً إلى قائمة "المعمَّرين"، أي الذين جاوزت أعمارهم التسعين عاماً. إن هذا، مرة أخرى، مبرر تماماً: فالشاعر الذي استطاع أن يحقق شهرة أدبية واسعة وكذلك نفوذاً قبلياً كبيراً، بحيث يكون في موقع يؤهله للاتصال ببلاط عمرو بن المنذر الثالث في الخمسينات من القرن السادس للميلاد، فمن المتوقع أن يكون قد ولد في أوائل ذلك القرن إن لم يكن قبل ذلك؛ وما دام قد عاصر أيضاً النعمان بن المنذر، الذي انتهت حياته قسراً في بداية القرن السابع، فمن البديهي إذن أن يوصف شاعر من هذا القبيل بأنه من "المعمَّرين"، أو من "الذين طعنوا في السن". فالحارث بن حلزة "كان من المعمرين"، وأيضاً "عمرو بن كلثوم من المعمرين، ولعله أوفى على المئة"، وزهير بن أبي سلمى "عمّر طويلاً"، وعلقمة بن عبدة "عاش حتى عاصر النعمان أبا قابوس وعمّر بعد ذلك طويلاً" وكذلك عنترة "عمّر طويلاً"، والمتلمس "عاش حتى أسن"، وبشر بن أبي خازم قتل "بعد أن أسن كثيراً فيما يبدو"، والنابغة الذبياني "قد

أسن جداً"، وعبد قيس بن خفاف البرجمي "عاش، حتى طعن في السن"(٩٦).

ومع ذلك لم يكن ممكناً، على الأقل من الناحية الفنية، أن نوظف أي واحد من هؤلاء الشعراء كما وظفنا طرفة، في الوصول إلى ما وصلنا إليه، لأنه من السهل على بعض القراء أن يعترضوا قائلين: إن كون نشاطاتهم المدونة تعود عموماً إلى آخر القرن السادس وأوائل السابع للميلاد لا يشكل أساساً كافياً للاعتقاد بأن عمرو بن هند في أشعارهم هو بالضرورة عمرو بن المنذر الرابع، إذ ربما كانوا أيضاً قد عاصروا عمرو بن المنذر الثالث لكن ذاكرة الرواة لم تحتفظ لهم بنشاطات تعود إلى تلك الفترة. في حالة طرفة، في المقابل، لن ينشأ اعتراض من هذا القبيل؛ إذ تتفق المصادر على أنه مات شاباً، ولما كانت كل الأدلة تشير إلى أنه كان ينتمي إلى جيل ما قبل البعثة، فمن غير المعقول أن يكون قد عاصر عمرو بن المنذر الثالث أيضاً.

في الواقع، قد يتساءل المرء عما إذا كان عمرو بن المنذر الثالث قد لقبه الناس بابن هند قط. صحيح أن أمه هي هند بنت ملك كندة المشهور الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، وهذا ما جعل الإخباريين يظنون أنه هو المقصود حيثما ورد اسم "عمرو بن هند" أو "ابن هند" في النقولات التاريخية أو الأدبية في سياقٍ لخمي. لكن بعض القرائن تحمل المرء على الشك حقاً فيما يقال من أنه كان يعزى إلى أمه. فعلى النقيض، مثلاً، من ملك كندة يزيد بن عمرو/ شراحيل، الذي ظهر في نقوش شبه الجزيرة العربية ملقباً بابن كبشة(٩٧)، فإن عمرو بن

(٩٦) هذه الأقوال أو ما في معناها نجدها عادة حيثما جرى الحديث عن حياة هؤلاء الشعراء، لكنها في نصها المقتبس هنا مأخوذة من عمر فروخ (تاريخ الأدب العربي، ج١، ص١٥٢،١٤٢،١٩٥، ٢١٤،٢٠٨،١٥٧،١٦٣،١٧٩،١٩٣على التوالي)؛ وانظر أيضاً ترجمات هؤلاء الشعراء في تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري.

(٩٧) Glasser, E., "Zwie Inschriften über den Dammbruch von Marib" Ein Beitrag zur Geschichte Arabiens im 5. u. 6. Jahrhudert nach Chr *Mitteilungen der* Vorderasiatischen Gesellschaft, ii (1897), p. 390. وقارن Kister, M. J. "The: Campaign of Huluban: a new Light on the expedition of Abraha", Le Musèon *(Revue Dètudes Orientals Tijdschrift Voor Oriëntalisme).* 78 (1965), pp. 434-5. Ramini, *Origins of Crisis, pp. 15-6.*

المنذر الثالث ظهر في هذه النقوش منسوباً إلى أبيه المنذر وليس إلى أمه، هند[٩٨]. أيضاً من المستبعد أن يكون اللقب صادراً عن خصومه، وذلك على سبيل الذم والتحقير. فأمه، هند، كانت سليلة ملوك ونسبته إليها لم تكن من ثم لتحقق أغراضاً من هذا القبيل. حتى في غياب هذا المنطق، فإن علاقة الحيرة بالقبائل العربية في عهده، وبالتالي بالشعراء العرب، كانت وطيدة جداً[٩٩]، بحيث لم يكن يمكن للقب كهذا مقصود به التعريض أن يظهر في الشعر وينتشر. لكن لقب "ابن هند": أولاً، يستعمله الشعراء الجاهليون عادة للتشهير بعمرو بن المنذر، وهم ثانياً يعبرون به عن سخطهم الشديد على الحيرة. إن هذا الوضع يتفق في شقه الأول مع الجانب غير الوقور في قصة هند بنت الأسود الكلبية، الأم المحتملة لعمرو بن المنذر الرابع، ويتفق في شقه الثاني مع حالة الاضطراب الواضح في علاقة القبائل بالحيرة في الجزء الأخير من حكم النعمان بن المنذر.

إن هذا البحث لم يهدف إلى مناقشة "عمرو بن هند" في غير شعر طرفة، لكن صورته في شعره لها الملامح ذاتها في شعر سائر الشعراء الجاهليين، وعلينا أن نعيش هذا الهاجس حتى تظهر دراسة مستقلة تؤكد أن "عمرو بن هند"، حيثما ورد في الشعر الجاهلي، هو عمرو بن المنذر الرابع.

---

(٩٨) ظهر اسم عمرو بن المنذر الثالث في موطنين في النقوش: الأول، في صدر هيكل هند الكبرى، ويخبرنا عنه البكري، ونصه: بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة أم الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح، وأم عبده، وأمة عبده، في زمن ملك الأملاك خسرو أنوشروان.... (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيزت٤٨٧هج، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٦٧--، ص ٦٠٦)؛ والثاني في نقش يمني يسجل حملة حربية قام بها أبرهة في وسط الجزيرة في سنة ٥٥٢/٥٤٧م واصطدم هناك بجيش لخمي يقوده عمرو بن المنذر مندوباً عن أبيه المنذر الثالث (Ryckmans, G., "inscriptions Sud-Arabes", *LeMuséon*, 66 (1935), P. 275. Beeston, A. F.L, "Notes on the Murcighan Inscription", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26 (1954), P. 437.

(٩٩) انظر الفصل المعقود بعنوان "Links with the Lakhmids" في Ramini, *Origins of crisis* pp. 29-60.

ابن عقيل الزُّرَعي
حياته وشعره

الدكتور شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

ترجمته

ضنّت المصادر التي وقف عليها الدّارس بالترجمة لابن عقيل الزُّرَعيّ أو بذكره، ما عدا كتاب (عقود الجمان من شعراء هذا الزّمان) لابن الشّعّار الموصليّ، فقد ورد فيه ترجمة موجزة لهذا الشّاعر. وهو في هذه الترجمة أحمد بن عقيل بن نصر أبو العبّاس الزرعي العامريّ[١]، وزُرَعْ[٢] التي ينْسب إليها قرية على باب دمشق.

ولم ينُصّ ابنُ الشعّار على السّنة التي ولد فيها ابنُ عقيل، غير أنه ذكر أنه توفي شاباً في رمضان سنة ٦٢٣هـ[٣]، وهذا يقود إلى القول إنه ربما ولد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري.

وقد أشار ابن الشعّار إلى اتصال ابن عقيل بالملك الأيوبي المعظم عيسى وملازمته له، وذلك إذ يقول: "خدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وجعل له رزقاً يتناوله كل شهر، وله فيه مدائح كثيرة وكان ملازماً حضرته سفراً وحضراً"[٤].

ولم يظفر الدّارس بمعلومات أخرى عن حياة الشاعر، ومن ثم فإنه سيعول على الشعر الذي قاله لرسم صورة تقريبية للمعالم البارزة في حياته.

ومن الظواهر البارزة التي يُمكنُ استخلاصُها من شعر ابن عقيل نشأته في منطقة حوران، فهو لا يفتأ يذكر الأماكن الحورانية في شعره معبراً عن حنينه

إليها، وكيف أنه قضى الأيام الجميلة من عمره فيها، كما في الأبيات التالية التي يتمنى فيها - وهو في مصر - أن يعود إلى بلاده، ذاكراً مواضع بعينها[٥].

تذكّرْتَ في أرض بُؤسي النّعيم   وبُشْرى البشير بنَيل المُراد
فمرو العلاةِ إلى بيتِ راس   فاربد فالحصن ذات العماد[٦]
بلادٌ تشوقك دون البلادِ   فسقياً ورعياً لها من بلاد

ويُستدّل من شعر ابن عقيل أنه اضطّر إلى مغادرة ديار الشّام إلى مصر واتخاذها دار إقامة ردحاً من الزمن. ويبدو أن علاقة الشاعر بأبيه لم تكن مستقرة، وأن صلاته بأقاربه كان يشوبها بعض الكدر، وأنه لم يلق منهم ما كان يأمل فيه من احترام وتقدير، مما لم يمكنه من استمرار الإقامة بينهم، فآثر الهجرة إلى مصر لعلّه يتجنب مظنة الإساءة إلى أبيه وذويه من ناحية، وينتشل نفسه من غيابات الخمول من ناحية ثانية. وقد عبر ابن عقيل عن عدم رضاه عن موقف قومه منه في غير ما موضع من شعره، من ذلك قصيدة أرسلها من مصر إلى أخيه في بلاد الشام، وهي قصيدة دفاقة بالعاطفة ولا سيما حين يعرض الشاعر لذكر أبنائه الصغار الذين تركهم في بلاد الشام، راجياً أخاه أن يكفلهم ويعنى بهم لأنهم بمنزلة الأيتام في غيابه عنهم[٧]:

يا أخي يا جُبيرُ ناشدتك اللـ   ـه اتّئدْ بالعيال والأطفالِ
واكتفلْ بالذين لم يبلغوا الحلـ   ـم ولم يدركوا حدودَ الرّجالِ
هبك أني قد متَ هلْ لعيالي   في جميع الأنامِ غيرك كالي

وتغمر ابن عقيل مشاعر الأنفة وهو يتحدث عن تألب قومه عليه، وعدم إنزالهم إياه المنزلة التي تليق به:

هلْ رسولٌ عني يبلّغ قومي   من عقيلٍ أولي النّهى والفعالِ
أنني غير قاطنٍ في بلادٍ   لا يُراعى في مثلها أمثالي

لستُ آسى على فراق بلادٍ تلبسُ الهرَّ بزةَ الرئبالِ

ويتحدث الشاعر بأسى عن تبدل أبيه عليه وجفوته لأبنائه:

وأبوك امرؤٌ عليه فراقي هيِّنٌ، وهو لا يودّ عيالي
ألمثلي يكون هجرٌ ويُلقى يا ابن أمي يوماً بوجه مُذالِ

وقد ظل ابن عقيل مدّة إقامته في مصر جواباً على أبواب أولي الأمر من ملوك بني أيوب ووزرائهم وغيرهم من زعماء الصّعيد، متكلّفاً جهامة الغربة، آملاً في أن يكتسب بشعره مكانة عند ممدوحيه. وقد تحقق له شيء من هذا الأمل عندما أدناه الملك المعظم عيسى إليه، غير أن بعض المصريين ربما لم يكونوا راضين عن الشاعر، فاستطار الهجاء بينه وبين بعض شعرائهم، كما سنرى فيما يستقبل من هذه الدراسة، مما جعل بعض أصدقائه يُسدي إليه النصيحة بأن يغادر مصر، ويعود إلى أهله وديارِه، وفي ذلك يقول ابن عقيل(٨):

وقائل خلّ مصراً والثّواء بها فيم المقام ولا أهل ولا ولدُ
وقد تعطلتَ من أشياء، قلتُ له: ما ضرّ عطلة جيد زانه الجيدُ
تالله لا رمتُ عن مصرٍ ولا وخدتْ إلى سواها برحلي عرمسٌ أجدُ

ومع أنّ الأبيات السابقة تصور تشبث ابن عقيل بالإقامة في مصر، فإن مشاعر الحنين كانت تلج به، فيفقد صلابته التي كثيراً ما تظاهر بها، فتجري على لسانه أبيات الشوق، كما في الأبيات التالية التي قالها سنة ٦٠٨هـ(٩):

معاهد لهوي بأرض السّواد سُقيت أفاويق درّ العهادِ
وحيّا ربوعك صوبُ الحيا بغيث يُغاثُ به كلّ صادي
ليالي بها من خيول الصّبا أروضُ إلى اللهو صعب القيادِ

وكــفُ الرَجــاءِ جناهــا المنــــــى ودوحُ الرَضــا مثمـــــرٌ بـــــالودادِ

وليس من اليسير تعيين السنة التي غادر فيها ابن عقيل بلاد الشـــام إلـــى مصر، أو تحديد الفترة التي قضاها في مصر تحديداً دقيقــاً، بيــد أنــه يمكــن الاستئناس بتواريخ بعض القصائد لرسم إطار تقريبي للفترة التي قضاها الشـــاعر في مصر. فأول قصيدة وصلت إلينا، مما قالـــه فـــي مصـــر، مؤرخـــة ســـنة ٦٠٦هـ[١٠]، وقد تلاها عدد من القصائد مؤرخة بالسنوات ٦٠٧ و٦٠٨ و٦٠٩ و٦١٠[١١]. وربما يصح لنا أن نقول اعتماداً على هذه التواريخ لعل الشاعر كان في مصر في الفترة التي تقع بين سنة ٦٠٦هـ وسنة ٦١٠هـ.

ويُستَشف من شعر ابن عقيل أنه تلا هذه الفترة التي استقر فيها في مصـــر فترة من التنقل بين مصر والشام؛ إما ملازماً الملك المعظم عيسى فـــي جهـــاده وأسفاره، وإما منتجعاً ملوك بني أيوب وغيرهم من الأمراء متكسباً بشعره. ولعل هذه الفترة امتدت من سنة ٦١١هـ إلى سنة ٦١٧هـ تقريباً؛ ففي سنة ٦١١هـ أنشد الملك المعظم عيسى قصيدة هنأه فيها بفتح حصن صرخد[١٢]، وفـــي ســـنة ٦١٢هـ بعث من ظاهر بيت جبرين قصيـــدة إلـــى الخليفـــة العباســـي ببغـــداد مادحاً[١٣]، وفي سنة ٦١٣هـ مدح صاحب صفد بعدة قصائد[١٤]، ومـــدح فـــي السنة نفسها متولي الطور، كما هنأه بالعيد سنة ٦١٤هـ[١٥]، وفي سنة ٦١٥هـ مدح أحد الأمراء بظاهر دمياط[١٦]، وفي سنة ٦١٦هـ مدح الملك المعظم فـــي بانياس[١٧]، وفي سنة ٦١٧هـ أرسل من دمياط قصيدة إلى الملك الأشرف شـــاه أرمن يستحثه على الجهاد، ويصف ما أصاب المدينة على أيدي الفرنجة[١٨].

ولم يرد فيما وصل إلينا من شعر ابن عقيل قصائد مؤرخة بسنة ٦١٨هـ، غير أنه يلاحظ له نشاط شعري واسع في سنة ٦١٩هـ، وقد كان هذا النشاط في شمال بلاد الشام والجزيرة[١٩]، ولعل هذا يشير إلى أن الشاعر كـــان فـــي تلـــك الأنحاء سنة ٦١٩هـ.

وليس في شعر ابن عقيل قصائد قالها سنة ٦٢٠هـ، وربما لم تصل إلينا. وفي سنة ٦٢١هـ قال – وهو في الجزيرة – بضعة أبيات يصف فيها مطراً وبرداً(٢٠). وفي سنة ٦٢٢هـ أو ٦٢٣ توفي ابن عقيل بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير (٢١).

والسّياق العامّ لشعر ابن عقيل يدلّ على أنه شاعر جوّال متكسب، وأنه ظن أن الشعر هو مفتاح الرزق، لذلك ظل يوالي التنقل على أبواب أولي الأمر يستجديهم بمدائحه، راجياً أن ينتشلوه من وهدة الفقر والحاجة، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل(٢٢).

يا ناصر الدّين الّذي أمامُه لا يشتكي العافي بها الإقلالا
وافى إليك العامريّ تقوده الـ آمال يا من يُنجحُ الآمالا
أو هلْ يجوزُ لشاعرٍ مثلي يرى لسواك من هذا الورى تسآلا

ويتخذ ابن عقيل التذلل وسيلة للاستشفاع، فيستكثر ذكر حاجته، وحاجة أبنائه الصّغار، وغربته عنهم كما في قوله مخاطباً الخليفة العباسي(٢٣):

من مبلغٌ عنّي وإن بعُد المدى منّي أمير المؤمنين سلامي
فقري وعائلتي يعوقاني معاً من أن أسير إلى المقام السامي

وتولّد لدى الشاعر عن هذا التنقل المصحوب بالسؤال إحساس بعدم الطمأنينة، فبدا في شعره إنساناً قلقاً لا يستشعر لحظة من أمن أو سكينة؛ لذا ألح في شعره على حاجته إلى الملاذ الآمن والممدوح الذي يوفر له حظاً من الاستقرار، كما في قوله وقد استقر به المهاد في ظلال الملك المعظيم عيسى(٢٤):

أرحتُ عيسَ رجائي مذ وقفت بها لدُنْ جنابك منْ أيْن ومنْ تعبِ
هذا مقامُ أمانٍ لا يُخاف به أجِرْ به خائفاً من دهره الأشبِ

ولكن الشاعر لا يلبث أن يقع في صراع مرير بين حاجته وبين اعــتزازه بنفسه وإحساسه بكرامته، فتندّ عنه بعض الأبيات التي تصور معاناتــه النفسـية وهو يقف على أبواب الممدوحين، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل(٢٥):

فصُـنْ بقايـا مـاءِ وجهـي فلقـدْ أرقـتُ منـه بالسُّـؤال مـا كفـى

ويبدو هذا الصراع أكثر وضوحاً عندما يقترن بافتخار الشـاعر بنفسـه، وحديثه عن وحدته، وغربته، وقسوة الدّهر عليه(٢٦):

متـى قـرّبَ الدهـرُ لـيَ واحـداً رمـاني الزّمـانُ بسـهم البعـاد
وذلـك أنّـي أهـولُ الزمـان بمجـدي فمـا يـأتلي فـي عنـادي
علمـتُ بـه واغتـدى جـاهلاً لطـارف مكرمتـي والتـلادِ
فـأفردني يبتغـي شـقوتي وإن نعيمـي فـي الانفـراد
أنيسـي كتـابي فـي وحدتـي وعـزمٌ وعضـبٌ طويـل النّجـاد

لذلك حث الشاعر نفسه على التجمل بالصبر أمـلاً فـي انجـلاء عتمـة الليل(٢٧):

تصـبّرْ إن عُقبـى البـؤس نُعمـى فـأحوال الليـالي تسـتحيلُ
فمـا يجلـو ظـلام الهـمّ إلا ضيـاء العـزم والـرأي الأصيـل

وإذا بحثنا في شعر ابن عقيل عن تصوُّر فلسفة في الحياة أو نظرة شمولية لها فإننا لا نظفر إلا بأبيات حكمية، مستمدة من التجربة تصـور نظـرة غـير راضية عن الحياة والأحياء، على شاكلة قوله(٢٨):

والدّهر إن وهب استردّ وإن شفى أودى وإنْ صان الوجوه أذالا
لا الناسِ تصدقُهم ولا الطمعُ الذي جُبلوا عليه يُنجِحُ الآمالا
والحرّ يهدمه الملامُ كمثلما باللوم يزداد اللئيم ضلالا

وهذه النظرة غير الرّاضية قد تستحيل في سياق آخر دعوة إلى اهتبال الفرص للاستمتاع بملاذّ الحياة، والاستغراق في اللهو لتناسي الهموم(٢٩):

فاشرب وجفنُ الحادثات نائمٌ والعيشُ غضٌّ والزّمانُ غِرُّ
وصِرفِ الهمِّ بصِرفٍ شُربُها به يلذّ العيشُ وهْو مُرُّ

ديوانه:

لابن عقيل الزُّرعيّ ديوان كتبه بخطّ يده، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا كاملاً، وإنما وصلنا مختار منه يقع في تسع وتسعين ورقة. وقد اختاره لنفسه محمد بن محمد بن شرف الزّرعي سنة ٧٤٨هـ، وذكر أنه حذف من الديوان الأصلي نحو ألف وخمسمئة بيت. ويوجد من هذا المختار نسخة خطية واحدة محفوظة في (طوبقبوسراي) بتركيا(٣٠)، وعن هذه النسخة يوجد شريط مصور في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ويضم المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي ثلاثاً وتسعين قصيدة ومقطوعة، غير أن الذي اختار الديوان لم يورد القصائد كلها كاملة وإنما كان يجتزىء من بعضها ما يناسب ذوقه، ومع ذلك فإن هذه القصائد المختارة تدل على المجالات الكبرى لشعر ابن عقيل وتصور سماته الفنية وسأدرس هذه القصائد ضمن إطارين كبيرين هما:

- الأغراض الشعرية.
- السمات الفنية.

أولاً: الأغراض الشعرية:

١- **المدح**: استغرق المدح قدراً كبيراً من الجهود الفنية لابن عقيل الزرعي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن شاعرنا هذا قد لازم حضرة الملك المعظم عيسى وأن له فيه مدائح كثيرة، غير أن ذلك لم يكن ليمنعه من مدح آخرين. وبعد مراجعة المختار من ديوانه تبين أن عدد القصائد التي قالها في الملك المعظم تسع عشرة قصيدة، وكانت بقية مدائحه موزعة على عدد آخر من حكام العصر معظمهم من ملوك بني أيوب، مثل الملك العادل والملك الكامل والملك الأمجد بهرام شاه والملك العزيز عثمان. وبالإضافة إلى هؤلاء مدح ابن عقيل الخليفة العباسي بقصيدة أرسلها إليه سنة ٦١٢هـ، كما مدح عدداً من الوزراء والعمال وزعماء القبائل في مصر والشام.

وقصيدة المدح عند ابن عقيل تترسم خطا قصيدة المدح العربية بتقاليدها المعروفة ولا تكاد تحيد عنها. وكأن الشاعر كان يضع أمام عينيه نموذجاً لمثل أعلى ويورد لممدوحه من الصفات ما يخيل به للسامعين أنه كذلك، آخذاً بعين الاعتبار أمرين اثنين: أن يوائم بين الممدوح والصفات التي تخلع عليه، وأن يبرز صفة أو صفات مميزة في ممدوح دون آخر، فهذا شجاع. وذاك كريم، وذاك عادل... وقد تجمع هذه الصفات في سياق واحد معا مع تحد للواقع. وسأكتفي بعرض نموذج واحد على هذا النهج التقليدي في المدح، وليكن هذا النموذج قصيدة في الملك الكامل، ومطلعها[٣١]:

إن سُلَّ سيفُ الهجر من غمد الجفا   فاذرع الصَّبْرَ الجميل والوفا

تغزل الشاعر فيها بخمسة وعشرين بيتاً، ثم تخلص إلى المدح بثلاثة أبيات، ثم جاء المدح في (٦٧) بيتاً. وقد شكا الشاعر في أبياته الغزلية من صدود حبيبه عنه، وهجره له، وحث نفسه على التجمل بالصبر. ثم يخلص من هذه الشكوى إلى وصف جمال هذا الحبيب، فيطيل في ذلك. ولم أتبين الغاية التي كان

يرمي إليها الشاعر من هذا الغزل، ولا الأجواء النفسية التي أراد أن ينشرها وأغلب الظن أن لا غاية للشاعر إلا إظهار البراعة في وصف المحاسن، لذلك نجده يستطرد ويتفنن في هذا الوصف، كما في قوله:

أقام من أصداغه عقاربا　　تحرسه من لحظنا أن تُقطفا
ما أنكرتْ أجفانه سفكَ دمي　　إلا أتاني خدُّه معترفا
خدٌّ به جمرٌ من الحسْنِ طفا　　من فوقه ماءُ الحيا وما انطفا
كأنَّ في فيهِ لدى ابتسامه　　برقاً أضاء أو جُماناً أُلِّفا
يصلى بنيران الصدودِ منْ ثوى　　عليه في دين الهوى مُعتكفا

وعلى الرّغم من هذه النيران فإن الشاعر سيظل مقيماً على هذا الحب ولن يطلب من دونه منقلباً، تماماً كما سيظل مقيماً في حضرة الملك الكامل ولن يبغي من دونه مصرفاً. وهنا يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح تخلصاً جميلاً، ويغدو في مواجهة ممدوحه، ويأخذ في الثناء عليه، فيختار له من الصفات ما يليق بالملوك، فينوه بعدله، وشدة بأسه، وذكاء قلبه، وقوة دولته، وكرمه الذي لا تداخله منّة ولا يفسده أذى:

ليثٌ من استكفاه في خطبٍ كفى　　غيثٌ إذا شيمَ لجدبٍ وكفى
وردُ الندى من راحتيه بالجدى　　من كدر المنّة والمطلِ صفا
أظهر آياتِ سماحٍ أرّختْ　　بمُعجِزِ المعروف منها صُحفا

ويجنح ابن عقيل إلى المبالغة في تقريظه للملك الكامل، وهي مبالغة مردُّها محاولة الشاعر أن يأتي بالجديد، كما في قوله:

تكادُ من سطْوته الأنجمُ أن تسْقط والأرضون أن ترتجفا
لو أمر النهار والليل بأنْ يتّفقا طول المدى ما اختلفا
والبحر يوماً لم يمُج والنّار لمْ تحرق أو الرّيح أبت أن تعصفا

وحين يتحدّث الشاعر عن زيادة النيل وحضور السلطان بالمقياس تستدعي كلمة (النّيل) الحديث عن نيل الممدوح وكرمه، فيقول:

نيلُك يستعلي على النيل إذا ما النّيل في المدّ تناهى وطفا

والأمر الذي يستوقف القارىء في هذه القصيدة حديث الشاعر عن (حُسْن) الممدوح، وربطه بـ (يوسف) عليه السلام، ولا سيما أن هذا الربط مما شاع في الغزل بالمذكر آنذاك. ولعل هذا يشير إلى تبدل في بعض المثل والقيم.

وإذا أعدنا النظر في القصيدة فإننا نلاحظ أن الشاعر لم يأت فيها بشيء جديد فيما يتعلق ببنائها ومضمونها؛ فالنسيب الذي جاء في مقدمتها تقليدي، والصفات التي خلعها الشاعر على ممدوحه كانت في مجملها مما اعتاد الشعراء ذكره. غير أنه لا بد أن نقرر أن النفس الشعري الذي كان يبثه ابن عقيل في قصيدة مدحية قد يختلف - أحياناً - عنه في قصيدة أخرى، ومن ثم فإن بعض مدائح ابن عقيل وإن تشبث بالشكل التقليدي فإن الشاعر كان يتصرف بأدوات هذا الشكل بحيث ينأى به عن التقليد الذي يلغي شخصيته الفنية من ناحية، ويقطع القصيدة عن مناسبتها من ناحية ثانية. وسأضرب مثلاً واحداً أوضح به ذلك، وهو قصيدته التي قالها يمدح أحد زعماء القبائل العربية في (قوص) ويودعه سنة ٦٠٨هـ، ومطلعها[٣٢]:

اربَعْ وسلْ عن آل سلمى المربعا واجزع فحقٌ لذي الهوى أن يجزعا

وقد تغزل ابن عقيل في مقدمة قصيدته بفتاة بدوية من بني عامر، ومما قاله فيها:

أو بعْد بُعْدِ العامريّة تبتغي صبْراً وتذخرُ للنوائب أدمعا

كــلا وقلبــــك يـــوم ودّع أهلهـــا للجســم مــن شــغف عليهـا ودّعــا

ابن عقيل يمدح زعم قبيلة عربية، وهو يودع هذا الممدوح، ومن ثم أشاع في مقدمة قصيدته أجواء بدوية، فذكر سلمى وربعها، والعامرية ورحلها، وصور جزعه لفراقها، وحزنه لابتعادها. ولعل الشاعر أراد أن يبسط أمام هذا الممـــدوح الذي يسكن البادية أجواء ألفها. كما أن المعاني التي وردت في هذا الغزل (وهي تدور حول الوداع والرحيل والبعد) تنسجم ومناسبة القصيدة، وكأن ابـــن عقيـــل يشير بذلك إلى فراقه لممدوحه، وتوديعه له، وما يستثيره ذلك في قلبه من مواجد وأشواق.

وقد واءم ابن عقيل بين الممدوح والصفات التي خلعها عليه مواءمة دقيقة، فمدحه باعتباره زعيم قبيلة، إذ قرنه بالمثل الأعلى للكرم عند الإنســـان العربـــي (حاتم)، وأثنى على الدور الذي نهض به في تأثيل أمجاد قبيلته ومفاخرها، وشكر له ولقبيلته حسن الضيافة وكرم الوفادة:

أثّلت مجـــد بنـــي الفضيـــل ومجدُهـــم يعلو علـــى النجـــم المحـــلّ الأرفعـــا
طـــالت بمجدهـــم قضاعـــة واغتـــدى روض المنـــاقب فـــي بلـــيّ ممرعـــا
جاورتهم زمن المصيـــــف فلـــم تـــزلْ فـــي نعمـــة حتـــى قضيـــت المربعـــا

أما خاتمة القصيدة فهي شكوى من الأيام التي قضت بـــالرحيل وحكمـــت بالفراق، وعهد من الشاعر أن يظل وفياً لممدوحه، ذاكراً له، دائم الثناء عليه:

إن ترضنـــي الأيّـــام باللقيـــا فقـــد أغضبْتنـــي لمـــا أتيـــتُ مودِّعـــاً
أشكو إلى اللـــه التبـــاعد عنـــك مـــن بعـــد الدنـــو لعلّهـــا أن تنفعـــا
واللـــه لا زال المديـــح مؤبّـــداً منّـــي، ولا كـــان الجميـلُ مضيّعـــا

ولم يُضف ابن عقيل في هذه القصيدة إلى طبيعة الموضوع الشـــعري أي جديد، ولكن الجديد هو تصرف الشاعر بأدوات المدح على نحو كفل له الإجادة، فقد بعث في القصيدة لوناً من الشعور ينبثق من مناسبتها، وقد لون هذا الشـــعور مقدمة القصيدة وموضوعها وخاتمتها.

وترتبط قصيدة المدح عند ابن عقيل الزرعي – كغيره من شعراء عصره – بأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، ومن ثم فإن بعض هـــذه القصـــائد يتنفس في جو ديني، ولا سيما حين يستعير الشـــاعر الألفـــاظ المتعلقـــة بعقيـــدة الطرفين المتصارعين، كما في قوله من قصيدة يذكر هزيمة الإفرنج في دميـــاط سنة ٦١٦هـ(٣٣):

نكَسْتَ صُلباً لهم من بَعْد مـــا رُفعـتْ	إنّ الصليـب بحمـد اللـه مكســـورُ
وقـابل الإفـك والتثليـث إذ كفـــروا	لديـك للحـــقّ تهليـــلٌ وتكبـــيرُ
وما تلا النّصـــر مـن آياتــهِ ســوراً	إلا وذلّـــتْ لديهـــنّ التّصـــاويرُ

وتغدو المعاني الدينيّة أكثر وضوحاً حين يســـتجيش الشـــاعر المشـــاعر الإسلامية، ويحث على الوحدة لمواجهة الخطر الداهم، كما في قولـــه مخاطبـــاً الملك الأشرف شاه أرمن، ويستعجله أن يرسل جيوشه إلى أخيه في مصر(٣٤).

نـــاداك عيســى فاســتجب لدعائـــه	أسْعِفْه أنــتَ اليـوم أفضـلُ مُسْـعِف
فلــو انّــك الدّاعيــه لبّــى مُســـرعاً	بالمشْـــرفيّة والرّمــاحِ الرُّعّـــفِ
دميــاطُ مصــر، ومصــرُ أرمينيّـــةٌ	والخصمُ أنت، وقد حكمــت فــأنصف
كـم مسـجدٍ بــالثغرِ أضحــى بيعــة	يُتلى بهــا الإنجيـلُ بعـدَ المصحـفِ
ومنـــابر أضحــتْ صوامــع مشــرك	باللـــه بعـــد مـــؤذّن متحنّـــفِ
رفعــوا بهــا القـدّاس بعـد تـــلاوةٍ	وتبدّلــت بعـد الخطيـب بأســـقفِ

ويضفي ابن عقيل على قصائده غلالة من الفرح والاستبشار حين ينظـــر

من خلال عزيمة ممدوحه وانتصاراته إلى المستقبل بثقة وأمل، فيرى أن فتح البلاد التي يسيطر عليها الغزاة بات وشيكاً، كما في قوله يخاطب الملك المعظم[٣٥].

فلتفتحن صوراً وعكة عنوة ولتهزمن الكفر وهو رعالُ
ولينظرن بلاد أنطاكية وله على أطلالها أطلالُ
وليحكمن السيف في فرسانها حكماً به المغبون ليس يُقالُ
فانهض لتفتتح البلاد بعزمة حذاء ليس تهولها الأهوالُ

٢- **الغزل:** لم يُفرد ابن عقيل الزرعي فيما وصل إلينا من شعره قصيدة خالصة للغزل، وكل غزلياته التي بين أيدينا جاءت في مقدمات قصائده. وهذا الغزل ليس نسيباً بامرأة معينة، وإنما هو أشواق مبهمة وحنين إلى الجمال العربي، ونفحات وجدانية تقترب من غزل العذريين، كما في الأبيات التالية التي يركز فيها على الحنين بذكر نجد[٣٦]:

أعدْ ذكرَ نجدٍ والمقيمين في نجدِ فلولا هوى نجدٍ صحوتُ من الوجدِ
فإن صبا نجدٍ يهيج صبابتي إذا هاج ريّاها عن البان والرندِ
وليس حنيني للديار وإنما حنيني إلى عيش مضى لي بها رغدِ
سقى اللهُ أيامَ الصبا وعهودها ومعهد هندٍ باللوى صيّبُ العهدِ

ويحاكي ابن عقيل في هذا الغزل طريقة العرب الأوائل محتذياً نهج الديلميّ والشريف الرضيّ، فتحس أنّ نفسه ترفّ بوجدٍ غائمٍ على شاكلة هذا الوجد الّذي تسري فيه روحٌ بدويّة:[٣٧]

شجاهُ في الأيك الحمامُ إذْ شدا فأتهم الشّوقُ به إذْ أنجدا
أذكرني ميّاً وأيّام اللّوى والدّهر لمْ يمددْ إلى البين يدا
أيّام لا أُصغي إلى معنّفٍ ولا أُطيع في الهوى مفنّدا

أذهلني البينُ الّذي ولّهني ... فأوهن القلب وأوهى الجسدا

وحتى يحقق ابن عقيل لشعره ما يريد من سمات بدوية فإنه يعمد إلى وصف ظعائن المحبوبة، وتصوير مشاهد ارتحالها، معبراً عما يمور في صدره من عواطف ومشاعر، وما يشتعل في قلبه من أحزان ومواجد (٣٨)، كما يقف على ديار المحبوبة بعد رحيلها، فيصف ما فعلته بها الأيام، ويعرض لآثارها الباقية دون تفصيل، مسترجعاً ذكرياته الجميلة فيها، وما تستثيره هذه الذكريات في نفسه من أشجان، كما في قوله(٣٩):

عرف الغرام وأنكر الأطلالا ... إذ لم تُجب عند الخطاب سؤالا
لمّا توسّم من سميّة معهداً ... عفت العهادُ محلّه أحوالا
لعبت به أيدي الخطوب وناوحتْ ... فيه الصبّا عند الهبوب شمالا
جرّتْ عليه ذيولها ولطالما ... جرّت به البيضُ الدّمى أذيالا
فتوحّشت بعد الأنيس عراصُه ... والدّهر يعقب بعد حال حالا
كانت محلاً للأحبة قبل ما ... يُقصي التفرّقُ أهلها الحُلاّلا

وإذا ما تمعنا غزل ابن عقيل وجدنا أنه يطيل الحديث فيه عن البعد، والهجر، والفراق، والرّحيل، إلى غير ذلك من المعاني التي تتصل بتغير الأحوال وتبدل الأحبة. ولعل ذلك بتأثير من نزوح الشاعر عن وطنه، وتبدل قومه عليه؛ لذا فإن هذا الغزل يقترن بالحنين والاشتياق والشكوى والدعوى إلى التجمل بالصبر على تقلبات الدهر(٤٠):

لولا التعلّل أنّ الشّمل يجتمع ... لكاد قلبي لوشك البين ينْصدعُ
وكيف يطمع قلبي بالبقاء وفي ... حُكْم الوفا ماله في سلوةٍ طمعُ
جزعتُ للبُعد يوم البين بعدكم ... وآفةُ العاشقين البينُ والجزعُ
أنكى فؤادي هوى أبكى الجفون دماً ... وشاب للهجر فودي والهوى يفعُ

كيفَ الخلاصُ لصبٍّ مِن صبابتهِ أنصارهُ الشوقُ والبلوى لهُ شِيَعُ
طيفُ الكرى خَلَسٌ في مقلتيهِ كما سرورهُ مذ نأى أحبابُهُ لُمَعُ
ما زالَ يسفحُ ذكرُ السفحِ عبرتَهُ ويعتريهِ لذكرى جزعهِ الجزعُ
خفّضْ همومكَ لا المحتومُ منصرفٌ إذا حذرتَ ولا ما فاتَ يرتجعُ

وإذا ما انتقل الشاعر للحديث عن جمال المرأة فإن المحاسن التي تغنى بها لا تخرج عن المقاييس الجمالية التي ذكرها الشعراء السابقون، إذ نراه يترسم خطاهم، ويحاكي أطرهم التي رسموا من خلالها جمال المرأة ومحاسنها، كما في قوله متغزلاً بإحدى الحسان واصفاً امتلاء ردفيها، وحسن شفتيها، وتأود قامتها، وفتك نظراتها، وإشراق وجهها، وسواد شعرها، واتساق أسنانها، وعذوبة ريقها(٤١):

وبمهجتي ريّا الروادف طفلةٌ لعساءُ لمياءُ المراشفِ رودُ
سمراءُ كالسمراءِ، في أجفانها بيضٌ صياقلها العيونُ السُّودُ
صنمٌ من الحسنِ البديعِ جمالُهُ في دينِ متّبعِ الهوى معبودُ
فمن الغزالةِ حسنُها وضياؤها ومن الغزالِ نفارُهُ والجيدُ
فالوجهُ صبحٌ والذوائبُ غيهبٌ والثغرُ درٌّ، والرضابُ برودُ

ولا تكاد الصور التالية التي رسمها ابن عقيل لإحدى الجميلات تختلف عن الصور التي رسمها في الأبيات السابقة إلا في طريقة التعبير(٤٢):

إنْ أسفرتْ حكت الغزالةَ بهجةً أو أتلعت مثلت لديك غزالا
وإذا رنت بعثت إليك لحاظها عن قوسِ حاجبها الأزجّ نبالا
تاهتْ على مَلْدِ الغصونِ بقدّها هيفاً، وأخجلت البدورَ كمالا

وثمة نمط آخر من الغزل في شعر ابن عقيل الزرعي هو الغزل بالمذكر

وأغلب الظن أن هذا الغزل جاء مجاراة لذوق العصر الذي كثر فيه التغزل بالولدان الأتراك، ولعل ذلك يدل على تبدل في الذوق الجمالي في بلاد الشام في تلك الفترة. ومع ذلك فإن الصفات الجمالية التي أوردها ابن عقيل وهو يتغنى بالجمال المذكر لا تكاد تخرج عما هو مألوف في التغزل بالمرأة، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها أحد الغلمان الأتراك، مصوراً رقة جسمه، وحمرة خده، ولين قامته، وحسن وجهه؛ فجمع بذلك كله آيات الجمال المعجزة(٤٣):

وأسمر من بني الأتراك قد تركت صفاته عاشقيه في الورى سمرا
أطعته فعصى، لاطفته فجفا أدنيته فنأى، واصلته هجرا
يكاد من رقة بالفكر تجرحه وبالعيون ترى في جسمه أثرا
الله أظهر آيات الجمال به ومعجز الحسن لا يخفى إذا ظهرا
فالماء والنار في خديه قد جمعا كثغره جمع الياقوت والدررا
إذا تثنى أراني قده غصنا وإن تجلى أراني وجهه قمرا

ولعلّ الأمر الطريف في غزل ابن عقيل بالمذكر أنه كان يشحنه بالدموع والذلّة، مضفياً عليه مسحة عذرية في التعبير والتصوير، كما في الأبيات التالية التي حاكى فيها أساليب العذريين، واستعار تعابيرهم وصورهم شاكياً هجر الحبيب، مصوراً تذلله له، ومعاناته من صدّه، وإخلاصه في حبّه، واصفاً نفسه بأنه "العاشق العذري" و "أنه بعث نبياً للمحبة"(٤٤):

إلام أُعنّى في الهوى وأعنّفُ وحتّام يجفو لي الحبيب وأعطفُ
وأخفي الأسى والدّمع يبدي خفيّه وأنكره والسّقم عنه يعرّفُ
ولا ذنب لي في الحبّ إلا تذلّلي لعزّة محبوب يجور وأنصفُ
عدمتُ اصطباري في هواه فلم أجد سوى الوجد عوناً لي على الحب يسعفُ
أنا العاشق العذريّ عهداً وشيمةً وغيري دعوى العشق عنه تكلّفُ
بُعثتُ نبيّاً للمحبّة داعياً إلى الحبّ عنها من يصدّ ويصدفُ
فمعجز آياتي خضوعي وذلّتي وصبري وأنصاري الأسى والتأسّفُ

يُتيّمني والغــــيُّ رشـدٌ لـذي الهـوى   عـذارٌ موشـــىً، لا بنـــانٌ مطـــرّفُ

٣- الرّثاء:

يبدو أن (الموت) لم يكن من الموضوعات الأثيرة لدى ابن عقيل الزرعي، فلم يرد في المختار من ديوانه إلا قصيدتان من شعر الرّثاء؛ الأولى قالهـــا فـــي رثاء والده، والثانية قالها في رثاء بلاد حوران بعد أن اجتاحهـــا الفرنجـــة ســـنة ٦١٤هـــ. أما القصيدة الأولى فقد استهلها باستشعار روح الحكمة المستمدة مـــن الموت، والتسليم لحكم الله وقضائه النافذ(٤٥):

إن المنـــــون قضاؤهـــــا محتـــــومُ   والمـــوتُ فيمـــا يقتضيـــــه زعيـــــمُ
واللّـــهُ يحكــــمُ بالفنـــــاء لخلْقـــــه   فلـــهُ البقـــــا ولحكمــــه التّســـــليمُ
نهبَ القضا أعمارنـــا بصروفـــه الــــ   ـمُســـتيقظات ودأبُنـــا التّهويـــــمُ

وتغمر الشاعر روح تشاؤمية وهو ينظر إلى ظواهر الحياة التي تخضـــع لقانون التحول والتغير، فيرى أن كل ظاهرة تحمل في حقيقتها ضدها ونقيضها:

فالشّـــهدُ ســـــمٌ، والدنــــوُّ تبــــاعدٌ   والوصْـــل هجْـــرٌ، والنّســـيم ســـمومُ
فســـحابها بالنائبـــــاتِ ســــــجومٌ   وعقابهـــــا بالقارعـــــات تحـــــومُ
ولـــدتْ لتقْتُـــل ولدهــــا بعقوقهــــا   يــا ليتهـــا قبـــل الــــولادِ عقيـــمُ

ويصور الشاعر فجيعته بأبيه، غير أن هذا التصوير لا ينقل لنا لوعة الفقد وعمق التأثر بفراق الأب. ويبدو أن استعجال الشاعر الحديث عن رضى والـــده عنه، ووفادته عليه وهو في مصر، ووفاته في أثناء تلك الوفادة قد صرفه عـــن استخراج مكامن الحزن الخفية، وجعله يستطرد في الحديث عن العلاقة بينه وبين أبيه:

لِلّه رزئي في عقيل إنّه رزءٌ جليلٌ ما علمتُ عظيمُ
وافيت مصر مهاجراً لزيارتي إنْ أخلفت زمن الجدوب غيوم
ورضيت عني بعد سخطك واصلاً منّي عقوقاً شمله مصروم
وصفحت عن ذنبي وإجرامي الذي أسديت، إذ أنا في الظلام أهيم
وقضيت نحبك صائماً متشهداً لتنال أجْر اللّه، وهو عظيم

ويذيّل الشاعر قصيدته بأبيات يسلّي فيها نفسه، فيقف في مواجهة الموت مفتخراً بأنه ابن لهذا الأب، وفرع له، واستمرار لوجوده:

أنا بدرُ ذاك النّجم عند أفوله أنا شبل ذاك الضيغم اللهيمُ
أنا فرْعٌ نبعته التي لنجارها في دوحة المجْد الأثيل صميم

وأما القصيدة الثانية التي قالها ابن عقيل في الرّثاء، فهي كما سبق أن ذكرنا في رثاء بلاد حوران، وأرى أن تُثبت القصيدة كاملة لقيمتها التاريخية والفنية. فهي من الناحية التاريخية تتحدث عن اجتياح صليبي شامل امتد من بلاد حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشام، وهو اجتياح لم تتحدث عنه المصادر على النحو الذي صوره ابن عقيل في القصيدة(٤٦). وهي -أي القصيدة- من الناحية الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرّثاء البلداني الذي قيل في فترة الحروف الصليبية، إذْ إنّ ما وصل إلينا من هذا الشعر كان قليلاً إذا ما قورن بالنكبات الكبرى التي منيت بها البلاد الإسلامية(٤٧). والقصيدة تجري على النحو التالي(٤٨):

جار الزّمان على سكّان حوْرانا لا كان دهرٌ قضى بالجوْر لا كانا
أخْنى وخان وقدْ كان الوفيّ لهمْ لا غرْو للدّهر إن أخْنى وإن خانا
صاح الجلاءُ بهمْ صوتاً فما لبثُوا أنْ جاوبُوه جماعاتٍ(٤٩) ووحدانا
فأصبحتْ دمناً تلْك الرّبوعُ لهمْ وبدّلت بعْدهمْ بوماً وغرْبانا

ظننتُ أنّ قُراهُم بعدما درستْ   أطلالُ ميٍّ وأنّي كنتُ غيلانا
ذهلتُ من أسفٍ حين استقلّ بهم   حادي العبور كأنّي كنتُ سكرانا
واخجلتي بعدهم إن لم أمُتْ كمداً   مُذْ أزمعوا للنّوى رجلاً ورُكبانا
تفرّقوا بالفلا أيدي سبا فثوى   نجعٌ بمصرٍ ونجعٌ حلّ حرّانا
وما استقلّوا إلى أن قلّ صبرهم   وكابدوا المحْلَ في الأوطان أحيانا
إنّ الكريم إذا ما خاف في وطن   ضيماً تبدّل بالأوطان أوطانا
كانوا يجيرون من جور الزمان فقدْ   أضحوا من الجوْر في الأمصار جيرانا
ليس الهوادجُ أحداجاً على إبلٍ   تلك الجنانُ حوتْ حُوراً وولْدانا
الطالعاتُ بدوراً إنْ سفرنَ لنا   والمايساتُ إذا أقبلْن أغصانا
كأنّ أظعانهمْ والآلُ يرفعُها   سفائنٌ أُشْرعتْ أو نخلُ بيْسانا
قالوا الغرابُ دعا في الحيِّ فاحتملوا   وما رأيتُ سوى الأحمال غربانا
لا تندبِ الدّار إنْ أقْوتْ ولا طللاً   ولا أواريّ "أفراس"(٥٠) وأشطانا
وخلِّ ميّةَ والخلصاء يندبُها   غيلانُها وذر "سعدى"(٥١) وحسّانا
وخلِّ رامةَ يبكيها جريرٌ ودعْ   نُصيباً ينتدبُ حيّاً حلّ ودّانا
دعِ المعاهدَ فالأعرابُ أجدرُ أنْ   تبكي النّقا وربى نجدٍ ونعمانا
واندبْ قصور قُرى حوران حين خلتْ   وعُوّضتْ بعد سُكنى الإنس جنّانا
خوتْ عروشٌ بها كانتْ مرفّعةً   مجداً، وجفّتْ غروسٌ كنّ صنْوانا
شلّ الزّمان يد المعروف بعدهمُ   وهدّ من جبل العلياء أركانا
كم بينَ بصرى إلى الرّمثا إلى طفسٍ   من الخراب إلى ما حولَ نجْرانا(٥٢)
ولستُ أنسى حبالاً والسّراة وما   أصاب ماب إلى ما حولَ عمّانا(٥٣)
وبعد هذا أتى ما لا مردّ له   من الفرنج إلى غوريّ بيسانا
أسْراً وقتلاً ونهباً حين أذكرُهُ   يهيجُ تذكارُه للقلب أحْزانا
كمْ قريةٍ كان في أكنافها نفرٌ   يمشون نحْو العُلى شيباً وشُبّانا
شُمّ الأنوفِ سراةٌ سادةٌ نُجبا   في السِّلم والحرْب أجواداً وشُجْعانا
من كلِّ أبلجَ وضّاح الجبين إذا   بلوْتهُ كان مطعاماً ومطعانا
يقول منْ مات منّا كان أسْعدنا   وكلّ منْ عاش منّا كان أشقانا
ما ذاتُ طوقٍ على أيكِ الحمى صدحت   تُرجّعُ النّوْح في الأفنان ألحانا

أقصى الزّمانُ لهـا إلفـاً فهـاج لهـا فراقُـه والنّـوى همّـاً وأشـجانا
كـلا ولا مغْـزِل يرْعـى لهـا رشـأً ببطْنِ وجرة رخْـص الظّلْـف أدْمانـا
لها كِناسٌ من الأرْطـى علـى نشـزٍ في روضـة أنبتَـتْ رنـداً وحوْذانـا
أناخ صـرفُ المنايـا فيـه إذ غفلـت سمعمعاً أهْـرت الشـدقين غرثانـا
فاغتالـهُ وقضـاء اللّـه ليْـس لـهُ ردٌّ، ولا ردّ للمقضـيّ أن حانـا
لهـا بُغـامٌ شـديدٌ حيـن تذكـره إذا رأت عينُها فـي السِّـرب غزلانـا
يوماً بـأوجع منّـي إذْ وقفْـتُ علـى تلـك القـرى وتذكّـرت الـذي كانـا
ترى يعـود إلـى الأوطـانِ سـاكنها فـأنظر الـدّارس الأيـات عُمرانـا
صبْراً علي الدّهر إنْ أبكى العيون وإن أنكى القلـوبَ وإن أخنـى وإن خانـا
لا بُدّ في الدّهر مـن عسـر وميسـرة وأن تـرى فيهمـا سُـوءاً وإحسـانا

والقصيدة، كما هو واضح، تعبير عن الحزن الذاتي لابن عقيل على ما حل بأهل حوران وغيرهم. وقد نوّع الشاعر في أدواته الفنية للتعبير عن هذا الحزن؛ فهو في مستهل القصيدة ينحو منحى التعبير المباشر في تصوير انقلاب الزمـن وظلمه لسكان تلك الديار. ولم يكد الشاعر ينتهي من ذلك حتى ذهب يصور مـا أصاب قرى حوران من خراب ودمار، معبراً عن ذهوله لمشـاهد القـوم وهـم يغادرون ربوعهم، ويجلون عن ديارهم:

صاح الجلاءُ بهم صوتـاً فمـا لبثـوا أن جـاوبوه جماعـات ووحدانـا
فأصبحتْ دمنـاً تلـك الربـوعِ لهـمْ وبدّلـت بعدهـم بومـاً وغرْبانـا
ذهلتُ من أسـف حيـن اسـتقلّ بهـمْ حادي العبـور كـأنّي كنـتُ سـكرانا
تفرّقـوا بـالفلا أيـدي سـباً فثـوى نجـعٌ بمصـرَ، ونجـعٌ حـلّ حرّانـا

ويمضي الشاعر في قصيدته فيصور معاناة المسلمين في الديار، ومكابدتهم العدو والقحط معاً مما دفعهم إلى النزوح عن ديارهم، وهنا يجـد ابـن عقيـل الفرصة مواتية لوصف مشاهد الارتحال، وظعائن النساء المسلمات:

ليس الهوادج أحداجاً على إبل تلك الجنانُ حَوَتْ حوراً ووِلدانا
الطالعاتُ بدوراً إن سفرن لنا والمايسات إذا أقبلن أغصانا
كأنّ أظعانهم والآلُ يرفعها سفائنٌ أُشرعت أو نخل بيسانا

والمتمعن في الأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد أخل بالبناء الفني للقصيدة لأنه استعمل لغة الغزل وهو يتحدث عن المراكب التي تقل النساء المسلمات اللواتي غادرن ديارهن خوفاً من الأعداء. ولعل ابن عقيل كان يضع أمام نظره، وهو يصف النساء الراحلات، مشهد الظعن في القصيدة العربية القديمة، ويستمد منه معانيه وصوره. بل يمكن القول إن النموذج الشعري لبناء القصيدة العربية كان يوجه ابن عقيل، بوعي أو بغير وعي، وهو يبني مرثيته هذه، ومن ثم فإننا نرى الشاعر يستطرد في معرض تصويره أحزانه إلى ذكر الشعراء الذين شُغلوا بهمومهم الذاتية، فوقفوا على الأطلال وندبوا ديار محبوباتهم، وهو مشغول بهموم (الجماعة) وندب (قصور قرى حوران):

لا تندبِ الدّار إن أقوتْ ولا طللاً ولا أواريَّ أفراس وأشطانا
دع المعاهد فالأعرابُ أجدرُ أن تبكي النقا وربى نجد ونعمانا
واندبْ قصور قرى حوران حين خلت وعوضت بعْد سكنى الإنس جنّانا

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي يذكر أسماء العديد من المواضع الشامية في حوران وغيرها بلغة سردية تقريرية، فبدت أبياته لمحاكاتها الواقع وكأنها فقرة من كتاب تاريخ:

كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس من الخراب إلى ما حولْ نجْرانا
ولست أنسى حِبالاً والسّراة وما أصاب ماب إلى ما حولْ عمّانا
وبعد هذا أتى مالا مردّ له من الفرنج إلى غوريْ بيسانا
أسراً وقتلاً ونهباً حين أذكره يهيج تذكاره للقلب أحزانا

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في تصوير أحزانه هذه فيقرنها بنوح حمامة أقصى الزّمانُ إلفها، وبغام غزالة افترس وحش رشأها.

وهكذا، فقد كان هم ابن عقيل - وهو يعبر عن أحزانه تصوير الدمار الذي أصاب منطقة حوران وغيرها من البلاد المجاورة لها، وما ترتب على ذلك من هجرات جماعية لسكان تلك الديار. وقد كان من المتوقع أن يصعد ابن عقيل نغمة الخطاب، ويحث المسلمين على الجهاد ليوازن بهذا التصعيد حالة الانكسار والهبوط التي استعلنت في فاتحة القصيدة وفي أجزائها الأخرى، ولكنه لم يفعل وآثر أسلوباً آخر هو تمنّي عودة المهجرين إلى ديارهم، والدعوة إلى التجمل بالصبر على نوائب الأيام:

ترى يعودُ إلى الأوطانِ ساكنُها فأنظر الدّارس الآيات عمرانا
صبراً على الدّهر إنْ أبكى العيون وإن أنكى القلوب وإن أخنى وإنْ خانا

٤- الهجاء:

من الموضوعات التي طرقها ابن عقيل في شعره الهجاء. وجلُّ شعر الهجاء الذي تضمنه المختار من ديوانه كان مما قاله وهو في مصر، ولعل ذلك يشير إلى أن بعض الشعراء المصريين لم يرتاحوا إلى إقامته بينهم. ويبدو أن مساجلات هجائية قد دارت بينه وبين أحد الشعراء النحاة في مصر، فانبرى له الشاعر الزرعي يسفه عقله وشعره(٥٤):

يا أديباً في الرّأي غير حصيف وسخيفاً أتى بشعر سخيف
جاءنا شعرك الثقيلُ المعاني بارداً نظمُه بوزن خفيف
ما انتقدنا ما قلت إلا وجدنا ه على نقده كثير الزّيوف
فلهذا كلامُك الفاسدُ الصّيـ ـغة ملغى لعلة التّصريف

وكان من الممكن أن تُفهم الأبيات السابقة على أنها مماحكة شاعر، لولا أبيات أخرى قالها ابن عقيل في المهجو نفسه اتهمه فيها في غيرته على محارمه، وقذف عرضه، وصور النقائص ممثلة فيه وفي نساء بيته(٥٥).

وممن هجاهم ابن عقيل محمد الواسطي، وكان هذا تعرض له، فتصدى له الزرعي بقصيدة أفحش فيها، إذ حشد كثيراً من الصفات المزرية التي تحط من رجولة المهجو، وتطامن من كرامته، مستعملاً ألفاظاً فاحشة، وصوراً فاضحة تصور انحرافه وانحراف زوجه، أجتزئ منها ما يصلح إثباته(٥٦):

قالوا الرَّقيع الرَّاوية   قد انتحى هجائيهْ
قلتُ لقد هاج عليـ   ـه من هجائي داهيهْ
الأسدُ لا يضرهُا   نبْحُ الكلاب العاويهْ
كم شاعرٍ نافرني   قبلك يا ابن الزانيهْ
تركتُ أمّ رأسه   عند النصال هاويه

والقصيدة طويلة استعار فيها ابن عقيل كثيراً من الألفاظ والتراكيب القرآنية بعد أن يحرفها عن مواضعها ليضفي سمة الطرافة على هجائه (أعجاز نخل خاوية، قطوفها دانية، نار حامية، عين جارية...). كما تأثر ابن عقيل في هذه القصيدة أبياتاً في الهجاء قالها دعبل الخزاعي(٥٧).

ويتعرض ابن عقيل لأحد القضاة في قوص، فيهجوه في غير ما مقطوعة هجاءً لاذعاً، فيتناول عرضه وشرفه بعبارات صريحة، ويسخر من خلقته، وينزع عنه وعن قومه لباس الشرف والكرامة، وينسب إليهم صفات الخزي والعار، كما في قوله(٥٨):

لأبي محمّد بن كامل غايةٌ   في اللؤم عنها العالمون تنكّبُ

قــردٌ إذا اســتقبلت صــورة وجهــه وإذا تولّــى فهــو ثـــور أنصـــب
مــن نسْــل قــوم لا يُنــالُ نوالهــم حتّــى (....) نســاؤهم أو يُثلبــوا
بيــع النّبيــذ لباســـهم ومعاشــهم فيــه يحصّــل أكلهــم والمشـــرب
كــم قــد رأيــتُ بدارهــم مقتولـــةً قتلــوا وقــالوا أهلكتهــا العقـــرب

ويهجو ابن عقيل خطيب أسوان، فيصور نفور الناس منـــه، وازورارهـم عنه، وعدم رغبتهم في الاستماع إليه، دون أن يفوته -كعادته- أن يذّم أخلاقـه ويقرض عرضه، على شاكلة قوله(٥٩):

إنّ عيسى خطيــب أسـوان أضحــى ضدّ عيسى المسيح فـــي المعجــزات
ذاك بعد الممات يُحيـــي وهــذا الـــ (....) فيــه يمــوت بعــد الحيــاة
قــدره لا يــزال فــي درك والـــ ـــقرنُ منـــه أرفـــع الدّرجـــات

وجملة القول في هجاء ابن عقيل أنّه هجــاء مؤسـس علــى الإفحــاش والإقذاع، مما أبعده عن حقيقة هذا الفن الذي يقوم على طائفة من الأصول الفنية.

أغراض أخرى: ومن الأغراض التي طرقها ابن عقيل في شعره وصــف مجالس اللهو والشراب. ولعل وفادة هذا الشاعر على بعض الملــوك والأمــراء ومخالطته لهم قد أتاحت له الإلمام بمجالس اللهو التــي كــانوا يعقدونهـا؛ فقـد استقضاه الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٦١٩هـ أبياتاً يصف فيهـا مجلس اللهو الذي أقامه، وما قدّم فيه من صنوف المتع(٦٠). وفي السنة نفسها قال الشاعر أبياتاً وصف فيها الاحتفالات التي أقيمت يوم النوروز، وذكر أنه أخذ فيها بنصيب وافر من اللهو، وأنه قضى ذلك اليوم في أحضـــان الطبيعـة الجميلـة مستمتعاً بسماع الأغاني والألحان العذبـــة، ومســتغرقاً فــي شــرب الخمــرة المعتقة(٦١):

للّــه صُبْحــةُ نــوروز أخــذتُ بهــا أوفى نصيب ســرور فــي نصيبيــن

ما جنّةُ الخلــد إلا دون مــا اشــتملتْ علـى الفواكــه فيهــا والريّـــاحينِ
للــه أوتــارُهن الخــرسِ ناطقـــة لنــا بأحســـن إيقـــاع وتلحيـــنِ
وصلتُ فيها غبوقي بـالصبوحِ علـى شدو القيــان ومزمــار ابــن صفّيــنِ

ويتماجن ابن عقيل حين يصور في أبيات أخرى شغفه بحضور مجـالس اللهو وتهالكه عليها، واصفاً ما في تلك المجالس من قصف وعزف(٦٢):

قسـماً بـالكواعب الأبكـــار وعزيــف القيـــان للسـمّارِ
واغتبـاق المـدام والليـــل داجٍ واصطبـاح الندمـان بالأسـمارِ
واصطحاب المزمـار والـدفّ وهنـا واصطخـاب العيـدان والأوتـارِ
وبـدور السّقاة تعطـي الندامــى مثل زُهـر النجـوم شـمس العقـارِ
لا أبيـع الصبـا ولا اللهـو والغـ ـي بنسـكٍ وعصمـةٍ ووقـارِ

غير أنّ الشاعر في وصفه لمجالس الشراب يقف عند حدود المنظر الخارجي ولا يصور ما تحدثه الخمر في النفس من سورة ونشوة وطرب، ويكتفي بتصويرها وهي تُجلى بالكؤوس، متحدثاً عن قدمهـا، واهتمـام أربـاب الديانات بها. وهو في ذلك كله يستعير صور أبي نواس وتعابيره، كما في قولـه مخاطباً نديمه أن يسقيه(٦٣):

يا نديمي أدرْ علـى الشّرب راحـاً شـربها فيـه راحـة الأسـرارِ
جندريـاً تجلـو ظـلام الديّـاجي حيـن تُجلـى بسـاطع الأنـوارِ
تعـتزي نسـبةً إلـى صيدنايـا أو صريفيـن يـا لـه مـن نجـارِ
كنهها لا يُحـدّ حسّـاً وحدسـاً جـلّ مـن دقـة عـن الأفكـارِ
عظّمتهـا المجـوسُ لمّـا رأتهـا وهـي مـاءٌ كالنّـار فـي الاستعارِ
وهي عند القـدّاس بيـن النّصـارى وزرٌ مـانعٌ مـن الأوزارِ
حرمـتْ فـي كتابنـا وأحلّـتْ فـي كتـاب القسـوس والأحبـارِ

وتبدو الرّوح النواسيّة أكثر وضوحاً في الأبيات التالية التي يستعير فيها بعض الصور والتعابير القرآنية في سياق دعوته إلى الانغماس في اللهو والاستغراق في المتعة، معبّراً عن كلفه بالخمر وولعه باحتسائها، واصفاً صفاءها وكؤوسها وقدمها، مضفياً عليها هالة من القداسة، وهو في ذلك كلّه -كأبي نواس- يفتح باب الرجاء، يأمل بعفو الله ورحمته(٦٤):

أدرِ الكأس بكرةً وأصيلا وأطعْ منْ هويْت واعْصِ العذولا
واجْعل اللهو والخلاعة ديناً وتبتّل إليهما تبتيلا
واتخذ من تُحبَ إنْ كنتَ في دِين الهوى صادقاً عليك وكيلا
واجْلُ منْها على النّدامى عرُوساً ليس ترْضى إلا الكرام بعولا
في إناء كأنّه جسمُ ماء فيه روحٌ تخالها سلسبيلا
نورها يجعل الظّلام نهاراً نارُها بالمزاح تُطفي الغليلا
عاصرتْ آدماً ونوحاً وإبراهيم والأنبياء جيلاً فجيلا
اسْقنيها فقد رأيتُ بعيني عند بعث الأجساد يوماً طويلا
أنا لولا حُسْنُ الرّجاء توقّعتُ عذاباً يوم المعادِ وبيلا

وقد تأثر ابن عقيل الزرعي بالشعراء العلماء الذين نظموا قواعد العلوم شعراً، فعمل على محاكاتهم وتقليدهم. فقد تضمن ديوانه قصيدة تبلغ مئة بيت تشتمل على كثير من حوشي اللغة، ويبدو أن هدفه من نظمها كان إبراز معرفته بالغريب من ناحية، وإظهار قدرته على صياغة قواعد العلم شعراً من ناحية ثانية، ومن ثم استهلّها بقوله(٦٥):

أيا من عنده الفهمُ إذا ما ذُكر العلمُ
لئن بيّنتَ ما قد قلتُ في شعري لك الحكمُ
لديَ القولُ والفعل وعندي النّثرُ والنّظمُ

أحــــلّ المشــــكلَ الصّعْـــــ ـــــب إذا مـــا عجـــز الفـــدمُ

ثم يـأخذ الشاعر في طرح الأسئلة المنظومة على شـــخص قـد يكـون وهمياً، سائلاً إياه أن يشرح الكلمات الصعبة التي ترد فيها.

ثانياً: السّمات الفنية:

١- بناء القصيدة:

تقوم القصيدة العربية في الموروث الشعري على طائفة من التقاليد الفنية، وقد أدت هذه التقاليد إلى تعدد الموضوعات التي كان يطرقها الشاعر القديم فـي قصيدته، ومن ثم فهم النقاد القدماء الوحدة في القصيدة على أنها وحدة تقوم على التكثر[٦٦]. وفي إطار هذا الفهم التقليدي لبناء القصيدة تحدث النقاد عمـا سـموه (براعة الاستهلال) و (المخلص) و (الخاتمة)، إذ "الشاعر الحاذق من يجتهد فـي تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، لأنها المواقـف التـي تسـتعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء"[٦٧].

وقد أخذ ابن عقيل بهذه التقاليد الفنية في كثير من قصائده، إذ كانت تتألف من مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة، ويكفي أن تأخذ أي قصيدة لـترى هـذا التكثر في الموضوعات. من ذلك قصيدته التي مطلعها[٦٨]:

أسْرفْتَ في عذْلِ صبِّ القلب مكتئـــب   شفاؤه في اللمى المعســـول والشَّـنب

وهي تقع في ٧٧ بيتاً؛ تغزّل في ١٩ بيتاً، ووصف الخمر ومجلسـها فـي ١٨ بيتاً، وتخلص إلى المدح في بيت واحد، وجعل للمدح والخاتمة ما تبقى مـن القصيدة.

غير أن هذا الشكل لم يكن قالباً جامداً يصب فيه ابن عقيل قصـائده دون

روح، وإنما أفاض عليه -أحياناً- من نفسه، ولونه بمشاعره وانفعالاتـــه (فــإذا ضرب من العاطفة يذيع في القصيدة كلها، ويبدو فـــي مقدمتهــا وموضوعهــا، ويغلب على بقية أجزائها)، ويحقق لها ضرباً من الوحدة والانسجام. مـــن ذلــك قصيدته التي بعثها من مصر إلى أخيه جبير يعاتبه على رحيله عنه، وهــو فــي مصر، دون علمه، وهي مطلعها(٦٩):

زَعمَـتْ مَـــيُّ أنَّ قلبـــي ســـالِ فاشْـــمأزّت لزُخْـــرفِ الأقـــوالِ

ومع أن القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، إلا أنه يسري فيها تيار نفسي واحد هو العتاب الذي لا يخلو من حدة. وقد أملى هذا الشعور على ابن عقيل أن يتخير في كل جزء من قصيدته الصور والمعاني التي تعبر عن مكنونات نفســه. فها هو ذا يستفتح القصيدة بنسيب حزين:

زَعمَـتْ مَـــيُّ أنَّ قلبـــي ســـالِ فاشْـــمأزّت لزُخْـــرفِ الأقـــوالِ
عجبـاً لابنــةِ الجُذيمـــــي إذ لــمْ فيـــكَ تَعْــصِ مقالـــةَ العـــذّالِ
أعرضـــتْ إذْ رأتْــكَ طـوْعَ يديهـــا فتصـــدّتْ للصـــدِّ بعْـــدَ الوصـــالِ
وكـــذا الغانيـــاتُ كـــالدّهرِ لا تبْـــــقـــى علـــى حالـــةٍ مـــن الأحـــوالِ

فابن عقيل يشكو في هذا النسيب هجر (ميّ) له وإعراضها عنه، وكيـــف أنها استمعت إلى قول العذال الذين أوهموها أنه سلا عنها وتغيّر عليهــا. وكــأن الشاعر يضمن هذا النسيب عتابة لأخيه، وتعجبه من موقفه منه، لذلك أطال فيـــه -أي النسيب- إطالة أتاحتْ له إفراغ مشاعره؛ فتحدث عن جمال هذه المحبوبـــة التي استهوته وملكت قلبه مع أنه رجل حليم، حتى إذا ما استوثقت من حبه لهـــا هجرته وتركته. لذلك نجده في نهاية هذا النسيب يثور في وجه (ميّ)، ويعلن لها أنه سينصرف عنها وعن أمثالها من الحسان، مبيّناً لها أن الموت فـــي ســـاحات الوغى أهون عليه مما تعرض له منها. وهنا نجد ابن عقيل يضيق بالتلميح وكتم

عواطفه، فينفجر بالحديث عن نفسه التي تأبى الإقامة بين قومه الذين لم يقـــدروه حق قدره، معلناً أنه غير آسفٍ على فراقهم، والابتعاد عنهم:

هـلْ رسـولٌ عنّـي يبلّـغ قومـــي مـن عقيـل أولـي النُّهـى والفعـال
أننـي غـير قـاطن فـي بـلادٍ لا يُراعـى فـي مثلهـا أمثـالي
أنا ذاك الشَّـهم الـذي بفـراق الـ أهـل والـدّار إن نـأى لا يُبـالي

ويمضي ابن عقيل في قصيدته بنبرة صاعدة ضارباً لنفسه الأمثال ببعض الرّجال الذين أجبرتهم ظروفهم على مغادرة أهلهم وذويهم، ثـم يعـود فيوجـه الخطاب إلى بنيه مصوراً حبه لهم، وحنينه إليهم؛ فهو لم يرحل عنهم (عن قلـى أو ملال)، ولكنه رحل رحيل المضطّر:

ما أبوكـم كغـيره يـألف الضيّـ ـم، أبوكـمْ ثبـتٌ علـى الأهـوالِ
ذو جنـانٍ شَـهمٍ إذا خـامت الأقـ ـران، طلقُ اللسـانِ عنـد النّضـال

أما حديثه لأخيه فهو عتاب يمازجه الأسى على موقف والده منـه ومـن أبنائه:

يا أخـي يـا جبـيرُ ناشـدتُك اللّـ ـه اتّئـدْ بالعيـال والأطفـال
فـأبوك أمـرؤٌ عليـه فراقـي هيّـن وهـو لا يـودّ عيـالي

وينهي الشاعر قصيدته مصرّاً على أن يعيش بعيداً عن قومه، ساعياً وراء تحقيق ذاته:

سوف أسعى والأمـر والحكـم للّـ ـه معـاً دائمـاً علـى كـلّ حـال

وهكذا فإنّ القصيدة تتشبّث بالشكل التقليدي، إلا أنّ ابن عقيل صدر فيها عن تجربته الخاصة، واستخرج معانيها من داخل نفسه، وبث فيها لوناً واحداً من الشعور انبثق انبثاقاً دقيقاً من هذه التجربة.

وواضح أنّ الشاعر لم يلحّ في الحديث عن موقف أخيه وقومه، وإنما اهتم بإبراز موقفه هو منهم، ورد فعله تجاههم، لذا كانت القصيدة تتحرك صعداً على نحو يوازي الحالة النفسية للشاعر، ومن ثم لم يُنْه قصيدته بالحديث عن آلامه وأحزانه، وإنما أنهاها بتصوير قوته وعزيمته، لأن هذه الآلام والأحزان ظهرت في فاتحة القصيدة.

وثَمّ نمط آخر من القصائد كان الزرعي يلج فيه إلى الموضوع الرئيسي دون مقدمات، ويتمثل هذا النمط أكثر ما يتمثل في القصائد التي قيلت في أحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، وهذه القصائد تمتاز بوحدة الموضوع. من ذلك قصيدته التي قالها يمدح الملك المعظم عيسى ويهنئه بفتح حصن صرخد سنة ٦١١هـ، ومطلعها(٧٠):

أضاءت بكَ الأيّامُ وابتهج الدّهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

والقصيدة ذات موضوع واحد تتشدّ إليه خيوطها جميعها، هو الثناء على البطل المسلم والتغنّي بقوة دولته والظفر الذي حققه. ومما كفل لهذه القصيدة الترابط والانسجام أن الشاعر أكثر من إيراد الصور التي تصف الأوضاع الجديدة للمسلمين في دولة الملك المعظم، وهنا نجده يقدم ضربين من الصور: صوراً تمثل منعة الدولة وقوة جيوشها، وصوراً تمثل ارتياح المسلمين وفرحهم وابتهاجهم بذلك:

وأشرقت الدنيا سناءً بوجهك السّـ ـنيِّ وعزّ العزُّ وافتخر الفخرُ
وأثنى عليك اللّهُ والدّهرُ والورى فكلٌ له فيك المدائح والشكرُ
ودولتك الغرّاءُ أيّامنا بها معظّمةٌ زُهْرٌ محجلةٌ غرُّ

مناقبُ لا يُحصـــي الخلائــقُ بعضَهـــا وكيف يُعدُّ الرَّمل أوِ يُحْصَــــرُ القطــرُ
حمى في ذراه النّاس أو كـــاد يحتمـــي من الموت مِنْهم كلُّ مَنْ لا لـــه عُمُــرُ

وحين يتحدث الشاعر عن قوة الجيوش الإسلامية فإنه يعمد، كذلك، إلـــى إيراد الصور التي تمثل قوة هذه الجيوش وضخامتها، تقابلها صور تمثـــل إقـــدام هذه الجيوش على الحرب، وارتياحها إليها، وانتشاءها بها:

عجاج المذاكي كحلها وخلوقها النَّـــــ ــجعُ وأصداء الـــدروع لهـــا عطــرُ
مقامهم الحرب الزّبونَ ونقلهـــــــــم رؤوس العوالي والدمـــاء لهـــم خَمْــرُ
نشاوى بكأس العـــز تصهـــال خيلهــم يرنحهم في الحرب لا العودُ والزمـــــر

أما حديث الشاعر عن قوة الأعداء، ومنعة حصن صرخد فقد جـــاء فـــي سياق حديثه عن قوة المسلمين وتغنيه بها، ولما استوفى ابن عقيل ذلك خرج إلى تمجيد القوة لينهي قصيدته:

وما جنحــــوا للسِّـلمِ إلا لعلمهـــــم بأنَّ قصارى فعلــــك القتـــل والأســـرُ
ومــــا العــزّ إلاّ متــن أجـــرد ســـابحٍ وهنديـــة بـــترٌ وخطيّــــة سُمْــــرُ

وإذا كان ابن عقيل كفل لمبنى بعض قصائده نوعاً من الوحدة والانسجام، فإن قصائد أخرى تبدو مفككة بحيث يكون الانتقال فيها من موضوع إلـــى آخـــر ظاهراً على نحو واضح ، ولا سيما في القصائد التي يطول فيها نفس الشاعر.

٢ - الأسلوب والصورة:

يُمثل أسلوب ابن عقيل الزرعي في بعض جوانبه الأسلوب الشعري الـــذي يحرص على نشر الأجواء البدوية من خلال النسيب، وذكر الديـــــار، ووصـــف الظعائن، والحنين إلى بعض الأماكن المعهودة في جزيرة العرب، بالإضافة إلى

محاكاة الشعراء الأقدمين في أساليبهم وطرائق تعبيرهم. ولعل انتماء ابن عقيل إلى قبيلة عربية، ونشأته في منطقة حوران، واتصاله بزعماء بعض القبائل في مصر والشام لعل ذلك كله جعله يستشعر روح البداوة في نفسه، وانعكس ذلك على أنماط تفكيره وتعبيره. والشواهد على ذلك كثيرة في شعره، من ذلك الأبيات التالية التي ينحو فيها منحى الأقدمين في حديثهم عن الحياة الصحراوية، وتصويرهم الأطلال الدارسة، وحنينهم إلى ذكريات الحب القديم(٧١):

أشاقك رسمٌ بعد أسماء أوحشا — تخال بقاياه الكتاب المرقّشا
وكان مصيفاً للحسانِ ومَرْبعاً — ومغنى لمن أحببتُه ومعرّشا
ليالي يدعونا الصِّبا فنجيبُه — فيرضى الهوى عنا ويغضب من وشى

ويبدو تمثل الشاعر لمعاني الأقدمين وأساليبهم في الأبيات التالية التي يصف فيها الظعائن، متغنياً بجمال نسوتهن، ومصوراً غيرة قومهن عليهن، ودفاعهم عنهن(٧٢):

لله ظعن من عقيل ودَّعوا — فاستودعوا قلبي عقيل عقائلِ
بيضٌ وسُمْرٌ كلّ أبيض صارمٍ — عنها يذود وكلّ أسمر ذابلِ
من كلّ ظامية المعاطف خرعبٌ — ريا الروَادف، لدْنة المتمايلِ

وينسج ابن عقيل على أساليب الأقدمين، ويستلهم ألفاظهم وتعابيرهم، ويقلدهم في معانيهم وأفكارهم حين يصف رحلته إلى الممدوح على ظهر ناقة قوية، مصطنعاً الألفاظ الصعبة، والكلمات الجافية، والصور البدوية(٧٣):

وإلا فسَرِّ الهمَّ عنك بعَنْدلٍ — من الهوج ميلاء الذراعين عرمسِ
هجانٌ من الصهب العثانين تنتمي — إلى شدنيّ كالفنيق المجرفسِ
دمولٌ إذا أممتها عرض الفلا — ضحاء وفي جنح الظلام المعسعسِ

وإذا كان ليس من السهل رد الأشعار السابقة إلى أصولها في الشعر القديم، فإن ثمة أشعاراً أخرى يسهل ردها إلى قصائد بعينها. وهذا النمط يكون فيه التقليد ماثلاً على نحو واضح في الصياغة والمعنى والوزن والقافية، من ذلك قصيدته(٧٤):

أعد ذكر نجدٍ والمقيمين في نجدِ فلولا هوى نجدٍ صحوتُ من الوجْدِ

فالنسيب فيها ذو صلة قوية بقصيدة ابن الدّمينة، التي مطلعها(٧٥):

ألا هلْ من البيْنِ المفرّقِ من بُدٍّ وهلْ لليالٍ قد تسلّفن من ردِّ

ومما يدل على أن ابن عقيل كان يستدعي معاني قصيدة ابن الدمينة السابقة التشابه بين معاني بعض أبيات الشاعر اللاحق وأبيات الشاعر السابق. فالبيتان التاليان لابن عقيل:

فإن صبا نجد يهيج صبابتي إذا هاج ريّاها عن البانِ والرّنْدِ
نأت وتصدت للصدود، وللنوى مع الوصل خيرٌ من رخوٍ على البعدِ

يشبهان لفظاً ومعنى قول ابن الدمينة:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتِ من نْجدِ لقد زادني مسراك وجداً على وجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يشفِ ما بنا على أنّ قُرْبَ الدّار خير من البعدِ
على أن قرب الدار ليس بنافعٍ إذا كان من تهواه ليس بذي عهدِ

وقصيدة ابن عقيل التي مطلعها(٧٦):

عــرف الغــرام وأنكــر الأطـــــلالا   إذ لم تُجـــب عنـــد الخطـــاب ســؤالا

تدل على أن الشاعر كان ينظر على نحو واع في قصيـــدة جريـــر التـــي مطلعها(٧٧):

حـــيِّ الغـــداة برامــــــة الأطـــــلالا   رســماً تحمّــــــل أهلُـــــه فأحــــالا

فقد ذكر ابن عقيل أنه تفوق في قصيدته تلك على قصيدة جرير، وأربـــى عليها، وذلك في قوله:

أنسـْـتُ جريـــراً بالجزالـــــة قولْـــــه   "حـــيِّ الغـــداة برامــــــة الأطـــــلالا"

وواضح مما سبق أن هناك تشابهاً في الموضوع بين قصيدتي ابن عقيـــل وقصيدتي ابن الدمينة وجرير، بيد أن هناك قصائد أخرى حاكاها ابن عقيل دون أن تجد تماثلاً في الموضوع بين القصائد السابقة والقصائد اللاحقة، وإنما يبـــدو التماثل واضحاً في الوزن والقافية والصور والتعابير، أما الموضوع فمختلـــف. من ذلك قصيدته التي قالها في رثاء حوران(٧٨):

جار الزّمـــان علـــى ســكّان حورانـــا   لا كان دهر قضــــى بـــالجور لاكانـــا

فوزن هذه القصيدة وقافيتها وكثير من ألفاظها وتراكيبها وصورها مسلوخة من قصيدة جرير التي مطلعها(٧٩):

بان الخليط ولـــو طُوِّعـــت مـــا بانـــا   وقطّعوا من حبـــال الوصـــل أقرانـــا

ولعل ارتباط الشاعرين بمنطقة حوران هو الذي جعل الشاعر الثاني يترسّم خطى الشاعر الأول في هذه القصيدة وغيرها، بالإضافة إلى أن الإطار المكاني للقصيدتين السابقتين واحد. وأورد فيما يلي طائفة متفرقة من قصيدة ابن عقيل تتلوها طائفة ثانية من قصيدة جرير لنرى كيف تأثر الشاعر اللاحق بالشاعر السابق. يقول ابن عقيل:

كانوا يجيرون من جور الزمان فقد ... أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا
يوماً بأوجع مني إذا وقفت على ... تلك القرى وتذكرتُ الذي كانا
كأن أظعانهم والآل يرفعها ... سفائن أشرعت أو نخل بيسانا
ترى يعود إلى الأوطان ساكنها ... فأنظر الدارس الآيات عمرانا
صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا ... أن جاوبوه زرافات ووحدانا

فهذه الأبيات يقابلها من قول جرير الأبيات التالية:

حيِّ المنازل إذ لا نبتغي بدلاً ... بالدار داراً ولا الجيران جيرانا
أوليتها لم تعلّقنا علاقتها ... ولم يكن داخل الحبّ الذي كانا
كأنّ أحداجهم تحدى مقفية ... نخلٌ بملهم أو نخل بقرّانا
هل يرجعنّ وليس الدهر مرتجعاً ... عيش طالما احلولى وما لانا
جهلاً تمنوا حدائي من ضلالهم ... فقد حدوتهمُ مثنى ووحدانا

غير أنّ هذا الأسلوب التقليدي لم يكن ليمنع ابن عقيل من أن يتأثر بمظاهر الصنعة اللفظيّة التي شاعت بين شعراء عصره آنذاك، حتى في بعض القصائد التي يصطنع فيها صور التعبير لدى الشعراء العذريين، كما في قوله متكثراً من الطباق والجناس على نحو يدل على أنه لم يكن له غاية فنية من وراء ذلك إلا هذه اللفظية الظاهرة(٨٠):

إلام وعذري قائمٌ في الهوى العذري ... ألامُ، ووجدي ليس يصدر عن صدري؟

وحتّـام قلبـي إن أسـرّ الـذي بـه من الحبّ، ظلّ الدّمع والسّقم في جهْرِ؟
ينم شحوبي عن شـجوني التـي نمـت فيسعدني وجـدي، ويخذلنـي صـبري

ولم تكن الصنعة في شعر ابن عقيل مقصورة على البديع بأنواعه، وإنما تعدته إلى التلوين في الأوزان والقوافي، فنظم قصيدة تقرأ على غير ما قافية واحدة، وعلى خمسة أوزان، ومما ورد فيها قوله(٨١):

اسأل يجبك من المعظّـمْ نيلُهُ	المتوفّرُ	الإحسانِ	والإكرامِ
سيْلٌ من الرّفدِ العرمـرمْ وبلُهُ	المثعنجرُ	الهتّانِ	والإنعامِ
يُنبيك عن عيسى بن مريمْ شكلُهُ	المستظهرُ	البرهانِ	والإعظامِ
ثبتٌ إذا المقـدامُ أحجـمْ مثلُهُ	فمُدمِّرُ	الأوثانِ	والأصنامِ

وقد ينحو ابن عقيل في قليل من أشعاره أسلوباً ميسراً يمتاز بالسهولة والوضوح، والاقتراب من اللغة المحكية، واستعمال الألفاظ النابية – أحياناً – وغير النابية مما يشيع على ألسنة العامة. وقد رأينا طرفاً من ذلك في أشعار الهجاء، ونجد مثل هذا الأسلوب السهل في الأبيات التالية التي قالها يبشر بولاية أحد الأمراء، وتقترب هذه الأبيات من اللغة العادية اقتراباً شديداً، وغاية ما هنالك أن ابن عقيل أعرب كلامه، ورتب أجزاءه(٨٢):

أذّنَ فـي الأقطـارِ داعـي الرّشـادِ حـيَّ علـى السّـعْدِ ونيـلِ المـرادِ
وارتجـع الحـقّ إلـى أهلـه وعـاد مـا كـان برغـم الأعـادي
وحـلَّ فتـح الدّيـن فـي حِصْنـه ذي المنظر الأعلـى الرّفيـع العمـادِ

ومع أن ابن الشعار الموصلي ذكر أن ابن عقيل كانت لـــه القـــدرة علــى ارتجال الشعر، إلا أن طابع الخفة الارتجالية لا يبدو في شعره وإنما يبدو فيه – أحياناً – شيء آخر ربما كان من أثر هذا الارتجال، وهو أنّ بعض شعره يحمل أحياناً علامات الفجاجة والتعبير المرسل دون صقل، بالإضافة إلى التكرار الذي قد يدل أيضاً على ضآلة في المحصول الفكري للشاعر، حيث تستحوذ عليه أنماط من المعاني والتعابير بصورة تسترعي النظر، كما في الأمثلة التالية المأخوذة من قصائد مختلفة[٨٣]:

* ينمّ شحوبي عن شجونيْ التي نمـــت فيسعدني وجدي، ويخذلنـــي صـــبري
* ينمّ شحوبي عن شـــجوني إذ نمـــت بهنّ ويبدي الدمعُ مـــا فـــي أضـــالعيْ
* نمّ شحوبي عن شـــجوني إذ نمـــت مـــا حيلتـــي وأدمعـــي تكلّـــم

وحين ننظر إلى الصورة في شعر ابن عقيل فإنّه يستبين لنا أنّ الشاعر لم يكدّ قريحته في تطلب الصور الجديدة أو المولدة التي كانت مقياساً فـــي الحكـــم للشعر في عصره، وإنما ظل يردد في شعره الصور التي كثر دورانها في أشعار السابقين، ومن ثم فإن جلّ صور ابن عقيل صور نمطية جاهزة. ومع ذلك فقـــد تجد بعض الصور التي تصرّف في إخراجها، فبدت جديدة أو كـــالجديدة، علـــى شاكلة قوله يتحدث عن أخلاق أحد ممدوحيه[٨٤]:

خلقٌ أرقَ من الصّهبـــاء لـــو قُطِـــرتْ يومـــاً علـــى الملْـــح قطـــرةٌ عذُبـــا

وقوله مصوراً الدنيا امرأة تلد لتقتل أبناءها[٨٥]:

ولـــدت لتقتـــل ولْدهـــا بعقوقهـــا يـــا ليتهـــا قبـــل الـــولاد عقيـــم

غير أن أنّ بعض محاولات ابن عقيل للإتيان بالصور الجديدة تبدو فجـــة

غير مستساغة كما في الأبيات التالية التي يصور فيها نفسه نبياً بُعث إلى الناس يدعوهم إلى المحبة، ثم يستطرد في الصورة فيجعل لنفسه معجزة وأنصاراً وديناً[٨٦]:

بُعثت نبياً للمحبة داعياً   إلى الحبّ عنها من يصدّ ويصدفُ
فمعجزُ آياتي خضوعي وذلتي   وصبري وأنصاري الأسى والتأسّفُ
فأظهرت للعشّاق دين صبابةٍ   بها الحبّ أضحى للمُحبّين يُعرفُ

ومع أنّ ابن عقيل لم تكن لديه القدرة الفنية التي تسعفه على ابتكار الصور، فإنه وبتأثير من مقاييس عصره، كان يعمد إلى الإكثار من التشبيهات والاستعارات المستدعاة من الذاكرة، في البيت الواحد أو في الأبيات المتلاحقة، بحيث لا تغدو للشاعر أية غاية إلا تكديس الصور البيانية، على شاكلة قوله[٨٧]:

وبدرٍ منِ الجوزاء صيغ نطاقُه   من النّجم قرطاه، دُجاه من الشّعْرِ
يُشير بعنّابٍ ويرنو بنرجسٍ   ويُسفِرُ عن بدرٍ، ويبسم عن درِّ
نضا البيض من سودٍ وهزّ قوامه   فصال على العشّاق بالبيضِ والسمرِ

لذلك لم تؤدِ الصورة في شعر ابن عقيل أكثر من وظيفتها البلاغية، كاستعمالها دليلاً على صحة المعنى، ووسيلة للإقناع بطريقة غير حاسمة، كما في قوله[٨٨]:

أنا ذاك الشّهم الذي بفراق الأهـ   ـل والدّار إن نأى لا يبالي
لا تنال الحمدَ الظّبا وهي في الأغـ   ـماد حتى تسلّ يوم القتالِ
والهزبر الهصور في الغيل إن أخـ   ـلد ساق الرّدى إلى الأشبالِ

كما أدت الصورة وظيفتها في التزيين، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها جمال أحد الغلمان الأتراك، مستعملاً الصور اللونية التي تمثل حمرة خديه ووضاءة وجهه، والصور الذوقية التي تمثل لذة ريقه، والصور الشمسية التي تمثل طيب رائحته[٨٩]:

فخـــذاه وردٌ والعـــذار بنفســـجٌ وريّـــاه مسْـــك، والمراشـــف قرقـــفُ
كـــأنّ محيّـــاه الوضـــيء وفرْعـــه صبـــاحٌ وليـــلٌ مستنير ومســـدفُ

وصور ابن عقيل معظمها من المنظور، وهو يقف فيها عند الشكل الخارجي، ولا يرتفع بها إلى درجة الإيحاء الفني. وهي كذلك صور جزئية لا يأتلف من مجموعها صور كبرى.

التّوثيق:

(١) ابن الشّعار، عقود الجمان (ميكروفلم): ١: ١٢٣.
(٢) المصدر السابق ١:١٢٣. وقد ذكر ياقوت هذه القرية باسم "زُرًّا". وأشار إلى أنها تعرف في عصره باسم "زُرع وأنها من حوران، ياقوت: معجم البلدان: (زُرًّا). وانظر كذلك: العمري، مسالك الأبصار (دولة المماليك الأولى): ١٩٠.
(٣) عقود الجمان (ميكروفلم) ١:١٢٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ابن عقيل الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل الزّرعي (ميكروفلم): ٥.
(٦) مرو العلاة: لم أجد موضعاً يعرف بهذا الاسم، وثمة قرية تعرف بـ (مرو) تقع شمال غرب إربد من الأردن، لعلّها المقصودة، وثمّة موضع آخر اسمه "العلاة" ذكر البكري أنه أرض بالشام. البكري معجم ما استعجم ٣: ٩٦٣، ٩٨٠. بيت راس: قرية في الأردن تقع إلى الشمال من إربد. ابن خرداذبة، المسالك والممالك : ٧٨ ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع ١:٤١ . إربد مدينة في شمال الأردن. ياقوت، معجم البلدان : (إربد) Robinson 3.533

الحصن: قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من إربد ١١٢: Schumacher.
(٧) ابن عقيل الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل :٤.
(٨) المصدر السابق:٤٢.
(٩) المصدر نفسه: ٤٥.
(١٠) قال هذه القصيدة يمدح متولي ثغر الاسكندريّة، ومطلعها:

هي الدّار ما بين اللوى والمعرّس ... فعجْ بالمطايا الهوج فيها وعرِّسِ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦١.
(١١) انظر المختار من ديوان ابن عقيل : ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٦٨.
(١٢) مطلعها:

أضاءت بك الأيّام وابتهج الدّهر ... وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٣.
(١٣) مطلعها:

أجدِ المقال لدى أجلّ مقام ... فلقد نطقت أمام خير إمامِ

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٢

(١٤) منها قصيدة مطلعها:

إلام أعنَّى في الهوى وأعنَّفُ وحتّام يجفوني الحبيب وأعطفُ

المختار من ديوان ابن عقيل:٥٠.

(١٥) مطلع القصيدة التي قالها مهنئاً بالعيد:

الصبر ينقص والغرام يزيدُ والدمع يبدي والسقام يعيدُ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦٣.

(١٦) مطلعها:

سقى عطفه ماءُ الصبا فتأوّدا وأسكره خمر الدلال فعربدا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٥.

(١٧) مطلعها:

رفعت للملك مجداً يخفض الشهبا ونال في عصرك الإسلام ما طلبا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٨.

(١٨) مطلعها:

ماستْ بقدّ السمهريّ الأهيفِ ورنتْ بحدّ المشرفيّ الأهيفِ

المختار من ديوان ابن عقيل :٢٦.

(١٩) مدح في هذه السنة الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، والملك العزيز عثمان، والملك الأشرف (له فيه ثلاث قصائد)، والملك المعظم عيسى، والملك الناصر داود. انظر المختار من ديوان ابن عقيل:٢٢،٥٩، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

(٢٠) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٧٦.

(٢١) ذكر ابن الشعار أنّ ابن عقيل توفي سنة ٦٢٣هـ، بينما ورد في الصفحة الأولى من المختار من ديوانه أنه توفي سنة ٦٢٢هـ، ودُفن بمقابر باب الصغير من دمشق.

(٢٢) المختار من ديوان ابن عقيل:٧.

(٢٣) المصدر السابق: ٦٢.

(٢٤) المصدر نفسه : ١٦.

(٢٥) نفسه:٥ .

(٢٦) نفسه: ٤٦.

(٢٧) نفسه: ١٨.

(٢٨) نفسه: ٧.
(٢٩) نفسه:٢٧.
(٣٠) ذكر بروكلمان هذه النسخة في كتابه تاريخ الأدب العربي ٥: ٥٠.
(٣١) المختار من ديوان ابن عقيل:٢.
(٣٢) المصدر السابق: ٤٨.
(٣٣) المصدر نفسه:٢٠.
(٣٤) نفسه:٢٧.
(٣٥) نفسه: ١٧.
(٣٦) نفسه: ٢٩.
(٣٧) نفسه:٥٩.
(٣٨) نفسه:٥٦.
(٣٩) نفسه:٧.
(٤٠) نفسه: ٣١.
(٤١) نفسه: ٦٤.
(٤٢) نفسه:٧.
(٤٣) نفسه:٩١.
(٤٤) نفسه ٥٠.
(٤٥) نفسه: ٤١.
(٤٦) انظر إشارات إلى هذا الاجتياح في: ابن واصل، مفرّج الكروب ٤: ٢٥٧؛ أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين : ١٠٢.
(٤٧) د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة: ١٥.
(٤٨) المختار من ديوان ابن عقيل :٣٩.
(٤٩) ورد فوق هذه الكلمة كلمة (زرافات).
(٥٠) قال ناسخ الديوان: (لعلّها أمراس).
(٥١) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل، والزيادة من عندنا.
(٥٢) بصرى: تقع في جنوبي حوران إلى الشرق من درعا. ياقوت، معجم البلدان: (بصرى) أبو الفداء، تقويم البلدان: ٢٥٢.
الرمثا: مدينة تقع شمال الأردن على الحدود السوريّة. بيركهارت، رحلات بيركهارت: ١٤.
نجران: قرية إلى الشمال الغربي من السويداء في سوريا . ابن عبدالخالق، مراصد الاطّلاع ٣: ٢٠٠، ياقوت، معجم البلدان : (نجران).

(٥٣) حِبال : من قرى وادي موسى في الأردن. ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ١: ٣٨٣، ياقوت ، معجم البلدان: (حبال). السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت: ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ٢: ١٠٠ ياقوت، معجم البلدان: (السراة). مآب (مآب ومؤاب): مدينة في جنوب الأردن. ياقوت، معجم البلدان (مآب). المقدسي، أحسن التقاسيم: ١٧٨، ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ٣: ٢٥ .

(٥٤) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥١.

(٥٥) المصدر السابق: ٥١.

(٥٦) المصدر نفسه: ٥٢ .

(٥٧) دعبل الخزاعي، ديوانه: ٢٤٤.

(٥٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٤.

(٥٩) المصدر السابق: ٥٤.

(٦٠) المصدر نفسه: ٧٦.

(٦١) نفسه: ٧٦.

(٦٢) نفسه: ٦٤.

(٦٣) نفسه: ٦٤.

(٦٤) نفسه: ٣٣.

(٦٥) نفسه: ٧١.

(٦٦) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٢.

(٦٧) الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٧.

(٦٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ١٤.

(٦٩) المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٠.

(٧٠) المصدر السابق: ١٢.

(٧١) المصدر نفسه: ٤٩.

(٧٢) نفسه: ٥٦.

(٧٣) نفسه: ٥٧.

(٧٤) نفسه: ٢٩.

(٧٥) ابن الدمينة، ديوانه: ٨٠.

(٧٦) المختار من ديوان ابن عقيل: ٧.

(٧٧) جرير، ديوانه ١: ٤٧ .

(٧٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٩.

(٧٩) جرير، ديوانه ١: ١٦٠.

(٨٠) المختار من ديوان ابن عقيل: ٢.

(٨١) المصدر السابق: ٧٧.
(٨٢) نفسه: ٥.
(٨٣) نفسه: ٢،٥٦، ١٢.
(٨٤) نفسه: ٣٨.
(٨٥) نفسه: ٤١.
(٨٦) نفسه: ١١٥ .
(٨٧) نفسه : ٢.
(٨٨) نفسه: ٤١.
(٨٩) نفسه: ٥١.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

١- ابن الشعار الموصلي، أبو البركات مبارك: عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٢- ابن عقيل الزرعي، أحمد بن عقيل بن نصير: المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي، مخطوط ، مكتبة طبقبو سراي، تركيا، رقم ٢٨١٦.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

٣- د. إحسان عبّاس: تاريخ النقد العربي من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: نقد الشعر، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١.

٤- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. رمضان عبدالتواب، دار المعارف، القاهرة، ط٣ ، ١٩٨٣.

٥- البكري، أبو عبيد عبيدالله بن عبدالعزيز: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د. ت .

٦- بيركهارت، لودفش: رحلات بيركهارت، ترجمة أنور عرفات، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٦٩.

٧- الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥.

٨- جرير بن عطية، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٦.

٩- د. حسين عطوان: مقالات في الشعر ونقده، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.

١٠- ابن خرداذبة، أبو القاسم : المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩.

١١- دعبل بن عليّ الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمر الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.

١٢- ابن الدمينة : ديوان ابن الدمينة صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٧٩هـ.

١٣- أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

١٤- د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.

١٥- ابن عبدالحق، صفي الدين: مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مطبعة بريل ، ليدن، ١٨٥٢.

١٦- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوروتيا كرافوسكي، المركز الإسلامي للبحوث بيروت، ١٩٨٦.

١٧- أبو الفداء إسماعيل، تقويم البلدان،؟، بغداد، د.ت.

١٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٠٦.

١٩- ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرّج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم ، القاهرة، ١٩٥٣.

٢٠- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

21- Robinson, Edward: Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, Jerusalem, 1970.

22- Schumacher, Gottlieb: das Suedlische Basan, ZDPV, 1897, 20: 65-227.

المرافعة القضائية

نشأتها وأصولها... لغتها... أساليبها... طرق أدائها

د. سلمان القضاة
جامعة اليرموك

لغة:

يبدو أن لفظة (المرافعة) لم تكن متداولة صراحة أيام وضع المعاجم التراثية الأولى. فنحن لم نعثر في أي منها على أيّ دليل واضح يفيد أنها قد استعملت. وما وجدناه حقيقة لا يتعدى كونه إشارات إلى مفهومها في الوقت الحاضر.

فقد جاء في اللسان: "الرفيعة: ما رفع به على الرجل، ورفع فلان على العامل رفيعة، وهو ما يرفعه من قضية ويبلغها.... والرفع هذا من رفع فلان على العامل إذا أذاع خبره وحكى عنه" (١).

وجاء في القاموس المحيط:" رفعه: ومنه رفعته إلى السلطان رفعاناً"(٢)
وفي تاج العروس يقترب المعنى اللغوي للمرافعة من الفهم المعاصر لها، فيقول صاحب التاج: "ومن المجاز (رافعه إلى الحاكم) مرافعة: قدمه إليه ليحاكمه وشكاه"(٣).

لكن المعاجم المعاصرة تورد هذه اللفظة لتدل، بشكل صريح، على معناها المتداول، ففي المعجم الوسيط نجد: "رافعه: رفعه. و___ إلى الحاكم وغيره: رفع الأمر إليه وشكاه. ويقال: رافعه وخافضه: داوره كل مداورة. (ترافعا) إلى الحاكم: تحاكما. و ___ المحامي عن المتهم أمام القضاء: دافع عنه بالحجة"(٤).

اصطلاحاً:

وكما أن لفظ المرافعة لم يكن مستعملاً قديماً، فإننا لا نجد لها معنى اصطلاحياً بلفظها هذا، وهذا لا يعني أن المرافعة بمفهومها المعاصر لم تكن معروفة قديماً، لكنها كانت مستعملة منذ العصر اليوناني باسم الخطبة القضائية. ففي حديثه عن أنواع الخطابة، يتحدث أرسطو عن الخطبة القضائية ويعرف لنا ماهيتها بكلام يسهم في تحديد مفهوم المرافعة الاصطلاحي، إذ يقول إنها تتوجه إما إلى الاتهام وإما إلى الدفاع، ومهمة المتقاضين لا تخرج بالضرورة عن القيام بواجب من هذين[٥].

ولكن المعجم الوسيط يقدم تحديداً أوفى لمفهومها، فقد ورد فيه أن "المرافعة: إجراءات مقررة لتصحيح الدعوى والسير فيها. وقانون المرافعات: قانون ينظم الإجراءات التي تتبع في رفع القضايا أمام المحاكم[٦]".

المرافعة القضائية في التاريخ

أ- عند الأمم القديمة

لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها، فمنذ اجتمع الناس في مكان واحد وتفاهموا بلسان واحد، عرفوها، إذ إنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة، وأن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة، فنجدها محفوظة في الخط المسماري الآشوري، وفي الخط الهيروغليفي الفرعوني[٧].

ثم جاءت الحضارة اليونانية فاجتمع للخطابة مقومات ازدهارها من حرية وطموح إلى حياة أرقى، وانتشار للتعليم وازدهار للثقافة وحكم دستوري وكثرة المؤتمرات وغيرها. ويوجز الدكتور أحمد الحوفي أسباب ازدهار الخطابة عند اليونان بقوله" لما شعت أنوار العلم والفلسفة، وازدانت أثينا وغيرها بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين، وقويت الديمقراطية في جميع المدن وتنافس الأفراد وتطاحنت الأحزاب، وكثر النزاع والتقاضي أمام المحاكم الشعبية، شاع

الجدل السياسي والقضائي فاشتدت الحاجة إلى تعلم الخطابة"[8]، فاتجه الناس إلى تعلمها والتدرب عليها والتمرن على الإلقاء وتعويد اللسان على النطق الصحيح، فبدأ العلماء يستنبطون قواعد الخطابة وقوانينها، وكان السفسطائيون أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد في القرن الخامس قبل الميلاد، وجاء من بعدهم أرسطو فجمع قواعد الخطابة وضم شواردها في كتاب أسماه "الخطابة" صار مرجعاً للخطباء.[9] ويصف أحمد الحوفي الأساس الذي اعتمده أرسطو للخطابة فيقول: "وأسسها على الجدل، وأقامها على الدليل، وبناها على التركيب والتحليل النفسي، وأوجب على الخطيب أن يتعرف إلى نفسية الجمهور ليخطب فيه بما يناسبه ويلائم حالته". [10] وهذا أدى إلى امتزاج الفلسفة بالخطابة وتمثُّل البلاغة فيها. وكباقي أنواع الخطابة، فقد اشتهرت الخطابة القضائية، إذ كانت الدعاوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأطراف. ولما كانت شريعة البلاد تقتضي أن يتكلم صاحب القضية في قضيته، فلا يجوز توكيل محام كما هو الحال عندنا للدفاع عن غيره، كان أصحاب القضايا يلجأون إلى الخطباء يلتمسون منهم تأليف الخطب ليحفظوها ويتلوها في مجالس القضاء.[11] وهذا يستدعي أن يتميز في المجتمع فئة تعين المتقاضين وتعد لهم الخطب بمقدار ما أوتيت من قدرة ومراس وتمكن من تبني قضايا الآخرين وكأنها قضاياهم فيحيلونها خطباً، وما لبث هذه الأمر أن صار مهنة ومورد رزق. وقد استمرت الخطابة في العهد اليوناني، بما في ذلك الخطابة القضائية، ما استمرت فيهم الحرية السياسية. وقد اشتهر العديد من الخطباء اليونانيين مثل لوسياس (حوالي ٤٤٠ – ٣٨٠ ق.م) الذي كان محامياً قامت شهرته بالدرجة الأولى على الخطب القضائية مما يكتبه للمتقاضين، وقد اعتبره معاصروه أشهر المحامين وأبرعهم، إذا كان أقدر الخطباء على تقمص شخصية موكله وفهم ظروفه[12]. وقد اعتبرت خطبته القضائية التي برأ بها قاتل (أراثوسيثنيس) نموذجاً للخطبة القضائية[13].

وقد اشتهر خطيب آخر في أثينا هو (ديموستنيس)[14]. وتبعه خطباء آخرون برعوا في الخطبة القضائية، أمثال أنطفيون ٤٨٠ق.م.، وأتروسيد ٤٤٥ق.م، ولزياس ٤٤٠ق.م وبرعوا في مرافعات عن أمور خاصة أو في

دعاوى سياسية.

فلما سادت الحضارة الرومانية كان من الطبيعي أن يتبع الرومان أثر أساتذتهم اليونانيين في الخطابة، فكانت الخطابة عند الأمة الرومانية شبيهة بتلك عند اليونانيين. وكان في أصل النظام الروماني نفسه ما يهيئ فرصة مناسبة للخطابة، ذلك أن الرومان يسمحون للمحامين أن ينوبوا عن المتقاضين ويلقوا الخطب نيابة عنهم أمام القضاة وبحضور جمع من الناس لهم الحق في شهود المحاكمة. وكان أشهر خطبائهم على الإطلاق شيشرون(١٠٦- ٤٣ ق.م). ويصفه محمد صقر خفاجة بقوله:" ومضى شيشرون يعلو في عالم المرافعات ويلمع في الخطب التي يلقيها في الجمعية العمومية شديداً عنيفاً وطيباً ومحباً للخير" (١٥).

ب- عند العرب

وإذا ما تركنا الحديث عن الخطابة عند اليونان والرومان واتجهنا إلى العرب، وجدنا أن العديد من العلماء يضعون العرب في المرتبة الأولى من البيان، فقد ذكر أبو حيان التوحيدي في مقابساته، حاكياً عن أبي سليمان: "سمعته يقول: نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب وقلوب الفرس وأيدي الصين"(١٦)، وربما يرجع السبب في ذلك إلى ما يراه الدكتور أحمد الحوفي إذ يقول: "وقد ازدهرت الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي لأنهم عاشوا طلقاء في جزيرتهم لا يحد من حريتهم تعسف من حاكم، أو نظام جائر، فهم أحرار في تفكيرهم، وفي البوح عنها والدعوة لها، حريتهم في التنقل في هذه البيئة" (١٧).

فلما جاء الإسلام كان من الطبيعي أن يحدث صراع بين أتباع هذه الدعوة الجديدة والمتمسكين بالقديم، فانبرى الخطباء يتصدرون للدعوة الجديدة ويحتضنونها، فيدعون إلى الدين الجديد ويكشفون مزاياه، ويزعزعون المعتقدات القديمة في النفوس وينفرون منها وسلاحهم في ذلك كله الكلمة ممثلة بالخطبة، فكان من نتاج ذلك أن بلغت الخطابة أوج ازدهارها. ومع مجيء العصر الأموي

وقيام الثورات والفتن بدأ الكهول والفتيان يتبارون في الخطابة ويتسابقون في ميدانها. إلا أن العرب لم تكن لهم خطابة قضائية، إذ كانوا يعتمدون في تقاضيهم على البينة واليمين، فلم يكن هناك مجال يتبارى فيه الخطباء، ولم يكن عندهم محلفون يسعى الخطيب إلى استمالتهم وإقناعهم،(١٨) على الرغم من أننا نجد في كتب الفقه ما يجيز الوكالة في مطالبة الحقوق، فقد ورد في المغني والشرح الكبير: "ويجوز التوكيل في مطالبة الحقوق وإثباتها والمحاكمة فيها، حاضراً كان الموكل أو غائباً، صحيحاً أو مريضاً، وبه قال مالك وابن أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد والشافعي، وقال أبو حنيفة للخصم أن يمتنع من محاكمة الوكيل إذا كان الموكل حاضراً لأن حضوره مجلس الحكم ومخاصمته حق لخصمه عليه، فلم يكن نقله إلى غيره بغير رضاء خصمه كالدين عليه... وإن علياً رضي الله عنه وكل عقيلاً عند أبي بكر رضي الله عنه، وقال ما قضى له فلي وما قضى عليه فعلي، ووكل عبدالله بن جعفر عند عثمان وقال: إن للخصومة قحماً (١٩)، وإن الشيطان ليحضرها وإني لأكره أن أحضرها" (٢٠).

ونحن نجد بعض الأدلة التي تشير إلى وجود هذا النوع من الخطابة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي اتفقت الكتب الستة على روايته قوله" إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن كنت قطعت له من حق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار"(٢١). ففي هذا الحديث ما يدل دلالة واضحة على وجود الخطبة القضائية في العصر الإسلامي الأول، بل ربما كانت فصاحة الخطيب وبيانه ذات الأثر الأكبر في صدور الأحكام، كما يخبرنا الحديث الشريف. وفي القرآن الكريم العديد من المواقف التي لا يسعنا إلا أن نعدها من قبيل المرافعات القضائية، ففي قصة مريم، يشير قومها إليها بأصابع اتهام، إذ جاءتهم بصبي دون أن يمسها رجل، فيأتي الأمر الرباني إلى ولدها عيسى عليه السلام ليدافع عنها ويبرئها من التهمة الموجهة إليها، يقوم تعالى: "فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في

المهد صبياً، قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً"(٢٢). وفي سورة الأنبياء يذكر الله تبارك وتعالى قصة إبراهيم مع قومه عندما اتهموه بتحطيم أصنامهم، فيقف عليه السلام يقارعهم الحجة مدافعاً عن نفسه ومسفهاً رأيهم وموبخاً إياهم على عبادتهم أصناماً من دون الله لا تضر ولا تنفع. يقول تعالى:"قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون" (٢٣). ويحوي القرآن الكريم العديد من هذه المواقف التي يمكن عدها مرافعات قضائية (٢٤).

إضافة إلى هذه النماذج من القرآن الكريم، تورد بعض كتب الأدب نماذج تعطي صوراً لبعض المخاصمات القضائية التي يتخللها مواقف تعد من قبيل الخطب القضائية. من أشهر تلك المخاصمات ما حصل بين أبي الأسود الدؤلي وامرأته التي طلقها وأراد أن ينتزع ابناً له منها فأبت واحتكما إلى زياد أو إلى معاوية في رواية أخرى؛ فقالت المرأة مدافعة عن حقها في حضانة الولد : "أصلح الله الأمير، هذا بني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى إذا استوفى فصاله وكملت خصاله وأملت نفعه ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً فآدني أيها الأمير، فقد رام قهري وأراد قسري". فقال أبو الأسود: "أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله ويستحكم فتله. فقالت المرأة: صدق، أصلحك الله، حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً". فقال زياد: "أردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك ودعني من سجعك"(٢٥).

ونعثر على نص آخر لأبي عبدالله بن الفخـــار مدافعاً عـــن القـــاضي التوحيدي قاضي مالقة أمام الأمير إذ يقول: "إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمــد اللـــه على الدنو منه، ونصلي على خير أنبيائه محمد الهادي إلى الصـــراط المســتقيم وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم، أما بعد: فإنا نحمد الله الـــذي اصطفـــاك للمؤمنين أميراً، وجعلك للدين الحقيقي نصيراً وظهيراً، ونفزع إليك مما دهمنا في حماك، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمر المسلمين ويصاب بضيم من أدرع بحصنه الحصيـــن، شـــكوى قمت بها بين يديك من حق أمرك الذي عضده مؤيده لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنفذه. وإن قاضيك ابن التوحيدي الذي أقمته في مالقة للأحكام ورضيت به فـــي عدله فيمن بها من الخاصة والعوام ولم يزل على حسن اختيارك"(٢٦).

ومما سبق يتبين لنا أن العرب لم يعرفوا المرافعة القضائية بصورتهـــا إلا منذ عصر النهضة، وأن ما حصلنا عليه ما هو إلا إشارات أو إرهاصات لهـــذا النوع من الخطبة وليس دليلاً على وجودها بشكل أصيل.

أصول الخطبة القضائية

لاشك في أن عمل الخطيب هو أن يقدم الحقائق أو ما يشبه الحقائق لإقناع سامعيه، والخطيب القضائي، في إدراك هذه الناحية، أولى من غـــيره، إذ يجـــب عليه أن يجذب المستمعين إليه، وأن يدفعهم إلى الإنصات له، والإذعان لما يقول والتسليم به لأنه يعتقد أنه يقول الحق وأنه يدافع عن الحق، وفي ذلك يقول ســـعد زغلول وهو أحد شيوخ رجال القانون والمحاماة والقضاء: "مجالس القضاء مكان لمغالبة الخصوم ومقارعة الحجج، وميدان فسيح للاستدلال الخطابي، كلٌ يحاول جذب القضاء إلى فكرته، وإقرار دعواه، وإجابة طلبه"(٢٧). فغاية المرافعة، سواء أكانت في حالة الدفاع أم في حالة الاتهام، إقناع القاضي بوجهة نظـــر معينـــة، لإبراز براعة المترافع الخطابية، "فكل ما ينحرف عن هذه الغاية ثرثرة لا طائل فيها أو تبجح لا يليق، وبالتالي فهو هدر للوقت وإساءة إلـــى الدعـــوى" (٢٨). ولا يستقيم هذا الأمر إذا لم يؤسس وفق أصول بحثت منذ القدم يقول فيها أرســـطو:

يراعي المرء في قوله ثلاثة أشياء: أولها: وسائل الإقناع، وثانيها: الأسلوب واللغة التي يستعملها، وثالثها ترتيب أجزاء القول[٢٩].

وأولى وسائل الإقناع هي الأدلة، وهي "ما يتوصل به إلى معرفة الحكم سلباً أو إيجاباً"[٣٠]. ولا يشترط فيها أن تكون يقينية بل يصح أن تكون ظنية قابلة أن ترفع إلى مرتبة اليقين في نفوس السامعين، وذلك بما يستعمله الخطيب من الوسائل. "والأدلة لها ينابيع تصدر عنها، وتستنبط منها، ويتجه إليها عند طلبها وتسمى مواضع"[٣١]. وقد تكون هذه المواضع ذاتية وهي التي تؤخذ من ذات الموضوع لا من شيء خارج عنه، وقد تكون عرضية، وهي التي تؤخذ من مصادر خارجة عن ذات الموضوع وذلك عندما لا يدرك السامع ما في ذات الموضع من حقائق فيصعب عليه أن يقتنع بأدلته[٣٢].

وفيما يخص الأدلة الذاتية فإن أهمها العلة والمعلول، ذلك أن التعليل روح الاستدلال، وكثيراً ما يستعمل المحامون ورجال النيابة الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيف العقوبة أو تشديدها، إذ إن العلة الباعثة على الفعل طريق للحكم عليه بأنه خير أو شر، كما يتخذون من البواعث على الإقرار أو الإنكار دلائل موجبة أو سالبة. ومن أمثلة ذلك ما جاء في مرافعة أحد المحامين الفرنسيين في إثبات أن الدافع لإقرار المتهم يدعو إلى عدم الأخذ به، إذ قال: "تقولون إنه لا بد من الحكم لأنه أقر، وتقولون إن هذا الإقرار حر، أما رأيتم كيف وصف لكم الشهود ذلك المنظر؟ ألم يظهروا لكم التأثير الذي كان المتهم فريسته؟ ألم يظهروه يقاوم، ويبكي ويقع على الأرض، ويجذب شعر رأسه ؟ ألم تروا أن العذاب النفسي الذي وقع المتهم فريسته هو الذي دفعه لأن يقر، ثم ما كاد ينهض على قدميه حتى لجأ إلى كل إنسان يحاول أن يسترد إقراره، فأسرع إلى محاميه وطلب منه بكل الظروف أن يدفع به للمحاكمة، وصار يصيح في كل فرصة وفي كل مكان: إني بريء إني بريء. افرضوا يا حضرات المحلفين أن نظام التعذيب كان لايزال قائماً، وجاءكم المتهم وأثر الحديد في يديه، وقد أفلت من قسوة معذبيه، فهل كنتم تقولون له أنت مذنب، لأنك اعترفت، إنه يقول لكم: لقد رأيت دمي يتساقط، وسمعت عظامي تتحطم، فغلبني ألمي، وقال الطبيب إن الموت قاب

قوسين أو أدنى، فغلبني الخوف، فأقررت، ولكني بريء، أكان منكم أنتم الذين تحاكموننا أو أنتم الذين تتهموننا، أكان منكم من يقول لقد أقررت وأنا أحكم عليك بإقرارك لا...ليس فيكم هذا الشخص"[٣٣]. يتضح مما سبق أن المحامي قد اتخذ من علة الإقرار والداعي إليه حجة على بطلانه ودليلاً على عدم الأخذ به.

وأما فيما يخص الأدلة العرضية فإن الشهادات والمواثيق أهمها، إذ يصفها أبو زهرة بأنها: "الركن الركين للاستدلال في الخطابة القضائية، فإن الشهادات باب واسع للتقاضي وهي طريق القرائن، والوسائل لمعرفة الأحوال، وفي بعض القضايا تكون هي نقطة الحوار وسبب الخلاف وتباعد مطارح الأنظار، هذا يعمل على تزييفها وذاك يعمل على تأييدها"[٣٤].

وأما الحجة الأولى في الخطب القضائية فإنها القوانين، وهي من الأدلة العرضية. فنرى كلا المتخاصمين يحاول تفسير القانون بشكل يتفق مع غرضه ومصلحة من نصب نفسه مدافعاً عنه، ومن أبلغ الخطب القضائية التي اشتملت على الاستدلال القانوني، مرافعة نائب عام فرنسي في إثبات الجريمة على رجل متهم بقتل نفسين إذ قال: "إنني أمام هاتين الجثتين، أمام هذين الجرحين الناغرين أشعر بالنفور والاشمئزاز يملأن نفسي. ويخيل إلي أني أرى حول تلك الدار الحزينة بجوار ذلك الزوج الذي يدعو زوجه: وتلك الطفلة التي تنادي أماً فلا تجيب، مدينة بأسرها في حزن شامل عام، وأرى ذلك المشهد الرهيب الذي تبعه أهل البلد جميعاً يشاركون أسرة الفقيدين في حزنها، ولكن لا، لا، إني أشيح بوجهي عن هذا المنظر المحزن، وأخلو إلى نفسي أسائلها ورائدي مهمتنا المشتركة المقدسة، وأوجه تبعة خطيرة، فلا أشعر بأقل شك أو تردد وأسمع صوت ضميري يقول لي: إن هذا الرجل مذنب، مذنب أمام الله، ومذنب أمام الناس، مذنب لا عذر له، وهذا الجرائم الخطيرة تقتضي عقوبة زاجرة رادعة، فالعدالة تقتضيها والقانون ينص عليها، ومصلحة المجتمع تدعو إليها، وبقدر ما أنا مؤمن بأني أؤدي واجبي حين أطلب منكم تطبيق تلك العقوبة الكبرى، أوقن بأنكم تؤدون واجبكم، حين تنطقون بها[٣٥].

ويمكن للمترافع أن يجمع بين المواضع العرضية والذاتية إذا اقتضى المقام ذلك، وقد يقتصر على أحدهما، وعند الاقتصار على العرضية يجب أن يختار أحراها بإظهار المطلوب، ويجب عليه الابتعاد عما يستغلق على العقول إدراكه أو يصعب فهمه إلا في حال مخاطبة قوم تكفيهم الإشارة عن العبارة، والتلويح عن التصريح فلا مانع أن يخاطبهم بالدقيق العميق[٣٦].

لغة المرافعات

مما لاشك فيه أن الأفكار القانونية تبقى حبيسة في الذهن ما لم يعبر عنها باللغة، سواء أكانت هذه اللغة مكتوبة أم منطوقة. ومما لاشك فيه أيضاً أن الثقافة القانونية للعاملين في مجال القضاء متقاربة، ذلك أنهم يقضون سنوات وسنوات يدرسونها في معاهد العلم وفي مجال ممارستهم لمهنتهم القانونية. أما ما يتمايز به العاملون في هذا المجال فهو اللغة، إذ إنها هي التي تحدد تفوق رجل القانون أو تخلفه، فالقانوني المتفوق هو الذي يجمع إلى جانب الفكر القانوني الناجح حسن التعبير عن هذا الفكر[٣٧]. وأرسطو إذ يتحدث في هذا الموضوع يرى أن كمال الأسلوب في الشعر والخطابة يعتمد على اللغة الواضحة الدقيقة دون إسفاف في الأسلوب ودون سمو لا مبرر له[٣٨].

وفن الخطابة عامة، والمرافعة بشكل خاص لا تبلغ النتائج المرجوة، إلا عندما يحسن الخطيب أو المترافع استعمال اللغة، وليس سهلاً على المحامي أو النائب العام أن يترافع ببساطة ووضوح وعفوية، فذلك لا يتحقق إلا بمعرفة لغوية دقيقة وإلمام عميق بأصول الخطابة. فالمرافعة في ساحة القضاء، كما يصفها الأستاذ حسن الجداوي "مباراة أسلحتها الوحيدة المعتمدة قوة البيان، وثبات الحجة، وقرع الحجة بالحجة، والتدليل المنطقي والاستعانة -لكن بقدر- بتأثير العاطفة واستدرار رحمة الحكم الذي هو القاضي أو استثارة غضبه واستنهاضه لتحقيق واجبه"[٣٩].

والحق في أكثر الأحيان جوهر نادر ثمين مستقر في الأعماق، فلا يتبلج

وحده كما يتبادر إلى الأذهان، بل إنه يكون خفياً عن الباحث لأن الباطل يخفيه بألاعيبه، أو لأن العهد طال عليه فصار كالمعدن الكريم المستقر في الأعماق، لذلك فمن العبث الاعتماد على قوته الذاتية، ولكن "لا بد من لسان فصيح يكشف الحجب عن الحق المستور"(٤٠). والقضاة بشر، ذوو وجدان تأسرهم البلاغة ويخلبهم جمال العرض ولين الاسترحام أو قسوة التحريض على الانتقام"(٤١) وقد قال رسول صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها"(٤٢).

لذلك كله، فإن المحامي بحاجة إلى بيان حسن ومنطق واضح وبلاغة عالية حتى يصرع حقه باطل خصمه.

والمرافعة، شأنها شأن الخطبة العادية، تنقسم وفق التصميم الكلاسيكي إلى مقدمة وجسم وخاتمة، وعن مضمون المقدمة يتحدث (كانتليانوس) في كتابه المؤسسة الخطابية فيقول "في المقدمة ينبغي إعلام القاضي دون إبطاء بما نريد بيانه في المرافعة وبالتصميم الذي اعتمدناه، وهي لا تتحمل الإسهاب بل يجب أن تكون موجزة كل الإيجاز، إذ على الرأس أن يكون منسجماً بحجمه مع الجسم" (٤٣).

ولكن هذا لا يعني أن تتحول المقدمة إلى برقية مقتضبة يعوزها الوضوح، بل لابد من أن تكون موجزة بالقدر الذي يسمح أن يقدم جوانب القضية واضحة وتامة.

ولننظر إلى مقدمة مرافعة الدفاع عن تهمة (تنظيم الجهاد) في مصر الواردة برقم ٢٨ لسنة ١٩٨٢ أمن دولة عليا إذ يقول "إننا ندافع اليوم عن مظلومين فيما نسب إليهم وعن مسلمين حاولوا إعمال الفكر الإسلامي لكنهم قوبلوا بأسوأ معاملة ونسبت إليهم أفعال جرمها القانون وهم منها براء.

حضرات المستشارين:

سوف أتحدث عن فكر ومبادئ وأهداف المتهمين التي وصفها ممثل الإدعاء بأنها آثمة، ولكن أقول له مهلاً ورفقاً بنا يا زميلنا الفاضل.... لأن هذه الأفكار وتلك المبادئ هي الإسلام بكماله وشموله، لأن الإسلام حياة كاملة للأسرة والفرد والمجتمع والبشرية كافة، فهو شريعة صالحة لكل زمان ومكان، وشريعة فوق كل الشرائع لا يكتمل أي أمر إلا بهذه الشريعة، والانتصار لهذا الدين أساس، والدفاع عنه واجب مفروض على كل المسلمين.

والمتهمون يريدون الانتصار لدين الله، وفي سبيل ذلك فإنهم مستعدون للموت، وإنه لا يكمل إيمان مسلم حاكماً أو محكوماً إلا بتطبيق شرع الله، والدليل على وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية مستمد من القرآن، إذ قال عز من قائل: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"(٤٤) وقال تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون"(٤٥) وقال جل وعلا:" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون"(٤٦) والمستفاد من قوله تعالى :"فاحكم بينهم بما أنزل الله"(٤٧) فهذا أمرٌ يدل على عدم مشروعية التحاكم بغير ما أنزل الله، وقاعدة الحكم بما أنزل الله لا خلاف عليها، وإن الله وصف الذين يحكمون بغير ما أنزل بأنهم كافرون ظالمون فاسقون.... فهدف المتهمين جميعاً إقامة الدولة الإسلامية التي تحكم بشرع الله"(٤٨).

إن هذه المقدمة تصلح لأن تكون نموذجاً يستدل بها على الخصائص اللغوية للمرافعة، فقد ألبس لغته ثوب العقل، ووجه ألفاظه لتخاطب فكر القاضي فحشد فيها ألفاظ الأدلة والثبوت والأحكام الشرعية، وبالاعتماد على هذا النموذج يمكن أن نستشف الخصائص اللغوية للمرافعة الناجحة وهي:

أولاً: الاستعمال الصحيح للغة من حيثُ النحو، فاللغة العربية تمتاز عن غيرها من اللغات في أن قواعد النحو تمثل جزءاً من معنى العبارة، وأي خلل في هذه القواعد يؤدي إلى خلل في المعنى، بل إن الخطأ في علامات الإعراب

الضمة والفتحة والكسرة يقلب المعنى تماماً، ويؤدي إلى الخلط بين المتهم والمجني عليه[٤٩] وقد نص على ذلك الجرجاني إذ قال "ليس النظم (نظم الكلام) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"[٥٠] فعلم النحو إذن ليس تأليف الكلمات بشكل صحيح داخل التراكيب وإنما هو أيضاً العلم الذي يعنى بأن تؤدي العبارة المعنى المطلوب أو المعنى المقصود. وليس مطلوباً من المترافع أن يكون عالم لغة، وإنما كل ما هو مطلوب منه أن يكون لديه ثقافة لغوية لأن يكتب وينطق بشكل صحيح.

ثانياً: إن المترافع في الغالب يخاطب هيئات ذات حظ معقول من الثقافة العامة، فلا بد من احترام هذه الثقافة[٥١] بأن تكون ألفاظ المرافعة ملائمة للذوق اللغوي السائد عند أهل القانون، فهم مثل غيرهم من الطبقة المثقفة، لغتهم قريبة من الفصحى وأعلى من العامية، ولا يجوز له الانحدار إلى العامية إلا إذا صعب عليه تصوير فكرته بالفصيحة. أو إن أراد أن يأتي بنكتة تفكهة للسامعين، أو أن ينقل عبارة شاهد ليناقشها. ويمكن للنكتة أن تكون بلغة فصيحة، ومن أمثلة ذلك ما قاله عمر عارف الذي ترافع في قضية قذف مشهورة كان المتهم فيها موظفاً استباح لنفسه أن يتدخل في السياسة وجمح به قلمه ونال من رجل كريم فقال: ولكن المتهم آثر التعرض للسياسة وما هو لها وانصرف إلى التشيع فيها، ورضي أن يكون موقفه منها موقف الزبانية من جهنم فهو يطلع على خصومه يشع وجهه ناراً، منتفخ الأوداج ينضنض بلسانه على لقم الطريق، إن تعرضوا له يلهث وان تركوه يلهث، ثم إذا فرغ من تعذيب الناس مما رماهم به من جارح القول، عاد يتصبب عرقاً وأخذ مجلسه من ديوان الصناعة والتجارة يمد يداً للوظيفة يعدها قرشاً قرشاً، ويمسح عرقه بالأخرى كأنه أبلى في عمله الحكومي الذي أؤتمن عليه"[٥٢].

وهناك من يرى "أن العربية الفصيحة ما تزال إلى اليوم لغة صنعة، وأنها ما تزال تجهد المخاطَب والمخاطِب معاً، والإجهاد إذا طال انتهى إلى الملل والسأمة" [٥٣].

لذلك لا بد من بقاء العامية في رأيه لغة مرافعة إضافية لرواية اللطـــائف أو صياغة الملح والنكات كي يخفف بها الضجر ويطوي ملل الجلسات الطويلـــة وحجته في ذلك ألا ضرر في بقائها إذ إنها لغة كـــلام متبخـــر زائـــل بـــزوال الجلسة(٥٤). وعلى كل حال فلا بد للمرافعة من أن تكون بلغة مرسلة لا تشـــادق فيها ولا تفيهق، بعيدة عن التكلف سالمة من السجع.

ثالثا: إن لغة المرافعات لغة حديث لا لغة كتابة، وعلى هذا فإن المتحدث بحكم طبيعة الموقف مضطر إلى مواصلة الحديث في غير توقف أو تردد، فيلجأ إلى الابتكار والارتجال مستعيناً بوسائل الإلقاء من حركة وإشارة ونبرات وقـــوة شخصية وسرعة بديهة.

وإذا كان المترافع مضطراً إلى أن يعد مرافعته فإنه يراعي أن يكتبها بغير لغة الكتابة، فلا يستعمل الألفاظ المنمقة ولا يحتال على المعاني البعيدة ولا يطلق العنان لخياله فيأتيه بصورة شعورية رائعة، وذلك لأن الحاجة تدفعه إلى إفهـــام سامع يرمقه بعين تشع انتظاراً قد ينقلب في لحظة إلى تململ أو سأمة(٥٥).

ولنسمع إلى المحامي الشهير "فارير" يحدثنا عن طريقته في إعداد مرافعاته فيقول إنه كان يفكر أياماً قبل المرافعة في قضية عظيمة فإذا ما دنت الجلسة أوى إلى مكتبه وترك قلمه حراً يسجل ما يجول بخاطره كأنه يخطب فـــي المحكمـــة، فإذا ما فرغ طوى ما كتب وقد ارتسم في ذهنه واتضحت أمامه معالم الدفاع، ثم يترافع بما رسم، معتمداً على موهبة الارتجال(٥٦).

وهناك بعض الحالات لا بد فيها من الاعتماد على الألفاظ الفخمة، فالقضايا الجنائية والسياسية الخطيرة تلائمها العبارات الخطابية الاحتفالية لهجة وإنشـــاء؛ مثال ذلك تلك العبارات التي خاطب بها المحامي هيئة المحلفين بقوله "يـــا إلـــه المؤمنين اهبط من عليائك واستقر في هذه القاعة وفي قلوب المحلفين، قل لهم إن حق الحياة وإرادة الموت ملكك وحدك، وأنتـــم يـــا مـــن ســـتتحملون أصعـــب المسؤوليات، ليكن حكمكم مبرئاً لكم من المثول بسببه أمام اللـــه يـــوم الحســـاب

الكبير"[٥٧].

على أنه يجب أن لا يغيب عن الذهن أن مثل هـذه العبـارات الخطابيـة تستلزم مواهب خطابية كبيرة وسيطرة تامة على اللغة، فيخشى أن يجد المترافع نفسه عاجزاً عن متابعة هذا الأسلوب الفخم فينحدر هابطاً عن الذروة التـي بـدأ منها إلى الدرك المعاكس مما يزعج السامعين لأنه يتنافى مع أصول البلاغة.

ومن المرافعات التي حاول فيها صاحبها أن يكون أسلوبه فخماً بليغاً دون كفاءة فإذا به يبدو مبتذلاً متكلفاً، مرافعة النائب العام في دعوى سيدة متهمة بدس سم الزرنيخ لزوجها وقتله إذ يقول "هل ستقولين (ياماري كابل) إن والدة (شارل لافارج) هي التي سكبت له السم؟

ولكن احذري غضب المحلفين إذا خطرت لك هذه الفكرة. إذا ادعيت مثل هذا الادعاء فإنك سترتكبين جناية جديدة تدفع هؤلاء المحلفيـن إلـى قسـاوة لا يضمرونها لك الآن. أمامكم على هذا المقعد، أجل، (يا ماري كابل) هذا أنت التي وضعت السم لزوجك، أنت التي عذبته بالسم خلال خمسة عشر يوماً، أنت التـي اشتريت السم واشتريت منه كثيراً. إذا لم تكوني مذنبة فلا يكفيك أن تقولي إنـك مقتنعة ببراءتك، بل عليك أن تدلينا على الذي أبدل قرص الحلوى السليم وعلبته بقرص آخر مسمم وعلبته. ثم قولي لنا ماذا صنعت لنا بكميات الزرنيخ الكبـيرة التي اشتريتها؟ أيها المحلفون الذين لا أعرفهم ولا يعرفوني[٥٨]. ولكني مجـذوب إليهم بالعاطفة التي تشدني إلى هذه المنطقة حيث ولدت، أيها المحلفون: كونـوا أوفياء لقسمكم، لا تتصلوا بأحد أرجوكم... لا تتأثروا خارج القاعة بأي انطبـاع يمكنه أن يفعل فعله بعنف في قناعتكم ويشوه طهارة حكمكم، هذا ما أطلبه منكم، ولكن أطلب منكم قبل كل شيء أن تكونوا عادلين، ولن تكونوا عادلين إذا قبلتـم بتدخلات أي إنسان يحاول أن يخلص بأي ثمن امرأة لا يمكن أن تخلص"[٥٩].

ففي مثل هذه المرافعات وبرغم وضوح الأدلة، فإن المترافع لم يستطع أن يرتفع بلغته إلى مستوى الأدلة، وكثيراً ما تهبط اللغة الركيكة والهزيلـة بالأدلـة

القوية، وفي الجهة الثانية، إذا كانت القضية سيئة في مجملها، فإن على المترافع أن يبتعد عن لغة المبالغات غير المعقولة والأكاذيب الصارخة والحجج الواهية، وعليه أن يعترف بسوء وضعه بمعالجة لغوية تؤدي الغرض المطلوب، ومن ذلك ما قاله محامي الدفاع (بوديه) في قضية قتل إذ قال: "لاشك في أن موكلي قتل دون أن يعي ماذا يفعل، قتل لأنه فقد صوابه وسط زحمة التفاصيل غير المقصودة، صحيح أن هناك ضحية بريئة، لكن الصحيح أيضاً أنه لا يجوز التضحية بضحية أخرى (والتفت إلى المحلفين قائلاً) إن مقتل الشرطي حصل في جو ساخن من الذعر والفوضى، أما أنتم فإنكم ستصدرون حكمكم بهدوء، فلا تدعوا (فش) يموت بحكم منكم ويكون موته قد تم في جو أين منه جو الجريمة المقترفة"(٦٠).

فالمحامي هنا بدأ مرافعته بالاعتراف أن موكله قاتل، دون أن يبالغ في تبرير موقف المتهم، وبدلاً من ذلك راح يستعمل الألفاظ التي تخاطب عواطف المحلفين وتهز مشاعرهم.

رابعاً: إن المرافعة مخاطبة لمشاعر القضاة وعقولهم في آن واحد، ولهذا لا بد في لغتها من أن تكون مطابقة لمقتضى الحال، فإذا ما أراد النائب أن يتحدث عن الجانب القانوني في القضية فإنه عندئذ يخاطب عقولهم. فيعرض الأدلة بلغة هادئة متزنة خالية من عبارات الحماسة مما يؤدي إلى الاقتناع العقلي بالدليل. وأما إذا ما عرض إلى قوة القانون وسلطانه، فيختار الألفاظ الفخمة والعبارات القوية "ليلقي في روع السامعين مهابة القانون فيلتزموا خط الطاعة ويخاف العصاة صولة العقاب"(٦١).

وإذا ما وجد النائب نفسه أمام هيئة من الدفاع من أهل البيان واللسان، ورأى محاولتهم التأثر بالكلام، فمن مصلحة العدالة أن يكون هناك تفوق للاتهام على الدفاع، لذلك عليه أن يشهر عليهم مثل سلاحهم دون تحيز ولكن سعياً لإحقاق الحق والدفاع عنه، ولا ينسى أن غايته الإقناع وفي ذلك يقول أرسطو: الإقناع هو ما يسعى إليه الخطيب وهو غاية الخطابة، ولا يتحقق بأي معان اتفقت

ولا بأي أحوال عرضت، بل إنه يقع بمعان مخصوصة وهيئـــات مخصوصـــة، وفصاحة الألفاظ يجب أن تحوي المقدرة على الإفهام والإفصاح عن المعاني كما يجب أن تكون حسنة الموقع على الأسماع، لاتنفر منها الأذواق ويجب أن تكون قادرة على تحقيق المراد من تعظيم المعنى عند إرادة التعظيم أو تحقـــيره عنـــد إرادة التحقير[٦٢]. والمحامي في هذا الجانب مثل النائب، فلا بد من أن يمثل قدرة على تطويع اللغة باستعمال مفردات تنقل الصورة التي يريدهـــا وفـــق مقتضـــى الحال، وهذا لا يكون إلا بامتلاكه ثروة لغوية كبيرة، يصرف بها فنـــون القـــول ويسلك طرق البيان فيعرف كيف يثير الوجدان ويمـــس المشـــاعر، "وإن كـــلام المحامي ليبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح لـــه قوة السحر"[٦٣] ولنسمع إلى ختام مرافعة الأستاذ أحمد لطفي عن الورداني قـــاتل رئيس وزراء مصر بطرس غالي، إذ حشد فيها الألفاظ التـــي تمـــس العاطفـــة، وتؤثر في المشاعر:- "أما أنت أيها المتهم فقد همت بحب بلادك حتـــى أنســـاك ذاك الهيام كل شيء حولك، أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة، فتركتهما تبكيان هذا الشاب الغض، تركتهما تتقلبان على جمر الغضـــا، تركتهما تقلبان الطرف حولهما فلا تجدان غير منزل مقفر غـــاب عنـــه عائلـــه، تركتهما على ألا تعود إليهما، وأنت تعلم أنهما لاتطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة، فأنت أملهما ورجاؤهما. دفعك حب بلادك إلى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شيء غير وطنك، فلم تعد تفكر في تلك الوالدة البائسة، وهذه الزهـــرة اليافعة، ولا فيما ينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه، ونسيت كل أملك في هذه الحياة، وقلت إن السعادة في حب الوطن وخدمة البلاد، واعتقـــدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هي تضحية حياتك، أي أعز شـــيء لديـــك ولدى أختك ووالدتك، فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً، ولا حبـــاً في الظهور، أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك، ففي ســـبيل أمتك بعت حريتك بثمن غال.

فاعلم إذاً أيها الشاب أنه إذا اشتد معك قضاتك – ولا إخالهم إلا راحميك – فذلك لأنهم خدمة القانون، وهذا هو السلاح المسلول فوق رأس العدالة والحرية.

وإذا لم ينصفوك – ولا أظنهم إلا منصفيك – فقد أنصفك ذلك العالم الذي يـــرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الإجرام، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك، وســـواء وافق[٦٤] اعتقادك الحقيقة أم خالفها فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها.

وإن هناك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بها الناس، وهي أنك لست مجرمـــاً سفاكاً للدماء، ولا فوضوياً من مبادئه الفتك ببني جنسه، ولا متعصباً دينياً وإنمـــا أنت مغرم ببلادك هائم بوطنك.

فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى، فإن صورتك في البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك، وتقبل حكـــم قضـــاتك باطمئنـــان واذهب إلى مقرك بأمان"[٦٥].

وفي بعض القضايا الجنائية، يلجأ المحامي إلى العبارات الفخمة إذا أراد أن يصور حماسة المتهم في الدفاع عن دينه أو نفسه أو عرضه مثلاً، ليكون بذلـــك ناقلاً لقوة حماسة موكله واندفاعه فيما يفعل، ففي قضية تنظيم الجهـــاد الســـالفة الذكر[٦٦] استطاع المحامي أن ينسب التهمة إلى فـــرض مـــن فرائـــض الديـــن الإسلامي، وراح يستأنس بلغة الخطبة الدينية بالاستناد على كتاب الله العزيز أو بالسنة النبوية والأثر، وفي الوقت الذي رأت فيه النيابة أن تهمـــة الجهـــاد فعـــل إجرامي، الغرض منه قلب نظام الحكم، رأى المحامي أن المتهمين أناس مؤمنون يريدون الانتصار لدين الله ولأجل هذه الغاية يضحون بأنفسهم.

ولا ننسى أن لغة المرافعة لغة التماس، وعباراته يجب أن تكون عبـــارات إكبار وإعظام وهذا لا يقتضي التذلل أو الضعة في توجيه الخطاب، بل هي فـــي الوقت نفسه لغة عزة وجرأة.

ولنسمع إلى ديسيز وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنـــه أمـــام الجمعية التأسيسية في وقت جمعت فيه هذه الهيئة في يدها جميع السلطات، فلـــم تأخذه في الحق لومة لائم وقدم مرافعته بلغة جريئة إذ قال: "أيهـــا المواطنـــون! أخاطبكم بلسان الرجل الحر، إني أبحث بينكم عن قضاة "للويس" وأنتم خصومه؟

أتريدون أن تجلسوا للحكم في قضية لويس ولكم فيها رأي يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها؟ أيكون لويس الفونسوي الوحيد الذي لا يحميه القانون ولا يتبع في محاكمته إجراء واحد صحيح؟ أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن. أيخذله القانون حاكماً ومحكوماً؟ ياله من مصير عجيب لا يتصور"(٦٧).

ومن مطابقة اللغة لمقتضى الحال أن يكون الإسهاب في موضعه والإيجاز في موضعه. والمترافع يراعي أن كل تطويل في غير التحليل والتفصيل عند الحاجة إضاعة للوقت، وكل إيجاز فيه نقص وتعمية وإيهام وإخلال بالواجب المناط(٦٨)، لذلك وجب عليه أن يختار الألفاظ من غير حشو أو نقص، مع العناية بترتيب الألفاظ لتكون مستوفية للمعاني التي تدل عليها.

خامساً: وما يجعل إدراك المعنى صعباً أو ملبساً إكثار المترافع من الجمل الاعتراضية وإطالة الجملة إطالة مسرفة وإيراد الألفاظ الغريبة والحوشية، إذ إن عليه أن ينقل أفكاره بألفاظ وجمل تضمن له الفهم السريع وبالتالي التأثير والاستجابة، وأكثر المترافعين كانوا حريصين على هذه الصفة، فقلما نجد في خطبهم التواء في التعبير أو تقصيراً لفظياً، ولننظر إلى مرافعة الأستاذ عبد اللطيف محمود المحامي عن المتهمين بالحق المدني في قضية مقتل أمين عثمان باشا، سنرى إكثاره من الجمل المعترضة مما أدى إلى بطء في الفهم. إذ يقول:- "سأحاول جاهداً مثلكم أن أصدق كل هذا، لأن خليطاً من الشباب الفاسدين -من شباب هذا الجيل- وهم بحمد الله قليلون، ولا أجد ما أصفهم به أبلغ مما وصفتهم به النيابة- قام بخلده أو بث فيه أن دمه حل لهم مباح سفكه بمقولة أنه كان من أنصار الإنجليز" (٦٩) ولم يبق لنا إلا أن نقول ما قاله الأستاذ زكي عريبي المحامي من أن الناس قد اتفقوا" من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنته، وتواضعوا على وجوب أن يكون المحامي فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاعباً بالعقول والقلوب" (٧٠).

أساليب المرافعات

مهما كانت طبيعة العمل، فإن صاحبه لا يكتفي بإيصال المعلومات إلى المستمعين حتى يوصف بالبلاغة، بل لا بد له من أسلوب يسلكه في إيصال أفكاره، وفي هذا يتحدث أحمد الحوفي فيقول: "ليست البلاغة أن تفهم المعنى وإلا لتساوت الركاكة والتعبير والإشارة، والجيد والرديء والعامي والفصيح، وإنما البلاغة وثبة فوق إفهام المعنى. رتبة سمكها الامتياز في التعبير، ومطابقته للحال"(٧١) والأسلوب كما يعرفه أحمد الشايب "الطريقة التي يسلكها الإنسان في تأليف كلامه واختيار ألفاظه"(٧٢).

وأسلوب المرافعة مستمد من هذا الفن الذي تمتزج فيه الأدلة التي تكفل الإقناع بالإثارة التي تحقق الاستمالة، فلا غرابة أن يكون لها أساليب خاصة تتغير حسب ما يقتضيه المقام برغم أن المفردات المستعملة واحدة، وقواعد تركيب الجملة واحدة.

والمرافعة موجهة بالدرجة الأولى إلى عواطف القضاة ثم إلى عقولهم. وما دامت الأدلة التي تخاطب العقول ثابتة، فإن التغيير يكون في أساليب مخاطبة العواطف، ولعل الأسلوب الإنشائي بما فيه من تعجب واستفهام ونداء وتمن وأمر ونهي ودعاء، مع ما تؤديه هذه الصيغ من معان مجازية إضافية كالتوبيخ والتقريع والتهديد والتهكم والعرض والتحضيض، خير أسلوب يخاطب عواطف القضاة، وفيما يلي نلقي الضوء على تلك الأساليب وأثرها في عواطف القضاة.

أسلوب التعجب

كثيراً ما يلجأ المترافع إلى أسلوب التعجب في مرافعته وذلك، من أجل تقريب وجهة نظر أو توكيدها. يقول المحامي (أوبان) المترافع عن السيدة (ماري استانهيل) المتهمة بقتل زوجها: "إن موكلتي- سيدي الرئيس- حاولت أن تقول في استجوابها كل ملابسات القضية، وإن رأى دفاع النيابة أن هناك تناقضاً في الأقوال، فما هو إلا أن الصورة التي عاشتها وتعيشها مشوشة لا تكاد تصدق،

وأن أطراف القضية متشعبة، فما أكثر ما يخلط الإنسان حين تزدحم عليه الأفكار إلى الحد الذي يرى في نفسه تناقضاً في التوجهات والإرادة"(٧٣).

ففي هذه الفقرة من مرافعته استعمل المحامي أسلوب التعجب في قوله: "ما أكثر ما يخلط الإنسان حين تزدحم عليه الأفكار" وهو بذلك دعم فكرته في أن التناقض في الأقوال ناشئ عن تشعب ملابسات الحادث، وهو بذلك يفند رأي النائب العام في أن هذا التناقض دليل على تجريمها.

أسلوب الاستفهام

مما لاشك فيه أن أسلوب الاستفهام سواء أكان حقيقياً أم مجازياً يعد الأسلوب الأكثر استعمالاً في المرافعات القضائية، إذ لا تكاد تخلو مرافعة من الاستفهام الذي قد يخرج عن معناه الحقيقي إلى معان مجازية أخرى تؤدي وظيفة يرمي إليها المترافع. ولننظر إلى مرافعة أحد المحامين عن متهمة بسدس السم لزوجها وقتله، سوف نرى كيف وظف الاستفهام لخدمة غرضه إذ يقول: "وبعد هذا، من يستطيع أيها السادة المحلفون أن يمسك بكم؟ كيف يمكنكم أن ترددوا معي بكل إخلاص ومن أعماق ضمائركم: لا! هذه المرأة ليست مذنبة لأنه لا يمكنها أن تكون مذنبة ! ولكن يا للأسف. هذا كل ما يمكنكم فعله من أجلها، أما مالا تستطيعونه إطلاقاً فهو إعادة الإزهار إلى حياتها التي ذبلت إلى الأبد. ما لا تستطيعونه هو الحؤول دون أن تكون هذه المرأة أشقى نساء الأرض! انظروا!!!! هل من مصير أدعى إلى التحسر من مصيرها؟" (٧٤) فصيغة الاستفهام الأولى "من يستطيع أن يمسك بكم" تحمل معنى النفي، في حين أن الصيغة الثانية "كيف يمكنكم أن ترددوا معي..." تتضمن معنى الطلب، أي رددوا معي. والصيغة الثالثة "هل من مصير أدعى إلى التحسر من مصيرها" تتضمن معنى النفي مثل الصيغة الأولى. وإضافة إلى معنيي النفي والطلب فإن الاستفهام قد يكون إنكارياً أو توبيخياً مما يؤدي بالقاضي إلى إعادة النظرة بعد النظرة في كلام المتهم قبل تكذيبه. ويتضح هذا الأسلوب في هذه القطعة من مرافعة أحد المحامين عن متهمة بقتل امرأة أخرى.. إذ يقول: "لقد حاولت موكلتي في

استجوابها إيضاح علاقتها بالمجني عليها، ولقائها بها قبل الحادث وهي تشكو لها استمالتها لزوجها، وقد وعدتها المجني عليها أن تبتعد عن زوجها، وطمأنتها أن الأمر سينتهي، وأن زوجها سيرجع إليها وإلى بيتها... فكيف تشككون بكلام موكلتي ولا تطمئنون إليه. وقد كانت غير ملزمة بالحديث عن تلك التفاصيل فضلاً على أن المحكمة ليس لديها ما يؤيد تلك المحادثة"(٧٥).

ومن أجل تشويق القاضي يلجأ المترافع إلى أسلوب الاستفهام وذلك بوضع مجموعة من الأسئلة يجيب عنها عند نهاية كل سؤال، إذ يثير السؤال في نفس القاضي حب الاستطلاع لمعرفة الجواب، مما يدعوه إلى التيقظ والإصغاء، فتصبح تلك الإجابة باقية متمثلة في ذهن القاضي. ومن هذا النمط ما قاله وكيل النائب العام في قضية اتهمت فيها امرأة بقتل أمها وزوجها إذ قال في مرافعته: "لماذا أقدمت المتهمة على كل هذه التناقضات؟ لأنها كاذبة! ولماذا أقدمت على قتل أمها وزوجها في ليلة واحدة ؟ هذا هو اللغز الأكبر"(٧٦). ومثل آخر ما قاله محامي الدفاع في القضية نفسها: "قبل كل شيء نعرف جميعاً أن لا جريمة بلا سبب. هل الخلاف الزوجي هو الدافع هنا؟ لم يثبت التحقيق إطلاقاً أن المودة كانت مفقودة بين المتهمة وزوجها أو بينهما وبين أمها بل العكس هو الصحيح"(٧٧).

وقد يعمد المترافع إلى أسلوب الاستفهام دون أن يجيب عنه وهذا الأسلوب مستحسن إذ كانت جميع الأسئلة فعالة ومؤدية إلى إجابة واحدة يستنتجها القاضي بشكل حتمي، وفي القضية السابقة يعمد وكيل النيابة إلى هذا الأسلوب فيقول: "إن المتهمة تدعي أنها بريئة، ولكن إذا كانت بريئة لماذا كذبت، ولماذا حاولت اتهام خادمتها ثم حاولت اتهام ابن خادمها؟ ولماذا أخيراً حاولت اتهام الصحفي الأمريكي؟ ولماذا زعمت أن سبب الجريمة هو السرقة؟ وقد ثبت أن لا سارق ولا مسروق"(٧٨).

فمجيء هذه الأسئلة بهذا الزخم والتكثيف يؤدي إلى نتيجة واحدة وهي عدم براءة المتهمة، كما يرى وكيل النيابة، ولا سيما أنها جاءت بعد جملة "تدعي فيها

المتهمة أنها بريئة".

وعلينا ألا ننسى أن الإسراف في استعمال هذا الأسلوب، وبخاصـــة فـــي الحالات التي لا تؤدي إلى نتيجة واضحة-يؤدي إلى سأم القاضي والمســـتمعين مما يؤدي إلى عدم الاستماع الجيد، وحصول نتيجة معاكسة للمطلوب، ومن ذلك ما في مرافعة أحد المحامين عن متهم بقتل زوجته. إذ يقول: "أتدرون لماذا فعل موكلي كل هذا الذي فعل؟ أتدرون لماذا عامل موكلي زوجتـــه هـــذه المعاملـــة؟ أتدرون كم كان موكلي متسامحاً مع زوجته؟ أتدرون كيف كانت زوجة موكلـــي تعامله وتتعايش معه؟ فماذا يصنع المسكين وقد حامت حول زوجته الشبهات"(٧٩).

أسلوب السخرية

ذكرنا سابقاً أن المرافعة الناجحة هي التي يسلك فيهـــا صاحبهـــا طريـــق الوضوح في لغتها ومعانيها، وذلك كي يستطيع القاضي أن يفهمها دون أن يجهد تفكيره في حل ألغازها وأفكارها، لكن المترافع يلجأ إلى قول أشياء ويقصد بهـــا أشياء أخرى وذلك بقصد السخرية من موقف معين أو من قول لخصمه، وإذا ما كانت هذه السخرية غير ملبسة فإنها تؤدي دوراً فعالاً في نتائجه، ففـــي إحـــدى القضايا أمام واحدة من المحاكم اللبنانية صور محامي الادعـــاء جـــراح موكلـــه البسيطة بشكل مبالغ فيه، فرد عليه محامي الدفاع بأسلوب ساخر مما تسبب فـــي تخفيف الحكم عن المتهم، فقال بلهجة هازئة: "تحدث الزميل الكريم وكيل المدعي عن الجراح (الثخينة الخطيرة) التي أصيب بها موكله على أثر ضربـــه (ضربـــاً مبرحاً) من جانب موكلي المدعى عليه (المتوحش) وقد نال المضروب تقريـــراً طبياً بثلاثة أيام للراحة لا يتعطل خلالها عن العمل، ووكيل المدعي يستند إلـــى هذا التقرير (الخطير) كي يطلب ما يعـــادل قيمـــة عشـــرة آلاف دولار عطـــلاً وضرراً مع العلم أنه يحتفظ ضمناً بحق المطالبة بفرق سعر الدولار...، إن مـــن يسمع وكيل الجهة المدعية يصف جراح موكله ويحدد ثمنها يظنها جراح الســـيد المسيح، المجد لاسمه وتعالت جراحه عن كل تشبيه"(٨٠).

أسلوب التكرار

الكل يعلم أن التكرار من الأساليب الممقوتة في الأعمال الأدبية، وأن تكون ممقوتة في المرافعات القضائية أولى، وذلك لأن رد الفعل يكون آنياً وقد يؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب، إذ إنه يؤدي إلى الملل والسأم. لكن المترافع قد يلجأ إلى أسلوب التكرار في بعض الأحيان بغرض ترسيخ فكرة عند القاضي وزيادة في استدعاء انتباهه. ولنستمع إلى أحد المحامين يترافع عن موكله ويحاول ترسيخ فكرة براءته عند القاضي إذ يقول: "كل شيء يثبت أن موكلي بريء، لم يحاول الهرب من وجه القضاء، إنه بريء، لم يرد في كلامه أي تناقض، إنه بريء، لم يقل شاهد واحد إنه كان في مكان الجريمة ساعة ارتكابها، إنه بريء، أثبت وجوده في مكان آخر، إنه بريء"[٨١].

ولنستمع إلى النائب العام عبد الخالق ثروت يترافع في إحدى القضايا لنرى كيف وظف أسلوب التكرار إذ قال: لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون في استباحة القتل وإراقة الدماء تخلصاً مما صور حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا في الخلاص من جهالتهم التي هم فيها يعمهون. إن هذه الأفكار الطائشة الخطرة كالسلاح في يد المجنون الهائج، إن لم يعجل بنزعه منه قوة واقتداراً كانت العاقبة وبالاً. وعلى من هذا الواجب الخطير الشريف؟ إنه عليكم الآن يا حضرات المستشارين. أمحوا هذه الأفكار الخطرة، وانزعوا هذا السلاح القاتل، انزعوه من أيدي هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره المستطير، انزعوه بحكم ترضاه الحكمة وأصالة الرأي. إنكم بذلك لا تكسفون الرحمة والعدل، بل تزيدونهما رواء وجمالاً. أليس من الرحمة والعدل أن تحموا أرواح الأبرياء؟ أليس من الرحمة والعدل أن تبعثوا الطمأنينة في القلوب الواجفة؟ أليس من العدل أن ترحموا صغاراً كالغصون الرطبة أوشكت أن تلتوي على الشر تقليداً أعمى للمتهمين وأمثالهم؟"[٨٢].

لقد وظف النائب العام التكرار في هذه المرافعة توظيفاً رائعاً، فبعد أن قدم للقضاة وجهة نظره في خطورة الأفكار التي يتبناها المتهمون وضرورة التخلص

منها، راح يدعوهم إلى الحزم والشدة في معاملة هؤلاء المتهمين وذلك بتكرار كلمة "انزعوا" بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من شدة، ولم يكتف بذلك، ولكنه حرصاً على استثارة همم القضاة في تحقيق طلبه، فإنه راح يخاطب عواطفهم أيضاً بتكرار أسلوب الاستفهام التقريري وارتكازه على كلمتي الرحمة والعدل في قوله "أليس من الرحمة والعدل" وذلك من أجل تسويغ ما يستحثهم على تحقيقه، وبذلك يرسخ في قلوب القضاة أن ما سيحكمون به في حق هؤلاء المتهمين ما هو ألا الرحمة والعدل.

أسلوب المخاطبة المباشرة

المرافعة على العموم هي نوع من الحوار، أو الحديث الذي يسمونه (مونولوج)، هي حديث يوجهه المحامي إلى القاضي[٨٣]، لكن المترافع أحياناً، يجد من الضروري أن يتوجه مباشرة إلى خصمه أو إلى المتهم من أجل الوصول إلى نتيجة حاسمة مفحمة، أو من أجل التأثير على القضاة وذلك بإقرار حقيقة يراها المترافع، فيحاول بهذا الأسلوب أن يرسخ فكرته في عقولهم. وخير مثال على ذلك ما فعله الأستاذ أحمد لطفي في مرافعته دفاعاً عن المتهم بقتل بطرس غالي إذ قال مخاطباً المتهم: "أما أنت أيها المتهم، فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شيء حولك..."[٨٤].

ولكن أسلوب المخاطبة هذا يفقد فاعليته إذا لم يحسن المترافع تقديمه بلغة قادرة على تمثيل فكرته بالشكل الأفضل مثلما خاطب وكيل النيابة متهمة بقتل زوجها فقال: "هل ستقولين يا (ماري كابل) إن والدة (شارل لافارج) هي التي سكبت له السم ؟ ولكن احذري غضب هيئة المحلفين إذا خطرت لك هذه الفكرة، إذا ادعيت مثل هذا الادعاء فإنك سترتكبين جناية جديدة تدفع هؤلاء المحلفين إلى قساوة لا يضمرونها لك الآن.... أجل يا (ماري كابل) هذا أنت التي وضعت السم لزوجك، أنت التي عذبته بالسم خلال خمسة عشر يوماً. أنت التي اشتريت السم واشتريت منه كثيراً. إذا لم تكوني مذنبة فلا يكفيك أن تقولي إنك مقتنعة ببراءتك، بل عليك أن تدلينا على الذي أبدل قرص الحلوى السليم وعلبته بقرص آخر

مسمم وعلبته، ثم قولي لنا ماذا صنعت بكميات الزرنيخ التي اشتريتها؟"[٨٥]، فبالرغم من قوة الأدلة التي يمتلكها وكيل النيابة فإنه قد أفسد مرافعته بعدم مقدرته على توظيف أسلوب المخاطبة لخدمة الأدلة، فجاءت لغته مقصرة عن الوصول إلى مبتغاه.

استعمال الاستعارة والتشبيه

ذكرنا سابقاً أن القضاة بحاجة إلى الكلام الواضح السهل الذي لا يحتاج إلى جهد عقلي كبير كي يفهم، ولكن هذا لا يعني أن المترافع مكلف بالابتعاد عن الاستعارة والتشبيه والكناية، بل على العكس من ذلك، فإذا ما عرضت له استعارة تسهم في توضيح الفكرة وإبرازها فلا حرج عليه في استعمالها ما دام هذا الاستعمال لا يقود إلى الغموض، ذلك أن الغموض هو السيئة الكبرى في المرافعة. ومن الاستعارات الجميلة الملائمة ما قاله أحد المحامين في نهاية مرافعته: "أنا واثق منكم -سادتي القضاة- إنكم ستخلون في محراب العدالة المقدس إلى أنفسكم، فتقررون مصير هؤلاء المتهمين"[٨٦].

ومن التشبيهات الناجحة ما قاله المدعي العام راجي الراعي في مرافعته مخاطباً المتهم الذي كان أحد رجال الدين وأجرم انتقاماً، إذ قال: "لقد أجرمت انتقاماً، وكان الجدير بك، وأنت رجل دين أن تصفح وتغفر فتكون كشجرة الصندل التي تعطر فأس قاطعها"[٨٧].

فلا بد للمترافع إذن من أن ينوع في أساليب القول، إذ إن الافتتان في التعبير عن المعنى بأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير التي ينبغي على المترافع اتباعها وذلك حتى يكتسب كلامه جدة، ويستحق الإصغاء الجيد من القضاة والمستمعين.

طرق أداء المرافعات

ذكرنا أن الهدف الأول والأخير من المرافعة هو إقناع المحكمة بوجهة

نظر المترافع سواء أكانت اتهاماً أم دفاعاً، وعلى هذا الأساس، فإن المترافع لا يصل إلى هذه الغاية إلا إذا كانت أفكاره متسلسلة، مدعمة بالأدلة اللازمة، ومعتمدة على معرفة كافية بالقانون.

ومن أجل أن يحقق المترافع حظاً أكبر من تسلسل الأفكار. فإنه يلجأ إلى الإعداد المسبق للمرافعة؛ وإعداد المرافعات يجب أن يمر بخطوات تقضي إلى الغاية المرجوة، فبعد جمع الأدلة واستخلاصها وترتيبها بشكل متماسك ومتسلسل، يبدأ بإعداد الردود على خصومه، وذلك بأن يتخيل نفسه في موقع خصمه وينظر في القضية ويرى ما يمكن أن يكون سلاحاً ضده فيعد له الرد المناسب، ثم يأتي ترتيب المرافعة، ولا بد من أن يبدأ بأقوى الأدلة كي ترسخ في نفس القاضي فيصبح من العسير انتزاعها[٨٨].

وإذا ما حانت ساعة إلقاء المرافعة، ألقاها ارتجالاً، والارتجال لا يعني ارتجال الأفكار وإنما يعني ارتجال التعبير[٨٩]، فلا بد للمترافع من أن يلقي مرافعته مشافهة لأن قراءتها يفقدها سحر لبيان كما يفقدها فاعليتها، وفي ذلك يقول (كانتاليانوس) في المؤسسة الخطابية "في رأينا إن قراءة المرافعة تتنافى مع البلاغة الحقة التي تقوم على الارتجال"[٩٠]، وهو بالارتجال يستطيع أن يشرف بنظراته فيدرك كل ما يحيط به ويستطيع أن يقوم بواجباته المهنية على الوجه الأكمل، إذ إن المرافعة المكتوبة تحبس الذهن عن التصرف التام في فنون القول، ولا ننسى أن من مستلزمات الإلقاء الفعال الإشارة بشرط ألا يسرف فيها، إذ إن كثرة الحركات والإشارات يسيء إلى البلاغة، وفي كتاب (المؤسسة الخطابية) يسخر كانتاليانوس" من تلك الفئة من الخطباء الذين لا يستطيعون لفظ كلمة دون صراخ وغضب وتلويح بالأيدي وهزات رأس ونظرات شرسة نارية"[٩١].

والمترافع إذ يلقي مرافعته فإنه يلاحظ القاضي في إشاراته ونظراته، فإذا ما لمح منه إقبالاً في سماع نقطة معينة أشبع فيها القول، وإذ ما لمح منه إعراضاً عن نقطة فإنه يتركها حتى تتهيأ فرصة مناسبة للرجوع إليها، ذلك أن الإصرار على متابعة الحديث في نقطة ضجر منها القاضي يعني مخاصمة لهذا القاضي،

والقاضي ليس بخصم للمترافعين وإنما هو عون لهم على إحقاق الحق(٩٢).

ومما لاشك فيه أن المرافعة تكتسب قوة بتغير النبرات، وتفاعل المترافع مع ما يقوله، فيرفع الصوت حيث لزم ذلك، ويخفضه حيث لزم، وعلى المترافع أن يعرف المواطن التي تتطلب استدرار عطف القضاة، كما عليه أن يعرف مواطن الإسراع في القول والإبطاء وفق مقتضيات الحال، فيسرع في موقف الحماسة، وفي موقف الروية يتأنى(٩٣).

وقد ذكر الأستاذ حسن الجداوي "أنه دخل مرة قاعة محكمة الجنايات في ليون بفرنسا فلفت نظره أن المحامي يترافع بسهولة مدهشة ولغة عادية ولكنها جلية مرتبة، تصاحبها حركات نادرة متناسقة مع العبارات ومع ذلك كان المحامي بنبرات صوته، وجمال معانيه، وبلاغة تعبيره وقوة حجته مسيطراً على سامعيه من جمهور وقضاة وزملاء، حتى لتحسبهم يغضبون إذ غضب، ويشفقون إذا لان صوته واستدر رحمتهم، ولما سأل عن المحامي وعرف أنه هنري روبير ازداد إعجاباً"(٩٤).

وأخيراً لا بد للمترافع من أن يكون ذا بديهة حاضرة دائماً فيستطيع الاستفادة من سقطات خصمه وتحويلها لصالحه، وقد قال الهلباوي: - كثيراً ما شعرت بتحويل في تيار فكري إلى نقطة تصلح لموكلي استنبطها من طريقة الخصم، أو من ملاحظة المحكمة، وأعظم نقطة أشكر الله عليها توفيقي في انتهاز هذه الفرص في لحظتها، ثم التعبير عنها والاستفادة منها"(٩٥).

وأفضل طرق الأداء للمترافع، ما يمكن أن يسمى الارتجال المكتوب، أي أن يكتب المترافع رؤوس الموضوعات التي ينوي إيرادها في مرافعته، ثم يعبر عنها مشافهة، مراعياً ظروف الحال داخل قاعة المحكمة، وبذلك يكون قد تخلص من مخاطر الأداء بطريقة التلاوة، ومن عثرات الأداء بطريقة الارتجال المطلق دون الاحتفاظ برؤوس الموضوعات التي يمكن أن تغيب عن الذهن إن لم تكن مدونة.

الهوامش

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة رفع وانظر مختار الصحاح، الرازي، مادة رفع.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزابادي، مادة (رفع).
(٣) تاج العروس، الزبيدي، مادة رفع.
(٤) المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس ورفاقه، مادة رفع.
(٥) انظر الخطابة، أرسطو، تحقيق عبدالرحمن بدوي ص ص ١٦-٢٥
(٦) المعجم الوسيط، مادة رفع
(٧) انظر فن الخطابة، أحمد الحوفي، ص ٣٩.
(٨) المرجع نفسه، ص ١٩٤
(٩) انظر الخطابة، محمد أبوزهرة.
(١٠) فن الخطابة، أحمد الحوفي ص ص ١٩٤ - ١٩٥، وانظر النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، ص ٩٧.
(١١) انظر الخطابة، محمد أبوزهرة ص ص ١٢ -١٣، وأنظر فن الخطابة، أحمد الحوفي ص ١٩٥.
(١٢) تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة، ص ١٤٢.
(١٣) المرجع نفسه، ص ١٤٥.
(١٤) ديموستنيس، قدري قلعجي، ص ٢
(١٥) تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة ص ١٥٦.
(١٦) الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ٥٦
(١٧) فن الخطابة ، أحمد الحوفي ص ٤١.
(١٨) انظر المرجع نفسه ص ٢٠٥.
(١٩) قحماً: مشقة عظيمة لا يكاد يستطيعها أحد.
(٢٠) المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، ج٥، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥، وانظر المجموع شرح المهذب، النووي ج ١٤، ص ٩٨.
(٢١) جامع الأصول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبدالقادر الارناؤوط، ج١٠، ص ١٨١.
(٢٢) سورة مريم ٢٧ -٣٣.
(٢٣) سورة الأنبياء ٥٩ -٦٧.
(٢٤) سورة مريم ٤١ -٤٨ (قصة إبراهيم مع أبيه) سورة النمل، ٢٠ - ٣٩ (قصة سليمان مع الهدهد)، سورة طه ٨٦ - ٩٧ (قصة موسى مع السامري).
(٢٥) الأمالي، أبوعلي القالي، ج٢، ص ١٢.
(٢٦) الخطب والمواعظ، محمد عبدالغني حسن، ص ٨٢.

(٢٧) نقلاً عن الخطابة، محمد أبوزهرة، ص ١٦٩.
(٢٨) المحامي، عبدالرزاق شبيب المحامي، ص ٤٥.
(٢٩) انظر الخطابة، أرسطو، ص ص ١٨٥ - ١٨٨.
(٣٠) الخطابة، أبو زهرة، ص ٢٩.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٣٠.
(٣٢) المرجع نفسه ص ص ٣٠ -٤١.
(٣٣) نقلاً عن المرجع نفسه ص ٣٦.
(٣٤) المرجع نفسه ص ٤٦.
(٣٥) المرجع نفسه، ص ص ٤٧ - ٤٨.
(٣٦) انظر المرجع نفسه ص ٤٨.
(٣٧) محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحي مرسي، ص ١٠.
(٣٨) انظر الخطابة، أرسطو، ص ١٩٨.
(٣٩) الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، ص ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٤٠) فن الخطابة - أحمد الحوفي ص ٧٩.
(٤١) المرجع نفسه ٧٩.
(٤٢) جامع الأصول، ج١٠، ص ١٨٠.
(٤٣) Institutionis Oratoriae p82.
(٤٤) المائدة: ٤٤.
(٤٥) المائدة: ٤٥.
(٤٦) المائدة:٤٧.
(٤٧) المائدة ٤٨.
(٤٨) أشهر المحاكمات في التاريخ، علي العيساوي المحامي ص ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٤٩) انظر محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحي مرسي، ص ١٢.
(٥٠) دلائل الإعجاز - الجرجاني، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ص ٦٤.
(٥١) انظر النقد الأدبي الحديث، ص ص ١٢٠ - ١٢١.
(٥٢) الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، ص ص ١٦٦ - ١٦٧.
(٥٣) المرجع نفسه ص ١٦٥.
(٥٤) المرجع نفسه ص ص ١٦٥ -١٦٦.
(٥٥) المرجع نفسه ص ١٦٩.
(٥٦) نقلاً عن فن الخطابة: أحمد الحوفي ص ٧٧.
(٥٧) انظر أشهر المحاكمات عبر التاريخ: فريد بوتشر ترجمة: عبداللطيف أفيوني. ص ٢٣١.

(٥٨) الصحيح أن يقول: ولا يعرفونني أو يعرفوني، ببقاء نون الرفع لأن "لا" هنا هي النافية.
(٥٩) في المرافعة، المشعلاني، ص ٤٠.
(٦٠) أشهر المحاكمات عبر التاريخ ، فريد بوتشر ص ١٣٢.
(٦١) الخطابة، محمد أبو زهرة، ١٧٥.
(٦٢) انظر تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق عبدالرحمن بدوي، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
(٦٣) الكتاب الذهبي ص ١٦٩.
(٦٤) الأصل أن يقول: سواء أوافق، بذكر همزة التسوية.
(٦٥) الكتاب الذهبي ص ص ١٩٥ - ١٩٦.
(٦٦) ورد نص هذه المرافعة في موقع سابق من هذا البحث، وانظر أشهر المحاكمات في التاريخ، العيساوي ، ص ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٦٧) الكتاب الذهبي ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٦٨) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة ص ١٧٥.
(٦٩) أشهر المحاكمات في التاريخ، علي عبد العال العيساوي، ص ٤٥.
(٧٠) الكتاب الذهبي ص ١٦٣.
(٧١) فن الخطابة، أحمد الحوفي، ص ١٤٣.
(٧٢) الأسلوب، أحمد الشايب، ص ٩.
(٧٣) Institutions Oratoriae p97.
(٧٤) في المرافعة المشعلاني، ص ٤٣.
(٧٥) The Power of address P63.
(٧٦) في المرافعة، المشعلاني، ص ٣٣٦.
(٧٧) المرجع نفسه، ص ١٣٧.
(٧٨) المرجع نفسه ص ١٢٣.
(٧٩) أشهر المحكامات عبر التاريخ، فريد بوتشر، ص ٩١.
(٨٠) المرافعات المدنية، سعيد عبدالكريم مبارك، ص ٤٧
(٨١) أشهر المحاكمات عبر التاريخ، فريد بوتشر، ص ١٤٣.
(٨٢) الكتاب الذهبي ص ٢٠٠.
(٨٣) انظر في المرافعة، المشعلاني، ص ٣٢٣
(٨٤) الكتاب الذهبي، ص ص ١٩٥ - ١٩٦، ورد النص في صفحة ١٣ من هذا البحث.
(٨٥) في المرافعة، المشعلاني ص ٤٠.
(٨٦) أشهر المحاكمات في التاريخ، علي العيساوي، ص ١٢٧.
(٨٧) في المرافعة المشعلاني، ص ٣٣٥.
(٨٨) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ص ١٧٩ - ١٨٤

(٨٩) انظر في المراقعة، المشعلاني، ص ٣٠٧.

(٩٠) Institutions Oratoriae P65.

(٩١) Institutions oratoriae P88, and, A short history of Greek Literature P15.

(٩٢) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ١٨٥.

(٩٣) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

(٩٤) نقلاً عن فن الخطابة، أحمد الحوفي، ص ص ٧٨ - ٧٩.

(٩٥) المرجع نفسه، ص ص ٧٦ - ٧٧.

ثبت المصادر والمراجع

أ: العربية

القرآن الكريم

١- أشهر المحاكمات عبر التاريخ، فريديريك بوتشر، ترجمة: عبد اللطيف أفيوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

٢- أشهر المحاكمات في التاريخ، د. علي عبدالعال العيساوي، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩١.

٣- الأسلوب، أحمد الشايب، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

٤- الأمالي، أبو علي القالي، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٣م.

٥- تاج العروس، الزبيدي، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٨٧٠.

٦- تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة، القاهرة وزارة التربية والتعليم، سلسلة ال ١٠٠٠ كتاب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.

٧- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت.

٨- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.

٩- الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩.

١٠- الخطابة، أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٠.

١١- الخطب والمواعظ، محمد عبد الغني حسن، ط ٢ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

١٢- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٩٨٢.

١٣- ديموستنيس، قدري قلعجي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧م.
١٤- فن الخطابة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة.
١٥- في المرافعة، ثلاث نساء أمام محكمة الجنايات، فؤاد توفيق المشعلاني، لبنان، ١٩٧٢م.
١٦- القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزابادي، دار الفكر.
١٧- الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، جمهورية مصر العربية، وزارة العدل، المركز القومي للدراسات القضائية.
١٨- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨.
١٩- المجموع شرح المهذب، للإمام أبي زكريا النووي، دار الفكر.
٢٠- محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحي مرسي، جمهورية مصر العربية، وزارة العدل، المركز القومي للدراسات القضائية، ١٩٨٩.
٢١- المحامي، عبد الرزاق شبيب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٠.
٢٢- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩.
٢٣- المرافعات المدنية، سعيد عبد الكريم مبارك، جامعة بغداد، كلية القانون والسياسة، بغداد، ١٩٨٤م.
٢٤- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس ورفاقه، مطابع دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
٢٥- المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٢.
٢٦- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٨٦م.
٢٧- النقد الأدبي عند اليونان، بدوي طبانة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م.

ب- الأجنبية:

1. Leith, Dick, The Power of Address London, Routledge 1989.
2. Quintiliani, M. Favi, Institutionis Oratoriae, Libri duodecim, Oxford: Oxford V.D. 1970.
3. Romilly, Jacqueline Detrs, A short History of Greek Literature. Chicago: The V.ch. 1985.

ثانياً: مع الكتب

مع "كتاب المحن"
لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي
المتوفى سنة ٣٣٣هـ

تحقيق الدكتور / يحيى وهيب الجبوري

بيروت: دار الغرب الإسلامي، طـ ٢ (١٩٨٨)

مراجعة: عبدالله يحيى السريحي

جامعة صنعاء - المكتبة

شهدت الفترة الزمنية التي عاش فيها أبو العرب التميمي (٢٥١ - ٣٣٣هـ) أهم المتغيرات الكبرى في تاريخنا السياسي والفكري والحضاري، وحفلت بالمتضادات أو المتناقضات الكبرى، ففي هذه المرحلة بلغت الثقافة والحضارة الإسلامية أوج ازدهارها ونضجها، فهي مرحلة التقدم العلمي. والنشاط والإبداع الفكري الواسع في مختلف العلوم والفنون (التفسير والحديث والتاريخ واللغة والأدب والطب والكيمياء والفلك... إلخ). وفيها بلغ التفاعل الواعي والمتميز مع الحضارات والثقافات الأخرى أقصاه، ولهذا فقد كان المستشرق آدم متز محقاً عندما أطلق على هذه الحقبة وصف " عصر النهضة في الإسلام"[١] وبجانب هذه الصورة الإيجابية المشرقة، نجد أن هذه المرحلة قد حملت في طياتها بذور انحطاطها وتدهورها، فقد بدأ الضعف والانحلال يسريان تدريجياً في جسم الخلافة الإسلامية (الدولة المركزية) منذ بداية العصر العباسي الثاني، الذي ضعفت فيه الخلافة، وضاعت بين المتغلبين عليها من قادة الترك

---

(١) وهذا هو العنوان الأصلي لكتابه القيم عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الذي نقله إلى العربية المرحوم محمد عبدالهادي أبو ريدة بعنوان: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام.

والديلم، وأصبحت أحياناً ألعوبة بيد النساء والجواري في قصور الخلافة، وحتى انفراط عقدها وتمزق وحدتها بقيام الدويلات المستقلة، حيث تغلب الطامحون من الولاة أو الزعماء المحليين على مناطق نفوذهم واستقلوا بحكمها، فلم يبق في يد الخليفة- في بعض الأحيان - إلاّ بغداد وضواحيها. وفي كثير من الأحيان لم يكتف هؤلاء الطامحون بالسيطرة على ما تحت أيديهم فحسب، بل سعى معظمهم إلى بسط سيطرته ومد نفوذه على حساب غيره، فنشأ عن ذلك سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بين هذه الدويلات، أدت إلى انتشار الفوضى والفتن، وغياب الأمن والاستقرار. ومن الناحية الاجتماعية، فقد ساد في المجتمع حالة من الرفاهية والترف الزائد عن الحد إلى جانب البؤس والفقر المدقع، إذ تركزت الثروات الضخمة في أيدي القلة (الخلفاء والأمراء وذوي المناصب ومن يلوذ بهم من الخاصة والمغامرين) وانتشر الفقر والفاقة في صفوف الشعب، وتفشت الأمراض والمجاعات والأوبئة الفتاكة.

ومن الناحية الفكرية، فقد كانت معظم هذه الدول المستقلة ذات طابع عقائدي ومذهبي، إذ كان لكل منها مذهبها الأصولي والفقهي الخاص بها والذي جعلته مسوغاً لدعوتها الانفصالية وخروجها على سلطة الخلافة وطاعتها، كما اتخذت منه أساساً ومرتكزاً لنظام حكمها ومسوغاً لشرعيته بعد انفصالها عن الدولة المركزية، ومن ثم فكما اعتمدت هذه الدويلات على القوة للاحتفاظ بالحكم واستخدام أساليب البطش والتنكيل بمعارضيها السياسيين فقد اعتمدت (أغلبها) على نشر مذهبها في المناطق التي تحت سيطرتها وفرضه بالقوة وقمع كافة الآراء والأفكار المخالفة لذلك المذهب.

وفي كتاب "المحن" إشارات كثيرة إلى هذا الجانب، فمن ذلك على سبيل المثال: ما ذكره المؤلف (ص٢٨٠-٢٨١) عن تعذيب الفاطميين وقتلهم لمؤذن مسجد ابن عياش بالقيروان، في السنة التي استولوا فيها على القيروان سنة ٢٩٦هـ، لأنه لم يؤذن بـ "حي على خير العمل" فقد ضُرب هذا المؤذن بالسياط وسُلّ (قطع) لسانه، وعُلّق بين عينيه، وطيف به على حمار، ثم قُتل وصُلب.

وقد كان لتدخل السلطة في هذا الجانب أفدح النتائج وأوخم العواقب، إذ أدى إلى استفحال التعصب الفكري والمذهبي واستحكام العداوة بين أتباع المذاهب، كما أسفر عن شيوع ظاهرة الاستبداد بالرأي وفرض الرأي والمذهب الواحد واستبعاد ما عداه، وما ترتب عليه – لاحقاً – من إغلاق باب الاجتهاد، الذي أدى إلى غياب الأصالة، وتراجع الابتكار والتجديد الفكري والحضاري تدريجياً وحل محلهما التقليد والمحاكاة واجترار الماضي، فأصيب الفكر والعقل الإسلامي من جراء ذلك بالشلل والجمود والعجز عن التجديد والإضافة.

وقد انعكست ملامح هذا العصر بشقيه الإيجابي والسلبي، على حياة أبي العرب التميمي وفكره، وعلى موضوع كتابه "المحن" أيضاً، فمن الناحية الإيجابية: كان أبو العرب التميمي واحداً من أبرز علماء عصره الذين أسهموا في رفد الفكر الإسلامي بالعديد من المؤلفات والكتب القيمة (ذكر المحقق أن له أربعة عشر كتاباً في الفقه والحديث والسير والتراجم)[1]. ومن الناحية السلبية، فقد كان أبو العرب ممن امتد إليهم جور السلطة واستبدادها، فتعرض للحبس والتخويف، سواء في عهد دولة بني الأغلب، أو الدولة الفاطمية التي قضت على دولة بني الأغلب في تونس سنة ٢٩٦هـ.

ولهذا فقد حاول أبو العرب من خلال كتابه هذا (كتاب المحن) "أن يتلمس العزاء والأسوة له ولأبناء عصره المقهورين بأن يلتفت إلى التراث فيلتمس العزاء بما أصاب أصحاب رسول الله (ص) والتابعين وخيار المسلمين وأشراف الناس من أذى وما نزل بهم من بلاء" (ص١٠ المقدمة) ليقوى العزائم ويثبت الإيمان في النفوس، لكي لا تقع فريسة لعوامل اليأس والإحباط.

تطرق كتاب أبي العلاء في مجمله إلى الموضوعات الآتية:

١– بعد أن افتتح المؤلف كتابه بمجموعة من الأحاديث النبوية عن الابتلاء، ذكر بالتفصيل مقتل الخلفاء الراشدين الثلاثة (عمر،

---

(١) انظر: كتاب المحن ص ٢٩ – ٣٠ (المقدمة).

وعثمان، وعلي) وتلاه ذكر قتل عمار بن ياسر وطلحة والزبير.

٢- الإشارة إلى قتلى الجمل وصفين، ومن قتل على يد الخوارج، وذكر قتل الحسين بن علي ومن قتل بالحرة، وذكر قتل عبدالله بن الزبير ومن قتل في حروبه.

٣- ذكر من قتله الحجاج من العلماء ممن خرج مع ابن الأشعث ومن قُتل يوم الجماجم من أهل العلم.

٤- ذكر من تعرض من الصحابة والتابعين وأهل العلم للامتحان بالترويع أو الضرب أو الحبس والنفي.... إلخ... بمن في ذلك من تعرض للامتحان في محنة خلق القرآن.

٥- ذكر من تعرض للامتحان من معاصري المؤلف على يد الأغالبة وخاصة في عهد إبراهيم من الأغلب (ت ٢٨٩هـ) أو على يد الدولة الفاطمية.

وإذا كانت تلك النهضة العلمية والفكرية والحضارية التي عرفها العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين كما يراها كثير من الباحثين المعاصرين، إنما هي ثمرة للانفتاح الفكري والحضاري الذي شهده عصر الرشيد والمأمون، واهتمامهما الواسع بالعلم والعلماء، فإنه يمكن لنا القول - كذلك - إن التخلف والجمود الذي ألم بالمسلمين عقب هذه المرحلة إنما ترجع جذوره الأولى إلى الجور والاستبداد الذي أعقب تحول الخلافة الراشدة ذات الطابع الشوري، إلى ملك وراثي استبدادي. وكتاب أبي العرب التميمي هذا يلقي الضوء على مظاهر هذا التحول وما رافقه من الظلم والطغيان... إذ إن الهدف الرئيسي لدى معظم أولئك (الخلفاء والملوك) من سعيهم للوصول إلى السلطة، وهو الوصول إلى السلطة بحد ذاتها. بغرض الاستئثار بها، والاستمتاع بما تضفيه على صاحبها من المجد والجاه والثروة... إلخ، وليس بعدها أو بحسبانها (أي السلطة) كما كانت في عهد الراشدين – وكما أراد لها الإسلام أن تكون وسيلة وأداة لخدمة الأمة وتطبيق مقاصد الإسلام وقيمه ومثله العليا على أرض الواقع وتوفير المناخ الملائم لتحقيق تلك الأهداف والمقاصد في حياة الفرد والمجتمع على

السواء. ولهذا فقد استهان هؤلاء (الخلفاء والملوك) في سعيهم الدؤوب للوصول إلى السلطة والاستئثار بها، بكل القيم والمثل العليا في المجتمع، واستحلوا من أجلها الدماء والأعراض والحريات التي جاء الإسلام ليصونها ويعلي من شأنها.

وإذا كان هدف المؤلف من تأليف كتابه - كما سبقت الإشارة - هو تلمس العزاء والأسوة لأولئك المضطهدين في عصره، إلاّ أن المتأمل للكتاب يستطيع بسهولة إدراك الأهداف الأخرى التي يتوخاها من وراء هذا الكتاب، والتي لم يصرح بها - أو بتعبير أدق - لم يجرؤ على الإفصاح عنها أو التصريح بها، والمتمثلة في التحريض على الثورة، ومقاومة الجور والدعوة إلى التغيير[1]، ويدل على ذلك طريقة ترتيب موضوعات كتابه واختيار شخصياته ومروياته ومن ذلك:

١- تركيزه على عصر الخلفاء الراشدين وإبرازه النموذج الأمثل للحكم وللتغيير الذي يتوخاه ويدعو إليه، ومن هذا العصر - أي عصر الراشدين - يبتدئ المؤلف بذكر أحداث كتابه وشخصياته، فقد خصص الجزء الأول منه لذكرى استشهاد الخلفاء الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) والذين جسدوا بسلوكهم مثل الإسلام وقيمه الرفيعة... واستشهدوا في سبيلها، كما كانوا شديدي الحرص على الالتزام والتمسك بمقاصد الإسلام في الحكم والسلطة من تحري الحق والعدل منذ وصولهم إلى الحكم وحتى آخر لحظة في حياتهم، ولم يغفلوا عنها وهم في أحرج المواقف وأصعبها في حياتهم وهي ساعات الاحتضار ومواجهة الموت. أما لو كان هدف المؤلف إقناع الناس بالتذرع بالصبر على البلاء والمحن، والخلود إلى السكينة وعدم مقاومة السلطة الظالمة أو الخروج عليها، كما هو الشأن في مؤلفات معاصريه من أهل السنة (المشارقة)، لكان له

(١) يبدو من خلال ذكر المؤلف لبعض الحوادث التي حصلت في نهاية القرن الثالث الهجري، ان المؤلف قد قام بتأليف هذا الكتاب في السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري، وبعد سقوط القيروان في يد الفاطميين بعدة سنوات، أي أن المؤلف قد أعد كتابه وهو في خضم التحضير للثورة على الفاطميين التي افتى المؤلف بجوازها واشترك فيها بنفسه (راجع مقدمة المحقق ص ٢٨).

في حياة الرسول (ص) والرعيل الأول من المسلمين الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والصبر على المكاره واحتمال الأذى، ما يغنيه ولابتــــدأ بهـــا دون سواها.

٢- إن معظم الأشخاص الذين تطرق المؤلف إلى ذكر محنهم كانوا فـــي طليعة العلماء (الأشراف) - بحسب تعبير الدكتور يحيى الجبوري في المقدمـــة (ص١٠) - والذين تمسكوا بمبادئهم وقيم دينهم فلم يتزلفوا للسلطة أو يسيروا في ركابها ولم يسكنوا أو يتستروا على مفاسدها وجورها، بل تصدوا لجور الســلطة وطغيانها، وقاوموها بكل الوسائل، إما بالسيف (كشهداء الحرة وثورة الحسين بن علي وحفيده زيد بن علي، واشتراك العلماء والقراء في ثورة ابن الأشعث) وإما بالموقف الشجاع وكلمة الحق (كحالة معظم العلماء الذين ذكر المؤلف محنهـــم) معرضين أنفسهم لبطش السلطة وجبروتها، وصبروا احتساباً لله، على كـــل مـــا نالهم من الأذى بسبب مواقفهم الجريئة.

****

حقق كتاب "المحن" وأخرجه في حلة قشيبة الأستاذ الدكتور يحيى وهيـــب الجبوري، والمحقق الفاضل ممن خدم العربية والتراث العربي، ولذلـــك فإنـــه لا يعتبر دخيلاً على هذا التراث، بل هو ممن خاض غماره وتعمق فيـــه، فـــأنجز أعمالاً عدة في جمع الأدب القديم وتحقيقه، فكان له من ذلك صنعته لكثـــير مـــن دواوين الشعراء الذين لم تكن لهم دواوين، وأريد بذلك، أنه لم يكن لهم دواويـــن قام بصنعتها المتقدمون كابن الأعرابي والأصمعي وغيرهما، كما اهتـــم كذلـــك بدراسة الأدب الجاهلي والإسلامي فكان له من ذلك غير عمل [1]. ونظراً لجـــد الدكتور يحيى وبعد همته فقد أفاد من سنة التفرغ العلمي التي تعطيهـــا الجامعـــة لأساتذتها، والتي قضاها في إنجلترا، كما لم يفد منها أحـــد ممـــن عرفنـــاه مـــن الأساتذة، فكان له من ذلك ما أعانه على إصلاح معرفته بالإنجليزيـــة. وأثنـــاء إقامته هناك، عثر على مجلد فريد من كتاب "منتهى الطلب" الذي عرفنـــا عنـــه

(١) انظر قائمة بأعمال المحقق في نهاية كتاب "المحن" ص ٥٦٣ - ٥٦٤.

كثيراً. لقد أفاد كثيراً من هذا المجلد، فنشر الكثير مما ورد فيه، وجلّه شعراء مجهولون، جاهليون وإسلاميون، وقد اجتمع هو والدكتور حاتم الضامن على نشر ما انفرد به هذا السفر النفيس، كما عثر مصادفة أثناء هذه المدة على كتاب "المحن" لأبي العرب التميمي، وعمل على تحقيقه ونشره، فصدرت طبعته الأولى عن دار الغرب الإسلامي ببيروت عام (١٩٨٣)[١] وصدرت الطبعة الثانية – وهي التي نراجعها – عام (١٩٨٨) عن دار النشر نفسها. وقد تيسر لي الاطلاع على الطبعة الأولى للكتاب، بعد صدوره بعدة سنوات – بحكم بعدنا في اليمن عن مراكز النشر في العالم العربي – في أواخر عام (١٩٨٨م)، واستمتعت بموضوع الكتاب وبالجهد الذي بذله المحقق لإخراج هذا الكتاب في حلّته القشيبة، ولفت نظري – كذلك – في هذه الطبعة عدم انسجام مادة الكتاب وتماسكها، بسبب اختلال ترتيب أوراق مخطوطة الكتاب، وأيضاً كثرة التصحيف والأخطاء المطبعية، فقمت بتدوين بعض الملاحظات، مع ما استطعت الاهتداء إليه، من تصحيح قسم من التحريفات والأخطاء المطبعية، وعزمت على نشرها، رغبة مني في تنبيه المحقق الفاضل، ولفت نظره إليها ليستدركها في الطبعة الثانية للكتاب، لعلمي بأن قيمة الكتاب وأهميته العلمية ستعجل بنفاد تلك الطبعة في أقرب وقت، ولكني ترددت في نشرها خوفاً من أن تكون الطبعة الثانية قد صدرت (وهذا ما حدث بالفعل) ثم عدلت عن الفكرة نهائياً عندما وجدت أن الدكتور رضوان السيد، قد راجع الكتاب مراجعة وافية في العدد الرابع من مجلد "الاجتهاد" صيف عام ١٩٨٩م (ص٢٣٩-٢٤٤)[٢] ونبّه إلى قسم من تلك الأخطاء التي كنت أريد التنبيه عليها.

---

(١) وصدرت نشرة أخرى لهذا الكتاب في العام التالي لصدور الطبعة الأولى لنشرة الدكتور الجبوري، أي عام (١٩٨٤م)، تحقيق ودراسة عمر سليمان العقيلي عن دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض.

(٢) وقبل ذلك (عام ١٩٨٦م) كان الدكتور سامي الصقار قد تناول بالمراجعة والنقد كتاب "المحن" طبعة الدكتور العقيلي، وطبعه الدكتور يحيى الأولى ونشر بمجلة كلية الآداب (جامعة الملك سعود بالرياض) المجلد الثالث عشر العدد الأول (١٩٨٦) ص ص ٣٣٥ – ٣٩٣، ولكني لم أطلع عليه.

وقد سررت كثيراً عند اطلاعي على الطبعة الثانية للكتاب وعلى ما جاء في مقدمة المحقق لهذه الطبعة (ص٥) من أنه قد أدرك تلك الهفوات في الطبعة السابقة، وعمل على تلافيها، وبالفعل فقد قام المحقق بتصحيح قسم منها، ولكن قسماً كبيراً منها بقي كما هو (سنشير إلى ذلك بعد قليل).

ولعل مرد هذا القصور اليسير في عمل الدكتور يحيى الجبوري، في هذا الكتاب يعود لسببين:

الأول: ذكرنا فيما سبق أن المحقق على صلة حميمة بالتراث العربي، ولكن صلته بهذا التراث كما يبدو، وبحكم تخصصه، قد انصبت على الأدب أكثر من غيره وله عذره في ذلك، إذ إن مقتضيات عصرنا الحاضر - الذي تعددت فيه مصادر الثقافة وزادت شعب العلم واشتبكت فروعها - جعلت المعرفة الوافية تتطلب التخصص الدقيق في أحد هذه الفروع، ولا أريد بهذا القول أن أنفي هذا عن الأقدمين، فقد عرف الأقدمون مثل هذا التخصص، وانصرفوا إليه، فكان منهم لغويون ونحاة وقراء ومحدثون وأصحاب أدب وأخبار،... وكان فيهم من انصرف إلى شيء من فروع علم التأريخ، ومن هذا، العلم بـ "الرجال" و "الطبقات"... غير أن هذا المنحى من الاختصاص لدى المتقدمين لم يمنع من ظهور جمهرة من المؤلفين كتبوا وصنفوا في علوم شتى ومعارف جمّة، ولعل بين هؤلاء من كان مجلياً في كثير من هذه الأشتات المختلفة. وإذا كان علينا أن نفهم الاختصاص على نحو جديد، فهذا يعني أن علينا أن ننصرف إلى العمل الذي نحسنه، ولنا فيه ما نقوله، وأننا مزودون بمعارف تعيننا على الوفاء به ليكون عطاؤنا فيه سخياً. وكتاب "المحن" على غرار الكتب التاريخية والأدبية القديمة يعتمد على أسلوب الرواية، وهذا الأسلوب يتطلب من المحقق أن يكون عارفاً بالأسانيد، وما ينتظمها من الرجال، فإن لم يكن شيء من هذا فقد يعتري العمل الكثير من التصحيف والتحريف، فيصبح "عمرو" عمر، و"جارية" حارثة، و"سمرة" حمزة... إلخ، وهذا ما دفع بالأقدمين إلى العناية بـ "المشتبه". و"المؤتلف والمختلف".. وأصحاب العلم بالرجال والطبقات يدركون أفانين هذا العلم ومشكلاته.

والسبب الثاني: الاستعجال وعدم التأني في إخراج هذا الكتاب ونشره[1]. إذ إن عملاً كبيراً كهذا تكثر فيه الأحداث والأسانيد والروايات يتطلب من المحقق التذرع بالصبر وعدم الاستعجال، والرجوع إلى المصادر القديمة (السابقة لعصر المؤلف، أو المعاصرة له) التي نقل عنها المؤلف، أو حتى المصادر اللاحقة التي نقلت عنه، وتصبح هذه المهمة ضرورية أو واجبة، لضبط النص والتأكد من صحته، إذا كانت النسخة "المخطوطة" التي اعتمدها المحقق في إخراج الكتاب، وحيدة أو كانت ناقصة أو رديئة النسخ، كما هو الحال في المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب، أما إذا مال المحقق إلى الاستعجال فقد تزل به قدمه ويخرج عمله ناقصاً أو مشوهاً. ولهذا فلو أن الدكتور يحيى قد تأنى قليلاً في إخراج الكتاب واستعان بالمصادر التاريخية وبكتب الحديث والرجال والطبقات، لأمكن له التثبت من الأسانيد والروايات ومن ثم الاهتداء إلى تصحيح الأخطاء والتصحيفات التي خلفها الناسخ، واستكمال السقط في تلك المرويات والأخبار. فلو فعل المحقق الفاضل هذا لجاء كتابه أكثر إشراقاً مما هو عليه الآن في هذه الحلة القشيبة.

****

ننتقل بعد هذا لعرض بعض ملاحظاتنا على هذا السفر الجليل، ويمكن تركيزها في نقطتين: الأولى، حول منهج المحقق في تراجم الأعلام الواردة بالكتاب، والثانية، عن التصحيف والتحريف والأخطاء المطبعية.

ففيما يتعلق بمنهج المحقق في التراجم:

ذكرنا فيما سبق أن مادة الكتاب وموضوعه هو ذكر من تعرض من علماء الأمة وأشرافها لأي نوع من أنواع التعذيب والأذى سواء بالقتل أو الضرب أو الحبس والنفي... وأن المؤلف يورد أخباره ومعلوماته معتمداً على أسلوب الرواية الموثقة بالأسانيد، أي أن الكتاب يضم بين دفتيه طائفة كبيرة من الأعلام،

---

(١) أقول: جعلت الاستعجال سبباً لبعض القصور في عمل المحقق في هذا الكتاب، لأن المحقق الفاضل لايجهل مطلقاً قواعد أو مناهج التحقيق، فقد صدر له عام (١٩٩٣) عن دار الغرب الإسلامي ببيروت، كتاب عن: "منهج البحث وتحقيق النصوص".

سواء أكانوا رواة أم ممتحنين، ويبدو أن كثرتهم قد تسببت في إرباك المحقق فلم يتّبع حيال هذه الجمهرة من الأعلام منهجاً واضحاً في التعريف بهم من عدمـــه، وكنت أود أن يقتصر المحقق في تراجمه على المجهولين من ذوي "المحن" الذين جاء ذكر محنهم في الكتاب وبخاصة من لم يتطرق المؤلف إلى ذكـــر ســببها، ويضمن المحقق في التعريف بهم سبب تلك المحن لتتم الفائدة، وأن يصنـــع مـــع "الرواة" صنيع الأستاذ محمود محمد شاكر في "تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله (ص) من الأخبار" الذي ألفه أبو جعفر محمد بن جرير الطـــبري (ت ٣١٠هـــ) ووصل إلينا من هذا الكتاب:

أ- مسند عمر بن الخطّاب: في ثلاثة أجزاء
ب- مسند علي بن أبي طالب: في جزء واحد
جـــ - مسند عبدالله بن عباس: في جزأين.

وجميعها تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، فلو صنع الدكتور يحيى صنيع الشيخ الجليل لكان قد أصاب وأحسن، فالشيخ محمود شاكر وجد أن الأمر فـــي تحقيق كتاب تكثر أسانيده يتجاوز التراجم التي قد يتعذر الحصول في قسم منهـــا على فوائد على وجه واف من الاستيفاء، فاقتصر عمله على شيء مفيـــد غايـــة الإفادة هو صنيع فهرس لرجال الأسانيد مقسماً إلى طبقات ست بحسب المنهـــج التأريخي، غير أنك تجد في حواشيه فوائد سنية لا تخلو من تراجم كان لابد من إثباتها.

أو أن يصنع صنيع المستشرقين في اقتصارهم على ضبط الأعلام وإبعادها عن الخطأ والتصحيف، ولم يكلفوا أنفسهم عنـــاء الترجمة للأعـــلام ولا ســـيما الذين يتردد ذكرهم في الأسانيد. أقول ذلك لأنه بالرغم من إعلان المحقق (فـــي المقدمة) عن الخطة التي سيتبعها في التراجم للأعلام(١) إلاّ أن الارتجال وعـــدم وضوح المنهج هي السمة الرئيسية السائدة في الكتاب، فقد يترجم علماً ويـــترك

---

(١) قال المحقق في مقدمة الكتاب (ص ص ٣٦ - ٣٧): وترجمت للأعلام الذين رأيت فـــي الترجمة لهم ضرورة أو ايضاحاً لفهم الرواية، أو أن في الاسم إشكالاً في القراءة أو أن يلتبس بغيره من الأسماء... أو أن يكون المترجم مجهولاً وفـــي ذكـــره فـــائدة أو أن الترجمة ذاتها تفسر الغموض أو اللّبس الذي في الرواية...".

جمهرة أخرى في الصفحة نفسها، وربما كان المترجم له معروفاً... إلخ. ويمكن لنا - قبل تقديم ملاحظاتنا - أن ننقل هنا نص إسناد أول رواية افتتح بها المؤلف كتابه، لنرى كيف تعامل المحقق مع الأعلام في سلسلة هذا الإسناد: "حدثني أبو جعفر تميم بن محمد.... أحمد القروي، قال: حدثني - رحمه الله - محمد بن أحمد بن تميم التميمي، قال: حدثنا أحمد بن متعب، قال: حدثنا أحمد بن عبدالله بن صالح الكوفي، قال: حدثنا الفضل بن دكين، قال: حدثنا سفيان عن عاصم عن مصعب بن سعد، عن سعيد، قال: سئل النبي (ص) أي الناس أشد بلاء، قال: الأنبياء ثم الأمثل...." (ص ٥٧).

أقول: من بين هؤلاء الأعلام ترجم المحقق للفضل بن دكين، ويبدو أن ذلك بسبب التصحيف في أصل المخطوط في اسم "دكين" ولا أدري هل قصد بهذه الترجمة "الفضل" أم "دكين" لأن صياغة الهامش توحي بأن المترجم له هو دكين بينما هي ترجمة الفضل (لفظ الهامش: في الأصل عكين وصححه في الهامش، ودكين، هو عمرو بن حماد التميمي من أهل الكوفة محدث حافظ...) وفي هذا الإسناد "سفيان" وكان الواجب أن يعين "سفيان" هذا أهو سفيان الثوري مثلاً أو أنه "سفيان" آخر[1]، وترك التعريف بـ "عاصم" ولكنه حين وجد في الصفحة التي تليها (أي صفحة ٥٨) عاصم بن أبي النجود ترجم له، وكأن "عاصماً" الذي ورد في (ص ٥٧) غير متبوع بكنية أبيه هو علم آخر وكان يتوجب أن يعرف بـ "عاصم" في (ص ٥٧). وأهمل المحقق التعريف بـ "مصعب بن سعد" وبقية الرواة وكأنهم أشهر من الصحابي المعروف "أنس بن مالك" الذي عرف به في الصفحة التي تليها (ص ٥٨) ولم يسأل المحقق نفسه عن من يكون (سعيد) الذي يروي عنه "مصعب". ولو نظر في الصفحة التي تليها (ص ٥٨) لوجد أن مصعب بن سعد (بن أبي وقاص) يروي عن أبيه، عن النبي (ص) أي أن "سعيداً" هذا هو "سعد بن أبي وقاص" وليس "سعيداً".

- ذكر المحقق في المقدمة اقتصاره في التراجم على المجهولين وأكد في

---

(١) ولهذا لم يدرج المحقق اسم "سفيان" الذي ورد في صفحتي ٥٧، ٥٨ غير متبوع بلقبه في فهرس الأعلام.

الهامش رقم (٥) ص ٨٩، عندما ورد ذكر عبدالله بن الزبير أنه "لا يترجم للأعلام المشهورين"، إلاّ أنه ترجم مع ذلك للكثير من الأعلام المشهورين، فمن المشاهير الذين ترجم لهم المحقق: أئمة المذاهب الأربعة، فقد ترجم للإمام مالك بن أنس مرتين (٣١٩،٨٧) وترجم للشافعي (ص ٤٣٠) ولأحمد بن حنبل (ص ٤٣٥) ولأبي حنيفة (ص ٢٦٠ - ٢٦١).

- وبينما أغفل المحقق التعريف بعشرات الأعلام الذين ذكر المؤلف محنتهم وهم في حكم المجهولين ويحتاجون إلى التعريف بهم، نجده يغدق على قسم من الأعلام - وبعضهم من المشهورين - بالترجمة أكثر من مرة، فمن ذلك:

ترجم لـ "أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع" أربع مرات (ص ١٠٦، ١٣٤، ٢٩٦، ٤٤٨)، وترجم للبعض ثلاث مرات مثل: عمير بن ضابي البرجمي (ص ٩٣، ٢٥٥، ٢٧٠)، وسعيد بن العاص (ص ٨٩، ٢٣٤، ٣٧٢). وهناك مجموعة كبيرة من الأعلام ترجم لهم مرتين، نذكر منهم:

عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس (ص ٢٣٤، ٢٧٢) وأبو مسهر الدمشقي (ص ٢٧٢، ٤٤٦)، وأبو البختري، سعيد بن فيروز الطائي (ص ٢٠٣، ٢٧٤) ومحمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) (ص ٣٣٥،١٩٥)، وسعيد بن جبير (ص ٥٩، ٢٠٤)، والأحنف بن قيس (ص ١٠٣، ٣٤٩)، وخالد بن عبدالله القسري (ص ٢٢٦، ٣٤٣)، وأنس بن مالك (٥٨، ٢٦٩) وعمير بن هاني العنسي (ص ١٥٨، ٢٣١)، وعطاء بن أبي رباح (ص ٣٣٠، ٤٤٣)، ويحيى بن عمر الوشقي (ص ٣٣١، ٣٨٧)، ومحمد بن عبد الرحمن.. بن أبي ذئب (ص ٣٧٢، ٣٩٦)، وإبراهيم بن يزيد النخعي (ص ٣٩٣، ٣٩٩)، وسحنون (ص ٦٠، ٤٤٣)، وأحمد بن أبي دؤاد (ص ٢٥٨، ٤٣٦) وإبراهيم بن أحمد.... ابن الأغلب (ص ٢٧٩، ٤٦٣)، والأوزاعي (ص ٢٨٥، ٣٦٩) وجابر بن عبدالله... الخزرجي (ص ٣١٤، ٤٢٥)، وطلق بن حبيب العنزي (ص ٣٤٣، ٤٠٤)، ومجاهد بن جبر (ص ٢٣٠، ٤٠٩) وعثمان بن حيان المري (ص

٣١١، ٣١٥).

أقول: قد يكون سبب تكرار تراجم قسم من هؤلاء الأعلام يعود إلى وجود تصحيف أو تحريف في المخطوطة، في اسم الشخص المترجم كما حدث مثلاً مع "أصبغ بن الفرج" فسبب ترجمته في المواضع الأربعة هذا التصحيف في اسمه أو اسم أبيه. ولكن كان على المحقق إزاء هذه الحالة (أي تكرار التصحيف) أن يشير في الهامش إلى هذا التصحيف دونما حاجة إلى تكرار الترجمة، ويمكن أن يحيل القارئ إلى الصفحة التي سبق للمحقق الترجمة له فيها. وأيضاً فقد يحدث مثل هذا التكرار في التراجم على سبيل السهو والنسيان، ولكن تدارك مثل هذا السهو ليس بالعسير، إذ يمكن اكتشافه إما عند مراجعة المسودة قبل الطبع أو أثناء عمل الفهارس العامة (الأعلام، والموضوعات.....).

- وأحياناً يرد في الكتاب محنة شخص (غير مشهور) وبدلاً من أن يعرِّف المحقق بهذا الشخص لتتم الفائدة ويوضح النص، يقوم بالتعريف بأحد أقاربه الذي يرد اسمه عرضاً في النص: ففي (ص ١٣٥) ذكر المؤلف قصة قتل عبدالله بن خباب بن الأرت على يد الخوارج، ولم يعرّف به المحقق، بل عرّف بأبيه خباب بن الأرت (الصحابي)، وفي (ص ٢٧٢) جاء ذكر قتل والد أبي مسهر الدمشقي، فترجم لـ "أبي مسهر" ولم يترجم لوالده صاحب القصة، ولم يكتف المحقق بهذه الترجمة لأبي مسهر، إذ ترجم له مرة أخرى (ص ٤٤٦) عندما جاء ذكر محنته.

- ذكر المحقق في المقدمة (ص ٣٦) أن من دواعي ترجمته لأي شخص "أن يكون في ترجمته أو أن الترجمة ذاتها تفسر الغموض أو اللّبس في الرواية".

أقول: ولكن قسماً من التراجم تأتي غير منسجمة مع هذه الخطة فتأتي الترجمة، إما غير مفيدة، وإما في غير مكانها الذي يفترض أنها تأتي لتكشف غموض النص، فمن ذلك على سبيل المثال:

ورد اسم: أسد بن الفرات (كراو) ١٥ مرة من (ص ٦٢ - ٢٩٠) فلما

ورد ذكره للمرة السادسة عشرة (ص ٣٠٣) ترجم له. وورد ذكر زيد بن ثابت عرضاً أربع مرات (ص ٨٣، ١٦٥، ١٧٧، ٢٩١) فترجم له في المرة الرابعة (ص ٢٩١). وترجم لسفيان الثوري مرتين (ص ٢٢٩، ٢٧٥)، وكان من الأفضل أن يؤجل ترجمته إلى (ص ٤٢٠- ٤٢٢) عندما وردت قصة محنته (استخفائه) وورد ذكر النعمان بن بشير عرضاً (ص ١٤٤، ١٤٩) فترجم له ص١٤٩ وكان المفروض كذلك أن يؤجل ترجمته - أو حتى يحيل إليها - إلى حين ورود خبر قتله (ص ٢٠٠).

وجاء ذكر قصة قتل معقل بن سنان الأشجعي (ص ١٦٩ - ١٧٠) ولم يترجم له، ثم ترجم له (ص ٣٤٢) عندما ورد ذكره عرضاً.

وذكر المؤلف سبب ضرب ربيعة بن أبي عبدالرحمن، المعروف بـ "ربيعة الرأي" (ص ٣١١ - ٣١٢) ولم يترجم له فلما ورد ذكره عرضاً (ص ٣٨٢) ترجم له.

- أما الملاحظة الثانية، فتتعلق بالأخطاء في قراءة النص نتيجة التحريف أو التصحيف من قبل الناسخ، أو نتيجة الأخطاء المطبعية:-

جاء في ا لصفحة (٥٨).. حدثنا حماد بن زيد بن عاصم بن بهدلة عن مصعب عن سعد عن أبيه...

أقول: والصواب: حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه.

وجاء في الصفحة (٦٢).. قال كعب إذا رأيت الشارق قد غربت... والصواب: قد غرب.

وجاء في الصفحة (٦٦) عندما أرسل عمر بن الخطاب ابنه عبدالله إلى عائشة يسألها الإذن في أن يدفن إلى جوار صاحبيه، رسول الله (ص) وأبي بكر فقال: - وتقول لها (والخطاب من عمر إلى ابنه عبدالله) يقول لك عمر إيذني

فلأدفن مع صاحبي...

أقول والصواب:.. أن أدفن، كما في رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى (طبعة بريل ١٣٢٢هـ) ٣/١/٢٤٥، ٢٦٥، الطبري (طبعة: أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ط٢ (١٩٧١) ٤/١٩٢.

وجاء في الصفحة نفسها: ليتني { وليت} ذلك كفافاً لا علي ولا لي... وعلق المحقق على كلمة {وليت } بأنها إضافة حتى يستقيم النص...

أقول: والصواب كما جاء في (ص ٧٠) ليتني أنجو من ذلك كفافاً.. أو (أفلت) كما جاء في (ص ٧٥).

وجاء في الصفحة (٦٧) في وصية عمر بن الخطّاب للخليفة بعده:

وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله (ص) وأن يوفي إليهم بعهدهم وأن يقاتل مِنْ ورائهم (كذا).

أقول: والصواب منْ وراءهم.

وجاء فيها أيضاً في الكلام على عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة:

... ورمى مُباحٌ عليه برنساً أو خميصة سوداء...

أقول: وما المراد بـ "مباح" هذا؟ وقد جاء في الصفحة (٦٥) في رواية الحادثة نفسها "فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً له ليأخذه".

وذكر ابن سعد (الطبقات ٣/٢٥٢) أن اسم الرجل الذي طرح البرنس عبدالله بن عوف الزهري، وعند ابن عبد ربه (العقد الفريد، طبعة دار الهلال بيروت ط٢ (١٩٩٠) ٤/٩٦) حِطّان التميمي.

وجاء في الصفحة (٧٠) في سبب قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان:

قال ابن اسحق عن... عن سعيد بن المسيب قال: كان الذي تشبه عليهم في جفينة والهرمزان أن عبدالله بن أبي بكر قال....

وعلّق المحقق في الهامش رقم (٣) كذا بالأصل عبدالله بن أبي بكر ولعل الصواب محمد بن أبي بكر، لأن عبدالله توفى سنة (١١هـ).

أقول: والصواب: عبد الرحمن بن أبي بكر (طبقات ابن سعد ٣/٢٥٨).

وجاء في آخر صفحة (٧٣) وبداية الصفحة (٧٤) في كلام عمر بعد إصابته:

"... وسيطعن في هذا الأمر (أي الاستخلاف) أناس من الناس وأنا قتلتهم (كذا) بيدي على الإسلام... وإني والله ما تركت شيئاً هو لهم (كذا) عندي من أمر الكلالة، وما أغلظ لي رسول الله (ص) في شيء ما أغلظ لي فيها حتى لقد طعن في (كذا) بإصبعيه في خاصرتي...".

أقول والصواب:.. وأنا قاتلتهم... ما تركت شيئاً هو أهم عندي... حتى لقد طعن بإصبعيه في خاصرتي..

وجاء في الصفحة (٧٨) في ذكر مقتل عثمان:

"وجاء رجل طوال بيده نصل فأهوى إليه بمشقص كان أو سلاح أصابه به، فقال (راوي الخبر): صاحب المشقص نيار بن عياض الأسلمي".

أقول: عرّف المحقق بالمشقص ولم يعرف بنيار بن عياض، وكان من حق القارىء أن يعرفه حتى لا يشتبه عليه الأمر، لأن ورود اسم نيار في النص يوحي بأنه أحد قتلة عثمان، وليس الأمر كذلك، فنيار هذا هو شيخ كبير من أصحاب النبي (ص) حاول أثناء حصار الثوار لدار عثمان، أن يجنب المسلمين الفتنة فنادى عثمان الذي أشرف عليه من أعلى داره، فناشده وذكّره الله لمّا اعتزلهم، فبينما هو يراجعه في الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان بسهم فقتله.

وعند ذلك طالب الثوار عثمان أن يدفع إليهم قاتل نيار، ولكن عثمان رفض ذلك مما أدى إلى شدة هياج الثوار، وإحراق باب دار عثمان وتسور داره وقتله، واستخدم القتلة مشقص نيار في قتل عثمان... (الطبري ٤/٣٨٠ - ٣٨٢).

وجاء في الصفحة (٩٤، ٩٥) في ذكر قتل علي بن أبي طالب: دعا علي الناس إلى البيعة، وجاء عبد الرحمن بن ملجم فيهم فردّه مرتين أو ثلاثاً ثم بايعه، فقال (أي علي) أما يُحبس أشقاها...

أقول: والصواب: ما يحبِس (أشقاها (ابن سعد ٣/٣٣).

وجاء في الصفحة (٩٧): عن خالد أبي حفص عن أبيه أنه سمع علياً قبل أن يصاب بأربع يقول: إن الشقي آن له أن يجيء فيضرب هذه - جبهته - حتى يخضب هذه بدم لحيته...".

أقول: أولاً إن اسم الراوي خالد بن حفص وليس أبي حفص.

وثانياً: إن اللحية ليس بها دم، وإنما المراد كما وردت في عدة روايات في هذا الكتاب: أن تخضب لحيته بدم جبهته، ولعل التقديم والتأخير في الجملة خطأ من الناسخ.

وجاء في الصفحة (٩٦):

خُذ حذِرك للموت فإن الموت آتيكا

أقول: ليست رواية الرجز مقيمة للوزن، وصوابه أن يكون

خذن حذرك للموت فإن الموت آتيك.

وجاء في الصفحة (١٠٣) (ذكر قتل طلحة والزبير وعمار):

.... فانطلق الزبير حتى أتى سفوان فتلقاه النغر المجاشعي...

أقول: ورد اسم الرجل عند الطبري (٤٩٨/٤) وابن سعد (٧٨/٣) النَّعِـــر المجاشعي.

وجاء في الصفحة نفسها: قال الأحنف بن قيس: إذن يلحق بنُيّته والصواب يلحق ببيته.

وجاء في الصفحة (١٠٥) هذا البيت وهو ثالث ثلاثة:

شُلّت (كذا) يمينك إن قتلت مباركاً حلّت عليك عقوبة المتعمد

أقول: والصواب: شلّت (بفتح الشين) والبيت في شواهد النحاة، وهم يأتون به في زيادة اللام المفتوحة في المفعول وروايتهم:-

شلّت يمينك إن قتلت لمسلما......

وجاء في الصفحة (١٠٩):

وحدثنا يحيى عن أبيه.... أنهما سمعا الزبير بن العوام يقول: لقد تلوت هذه الآية زماناً ما أحدث نفسي أن أكون من أهلها فإذا نحن المعنون (كذا) بها. وقـــد علق المحقق في الهامش بقوله: زماناً ما أحدث نفسي... المعنون بها خرجة من الحاشية".

أقول: كنت أميل إلى حمل "المعنون" على الخطأ المطبعـــي لـــولا تـــأكيد المحقق لها في الهامش.

والصواب: فإذا نحن المعنيون بها.

- وجاء في الصفحة (١١٢) (في خبر قتل عمار)

".... فلما كان يوم صفين أقبل (أي عمار) يمشي أول الكتيبة راجلاً حتى كان بين الصفين طعن رجل في ركبته بالرمح فانكفأ المعفر عنه. فأضربهُ (كذا)

فإذا رأس عمار".

أقول: والصواب أن تكون الجملة على النحو الآتي:

فلما كان يوم صفين أقبل يمشي أول الكتيبة راجلاً حتى (إذا) كان بين الصفين (طعنه) رجل.... فأكفأ المغفر عنه (فضربته) فإذا رأس عمار.

وجاء في الصفحة (١١٣) وفي ذكر قتل عمار أيضاً:

... فسمعته يقول (أي عمار): الجنة تحت الأسنة، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه....

أقول: كتب المحقق هذه الجُمل متصلة، وكأنه لم يدرك أن ما قاله عمّار هو رجز، وكان المفروض أن تكتب هكذا:

الجنة تحت الأسنة اليوم ألقى الأحبة
محمداً وحزبه

(الطبري ٥/٣٩،٤١، ابن سعد ٣/١٨٤)

جاء في الصفحة (١٣٠) في ذكر مقتل حجر بن عدي:

..... فاختاروا زياداً فأرسلوه إلى معاوية فأخذ لهم الأمان وبايعهُ على سنة الله (كذا) وسنة رسوله (ص)....

أقول: والصواب... وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله (ص).

وجاء في الصفحة (١٣٧) في ذكر قتل عبدالله بن خباب بن الأرت:

" قال عبدالله: عليكم السلام إذا لم تفعلوا، قالوا (أي الخوارج) إن هذا يأمرنا بضربك - هذا يعنون المصحف - فقتلوه وقتلوا رجلاً من مزينة ورجلاً

من بني شيبان، قال عبدالله بن خباب: ما أحيا الكتاب فأحيوه، وما أمات فأميتوه، فنزلوا فقتلوه وقتلوا رجلاً من مزينة ورجلاً من بني شيبان وجبوا الخراج...."

أقول: من الملاحظ في هذه الفقرة تكرار وتداخُل الجُمل، ويبدو أن ذلك إما من سهو الناسخ أو عامل المطبعة، ولم ينتبه إليه المحقق، وصوابها:

"... قال عبدالله: عليكم السلام إذا لم تفعلوا، قالوا: إن هذا يأمرنا بقتلك- هذا يعنون المصحف - قال عبدالله بن خباب: ما أحيا القرآن فأحيوه وما أمات فأميتوه، فنزلوا فقتلوه، وقتلوا رجلاً من مزينة ورجلاً من بني شيبان وجبوا الخراج...".

وجاء في الصفحة (١٤٠) هذا البيت:

حسبك من لا يظلم الناس حبه وهو ذو عضو كريم ومفضل

وقد أشار المحقق في الهامش إلى أن البيت مختل الوزن، أقول: ويستقيم الوزن لو قلنا:

فحسبك من لا يظلم الناس حبه وها هو ذو عفو كريم ومفضل

وجاء في الصفحة (١٦١) في ذكر من قتل يوم الحرة، ومن رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة يتهددهم بها:

.... ووالله لئن ثرت بكم لأضعنكم تحت رجلي، ثم لأطأنكم وطأة أقل فيها عددكم وأترككم أحاديث لِشَجٍ (كذا) كأحاديث عاد وثمود..."

أقول: و"لِشَج" هذه لا معنى لها في الجملة، وهي تحريف من الناسخ لـ (تنتسخ) كما وردت في العقد الفريد (١٧٣/٤٠) وصبح الأعشى (٣٩٠/٦) أي أن الجملة:

... وأترككم أحاديث تنتسخ كأحاديث عاد وثمود....

وجاء في نهاية الصفحة (١٦١) وبداية الصفحة (١٦٢):

... وقال الواقدي عن داود بن الحصين عن أبي سفيان قال....

أقول: والصواب: قال الواقدي عن داود بن الحصين عن (عبدالله) ابن أبي سفيان.... (ذكر المؤلف عدة روايات عن عبدالله بن أبي سفيان في الصفحات (١٦٤، ١٦٦، ١٧٢).

وجاء في الصفحة (١٦٢) السطر الخامس:

.... لما اجتمع يزيد بن معاوية على بعثه الجيوش إلى المدينة....

والصواب: لما أجمع يزيد.....

وجاء في الصفحة نفسها (س ١٤)

.... فأنظر إليه يبايعهم على الموت....

أقول: ولعل الجملة: فإني أنظر إليه يبايعهم على الموت.

وجاء من الصفحة (١٦٣) السطر (١٥):

فقال (أي مسلم بن عقبة) لمروان: أقر ما قلت لي...

والصواب: أين ما قلت لي؟ (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة طبعة الحلبي (١٩٣٧) ٢٢٢/١)

وجاء في الصفحة (١٦٦)

.... مَرّ (أي مروان بن الحكم) علىٍ عبدالله بنِ زيد وبين عينيه أثر السجود فلما نظر إليه مروان وكره أن يُعرف به فحزّ راسه....

والصواب: فكره أن يُعرِّف به فيحز راسه.

وجاء في الصفحة (١٧٣) في تسمية من قتل بالحرّة.

قال: (أي الواقدي) قرأت كتاب إبراهيم بن إسماعيل... تسمية من قتل بالحرة، وأخبرني إبراهيم أن الكتاب كتاب داود بن الحصين مولى آل عثمان بن عفان، من بن هاشم...".

أقول: لعل في الجملة سقط بعد كلمة: مولى آل عثمان، والصواب أن تكون الفقرة هكذا:

... وأخبرني إبراهيم أن الكتاب كتاب داود بن الحصين مولى آل عثمان: (فممن قتل بالحرة من قريش ثم) من بني هاشم... إلخ

أقول: ذكر المؤلف في (ص ١٧٧) س١٣-١٤: فجميع من يحصى ممن قتل من قريش مائة رجل وتسعة وخمسون رجلاً، (ثم ينتقل بعدها لإحصاء قتلى الأنصار) وانظر أيضاً: تأريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف (١٣٨٦هـ) ١/٢٣١.

- أورد المؤلف أسماء من قتل بالحرة من المشهورين من قريش والأنصار وغيرهم (ص ١٧٣-١٨٢)، ولكن المحقق الفاضل لم يدقق كثيراً في ضبط أسماء هذه الجمهرة من الأعلام، ولو تأنى لوجد أن خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ تقريباً) قد أثبت في تأريخه أسماء هؤلاء الشهداء وبنفس ترتيب كتاب المحن (مع اختلاف يسير وترجمت - كذلك - بعض كتب الطبقات لطائفة منهم، وكان بإمكان المحقق - على الأقل - أن يشير إلى الاختلاف بين أبي العرب وخليفة بن خياط، إذا لم يتمكن من ترجيح الصحيح منهما بالرجوع إلى مصادر أخرى، وسنكتفي بذكر بعض هؤلاء الأعلام على سبيل المثال، مع مقارنتها بما أورده خليفة من خياط أو ابن سعد:

جاء في الصفحة (١٧٣) س ١٦ - ١٨:

ومن بني المطلب بن عبد مناف: يحيى بن نافع بن عُمير بن يحيى، (و) يزيد بن هاشم بن المطلب، وعبدالله بن نافع بن عُمير بن عبدالله بن يزيد بن هاشم...."

أقول: وعند خليفة بن خياط (٢٣١/١) يحيى بن نافع بن عُجير بن عبد يزيد بن هاشم..... وعبدالله بن نافع بن عجير (بن عبد يزيد بن هاشم)

وفي (ص ١٧٤) س ١-٢:

ومن حلفائهم... عبدالله بن عباد بن شيبان، وصفوان بن عبدالله بن شيبان، والأسود بن عمار بن شيبان...".

أقول: وعند خليفة بن خياط (٢٣١/١):

.... وصفوان بن عباد بن شيبان، والأسود بن عباد بن شيبان.

وفي الصفحة نفسها (س ١٨)

الزبير بن عبدالرحمن بن عوف....

وعند خليفة بن خياط (٢٣٣/١): زيد بن عبدالرحمن....

وفي الصفحة السابقة (س ٢١)... ومحمد بن الأسود بن مخرمة.

وعند خليفة (٢٣٣/١) ومحمد بن المسود بن مخرمة.

وجاء في آخر الصفجة (١٧٥) وبداية الصفحة (١٧٦):

ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: ذؤيب بن عمامة، (قال المحقق في الهامش عن عمامة: في الأصل عمانة) وفلان بن الأحنس بن

حذافة... ومن حلفائهم متّاع بن خلفة، ومضاء بن مناع..."

أقول: وعند خليفة (١/٢٣٥)

.... ذوئب بن عمرو بن خنيس بن حذافة بن سعد بن سهم، وابنه.. ومياح بن خلف، وفضالة بن مياح.

- وأيضا في (ص ١٧٥) س ٩ -١٠:.. ومؤمن بن الحارث بن الطفيل...

وعند خليفة (١/٢٣٤)... وموسى بن الحارث بن الطفيل.

وفي الصفحة نفسها، س١١: ومن مواليهم: عمّار بن صهيب بن مصعب....

وعند ابن سعد (الطبقات الكبرى ٥/١٨٢): عمارة بن صهيب.... وفي (ص ١٧٦) س ٤ -٥:

ومن بني جمح: عبد الملك بن محمد بن الخطّاب بن معمر بن حبيب والخطاب بن الحارث...

وعند خليفة (١/٢٣٦) عبد الملك بن حطّاب... وحطّاب بن الحارث...

وفي الصفحة نفسها، س ١٩ - ٢٠: ومن بني معيص... فضالة بن خالد بن تالية، والحارث بن خالد بن تالية، ومسلم بن خالد بن تالية، وفلان بن خالد بن تالية أقول: وعند خليفة (١/٢٣٧): فضالة بن خالد بن نائلة (وليس ابن تالية)...

وفي (ص ١٧٧) س١: ومن بني الحارث بن فهر: سعيد بن أبي عبدالله.... وعند خليفة (١/٢٣٧) شعيب بن أبي عبدالله.

وفي الصفحة نفسها (س٢)... ومصعب بن عبدالله بن أبي حكيم.. وعند

خليفة (٢٣٧/١) ومصعب بن عبدالله بن أبي خيثمة.

وفيها أيضاً (س٦): وزياد بن أبي همهمة..

وعند خليفة (٢٣٧/١).. وزياد بن أبي أميمة..

وفيها أيضاً (س١٨ - ١٩): ومحمد بن عمرو بن حزم، وهم ستة، ثلاثة الأولاد محمد بن عمرو بن حزم، وعبدالله بن محمد بن عمرو بن حزم، وحزام بن زيد بن لوعان.... إلخ

أقول: ذكر خليفة بن خياط (٢٤١/١) أسماء أولاد محمد بن عمرو بن حزم، وهم عبدالرحمن وعثمان وعبد الملك، ولم يرد لـ "حزام بن زيد بن لوعان" أي ذكر عند خليفة، وربما كان هذا الاسم "حزام" مصحفاً عن "حزم" و "لوعان" مصحفاً عن "لوذان" وأن المؤلف قصد بذلك تتمة نسب محمد بن عمرو بن حزم، وقد ذكر نسبه ابن سعد (٤٩/٥ - ٥٠): محمد بن عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان.....

وفيها أيضاً (س ٢٠،٢١): والعلي بن عبدالله بن الربيع بن نعمان بن أبي يساف بن نضلة، وعمرو بن العلي بن عمرو...

وعند خليفة (٢٤١/١): والعلاء بن عبدالله بن رقيم بن نضلة وعمر بن المعلى بن عمرو.

وفي (ص ١٧٨) س ١٥ - ١٦، وعمارة بن عقبة بن كريز.

وعند ابن سعد (٥ /١٩٦) عمارة بن عقبة بن كريم

وفي الصفحة نفسها (س ١٩): وبشر بن أبي عياش...

وعند ابن سعد (٢٠٥/٥) بشير بن أبي عياش

وفي (ص ١٧٩) س ٥ - ٧: وعن الحارث بن الخزرج: عبدالرحمن بن خبيب بن أساف بن عبيد، ومحمد بن عبدالله بن خالد بن أساف... وسعد بن كليب بن أساف....

أقول: وكذلك وردت أسماء هؤلاء عند خليفة بن خياط (٢٤٢/١ - ٢٤٣) وعند ابن سعد (الطبقات ١٩٩/٥): عبدالرحمن بن عبدالله بن خبيب بن يساف بن عنبة... إلخ وذكر كذلك في نسب محمد بن عبدالله.... بن الحارث بن الخزرج، أن أمه: سعدى بنت كليب بن يساف (١٩٩/٥).

وفي (ص ١٨٠) س ٩ - ١٠: ومن بني رُزيق: فروة بن أبي عبادة بن سعد بن عثمان، وابنه عثمان بن فروة، وسعيد بن أبي عبادة....

أقول:: وعند خليفة (٢٤٤/١): عروة بن أبي عمارة (بدلاً عن فروة بن أبي عبادة). وعند أبي سعد (٢٠٥/٥ - ٢٠٦) فروة بن أبي عبادة سعد بن عثمان، (اسم أبي عبادة: سعد بن عثمان).

وفي الصفحة نفسها (س ٢١) ومن بني زعوراء: عباس بن سلكان بن سلامة وعند ابن سعد (١٨٨/٥) عباد بن أبي نائلة سلكان.

وفي (ص ١٨١) س٢: وسلامة بن عباد بن سلكان:

وعند ابن سعد (١٨٨/٥) وسلمة بن عباد بن سلكان

وفي الصفحة نفسها (س ١٣): ومن بني عمرو بن عوف: يحيى بن مجمع بن حارثة، وعبدالله بن مجمع بن حارثة.

وعند ابن سعد (١٩٢/٥).... ابن جارية، وليس ابن حارثة

وجاء في الصفحة (١٨٦) في خبر محاصرة الحصين بن نمير لمكة حينما بلغه موت يزيد بن معاوية.

"…. فمال حصين وأصحابه إلى الشام رسلاً حتى قدموا الشام فلما قدموا وجدوا معاوية بن يزيد قد مات……،،

أقول: هذه الجملة غير مفهومة، ويبدو أن فيها نقصاً ويمكن أن تكون الجملة هكذا:

…. فمال حصين وأصحابه (إلى موادعة ابن الزبير وأرسلوا) إلى الشام رسلاً….

وجاء في الصفحة (١٨٧) في كيفية قتل مروان بن الحكم:

" فأمرت (أي زوجة مروان وأم خالد بن يزيد بن معاوية) جواريها فطرحن عليه الشوارك (كذا) ثم غطينه حتى مات…"

أقول: والصواب: الشواذك وليس الشوارك وهي فارسية مفردها، شادكونة، وتعني: الفراش الذي ينام عليه، والمتكأ…. الخ (المعجم الذهبي / محمد التونجي طبعة: دار العلم للملايين؛ ص ٣٦١) (قطر العرب المحيط لبطرس البستاني، طبعة دار المشروق ١٠٢٢/١).

- وجاء في الصفحة (١٩٦) في ذكر مقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص:

" فقال المختار بن أبي عبيد لأبي عمرة صاحب حرسه: استأجر لي نوائحاً يبكين على الحسين…."

والصواب: نوائح

- وجاء في الصفحة (١٩٨) في ذكر من قتل يوم مرج راهط:

حدثنا عن أبيه… عن أبي معشر أن عمر بن سعيد عمل على الضحاك بن قيس… فأقبل عمر والضحاك بمرج راهط…"

والصواب:... أن عمرو بن سعيد (وليس عمــر) عمــل علــى (خــداع) الضحّاك بن قيس... فأقبل عمرو، والضحاك بمرج راهط...

(أنظر الإمامة والسياسة/ ابن قتيبة ٢/١٦) أقول: وهناك مصادر أخــرى تذكر أن الذي تولى خداع الضحاك بن قيس هو عبيدالله بن زياد (طبقــات ابــن سعد ٥/٢٨؛ تهذيب تأريخ ابن عساكر: هذّبه عبدالقادر بــدران، بــيروت: دار إحياء التراث ط٣ (١٩٨٧) ٦/١١)

- وجاء في صفحة (٢٠٩)، س ٥:

قال له: فرجعت عن الإسلام... والصواب أفرجعت عن الإسلام؟.

وجاء في الصفحة (٢١٢) في ذكر سبب قتل كميل بن زياد:

... لبس كميل ثيابه... فجاء.. حتى صعد المنبر... فسبّ ولعن وحرّض.. على أهل الشام... فبلغت خطبته، قال (راوي الخبر) فلما ظفر الحجــاج..أتــى بكميل...."

أقول: والصواب: فبلغت (الحجّاج) خطبته.

- وجاء في الصفحة (٢١٦) في ذكر قتل سعيد بن جببير:

"حدثني مالك بن عيسى... قال حدثني إسماعيل بن واسط، قــال: دعــاني خالد بن عبدالله القسري، وهو يومئذ أمير على مكة، فقال: يا بن واسط انطلــق بهذا الرجل فإن عبد الملك بن مروان بعث إلي أن أبعث به إليه..."

وجاء في الصفحة (٢٢٦):.. فلما انهزم ابن الأشعث من ديــر الجمــاجم هرب سعيد (بن جبير) إلى مكة، فأخذه خالد بن عبدالله القسري وكان والي عبد الملك على مكة فبعث به إلى الحجاج..."

أقول: جاء في النص الأول، اسم إسماعيل بن واسط، وهذا تصحيف مــن

الناسخ، والصواب: إسماعيل بن أوسط البجلي كما ورد في المصادر التي ذكرت الرواية (طبقات ابن سعد ١٨٥/٦؛ المنتظم/ لابن الجوزي حوادث سنة ٩٥هـ، وفيات الأعيان، طبعة إحسان عباس، ٣٧٢،٢).

وجاء في النصين: إن خالد بن عبدالله القسري كان والياً لعبد الملك بن مروان، على مكة، وهذا وهم من المؤلف، كان ينبغي على المحقق تداركه لا سيما وأنه ترجم لخالد بن عبدالله القسري في الصفحة (٢٢٦) وذكر فيها أنه ولي مكة للوليد بن عبد الملك... أقول: توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ وتولى خالد القسري على مكة سنة ٩١ هـ، وقُتل سعيد بن جبير سنة ٩٥هـ.

وجاء في الصفحة (٢٢٠) وفي ذكر قتل سعيد بن جبير أيضاً، النص الآتي:

" قال (أي الحجاج لسعيد بن جبير) ما تقول في الخلفاء منذ كان النبي (ص) إلى يومنا هذا؟ قال: سيجزون بأعمالهم فمسرور ومثبور، لست عليهم بوكيل، قال: ما تقول فيَّ ؟ قال: أنت ونفسك أعلم، قال: بث في علمك، قال: إذاً أسوؤك ولا أسرك، قال فبث، قال: ظهر منك جور في حكم اللبسه وجرأة على معاصي الله، قال: ذمهم أو امدحهم، قال: إنما استحفظت أمر نفسي، قال فأي رجل أنا، قال: يوم القيامة تخبر، قال: فأيهم أحب إليك، قال: أرضاهم لخالقه، قال: وأيهم أرضاهم لخالقه، قال: اتبعهم لأمره، وأعلمهم بطاعته، قال: والله لأقطعنك أعضاء...."

أقول: يلاحظ في النص السابق تداخل بعض الجمل ببعض ويبدو أن ذلك بفعل الناسخ، ولم يتنبه إليه المحقق، وقراءة النص (الأقرب إلى الصواب) كما يلي:

... قال: ما تقول في الخلفاء منذ كان النبي (ص) إلى يومنا هذا؟ قال: سيجزون بأعمالهم فمسرور ومثبور، لست عليهم بوكيل، قال: ذمهم أو امدحهم؟ قال: إنما استحفظت أمر نفسي، قال: فأيهم أحب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقه. قال:

وأيهم أرضاهم لخالقه؟ قال: أتبعهم لأمره وأعلمهم بطاعته، قال: فأي رجل أنـــا؟ قال: يوم القيامة تخبر، قال: ما تقول في؟ قال: أنت أعلم بنفسك. قال بـــث فـــي علمك؟ قال: إذاً أسوؤك ولا أسرك، قال: بث! قال: قد ظهر منك جور في حكـــم الله وجرأة على معاصي الله، قال: والله لأقطعنك أعضاء..."

- وجاء في نهاية الصفحة (٢٢٢) وبداية الصفحة (٢٢٣):

"... قال الراهب: فليعط ما أثق به، قال: سعيد إني أعظم على الله العظيم الذي لا شريك له لا أبرح مكاني حتى أصبح..."

وقد أشار المحقق في الهامش رقم (٤) إلى أن كلمة الراهب "فليعط" وردت بالأصل: فليعطي، والوجه حذف الياء مع لام الأمر.

أقول: والصواب: فليعطني

كما نبه المحقق في الهامش رقم (٥) على جواب سعيد بن المسيب " أنـــي أعظم على الله" إلى أنها جاءت هكذا بـــالأصل والكلمـــة فيهـــا حـــكّ، أقـــول: والصواب: إني أعطى الله العظيم الذي لا شريك له... إلخ

(انظر: سير أعلام النبلاء / للذهبي ٤/٣٢٩)

وجاء في (ص ٢٢٤، س ٦ -٧):

"ثم قام المتلمس الثقفي وآخر معه حتى دخلا على الحجاج، فقال: أتيتماني بسعيد بن جبير، قالا: نعم: وعاينا منه العجب، فأصرف وجهه عنهما...."

أقول: ولا وجه لقوله "فأصرف" وجهه، والصواب: فصرف....

وجاء في الصفحة (٢٦٤):

وحدثني يحيى... أن نفراً ستة دخلوا بيت المال فأعطوا صدقات أموالهـــم،

وأخذوا بدوابهم، ودخلوا المسجد، فقام رجل منهم فصلى بهم العصر، فأُخذ وانطُلق به إلى حرف... عند بيت المال، فضربت عنقه فأتيت (أي راوي الخبر) أبا بكر (كذا) وهو جالس في الرحبة فأخبرته بقتل الرجل بما صنع... قال: وكان حمزة (كذا) بن جندب قد سمى في حديثه قاتل الرجل..."

أقول: قوله "أبا بكر" تصحيف، والصواب "أبا بكرة" وهو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي والصحابي، أخو زياد بن أبيه من أمه سمية، (ترجم له المحقق ص ٢٨٨)، وقوله " حمزة بن جندب" أيضاً تصحيف والصواب "سمرة بن جندب" وقد ذكر الطبري هذه الحادثة بألفاظ مقاربة لرواية أبي العرب التميمي، (الطبري ٥/٢٩٢).

أقول: وسمرة بن جندب هذا – مع أن له صحبة – إلاّ أنه كان أحد الولاة القساة كبسر بن أرطأة، وزياد بن أبيه، وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف... إلخ.

الذين وطدوا حكم بني أمية بالقوة وشدة البطش والتنكيل والإسراف في سفك الدماء، (انظر: الطبري ٥/٢٣٤ – ٢٣٧، ٢٩١ – ٢٩٢).

وجاء في الصفحة (٢٨١):

...وشهد بعض مشارقه مدينة سوسة... علي... محمد بن إبراهيم المعروف بالسنجري، وعلي حسن بن مفرح الموثق بأنهما يقعان في علي بن أبي طالب... رحمه الله. فضربا بالسوط، وقتلا بالرماح بالمهدية سنة تسع ومائتين....

أقول، والصواب سنة تسع (وتسعين) ومائتين، لأن الخبر الذي يليه يوضح ذلك: قال أبو العرب: وكان قد قتل قبل هذا ابن هذيل وإبراهيم بن محمد... قتلهما... حسن بن أحمد بن أبي خنزير في سنة سبع وتسعين ومائتين...

وجاء في الصفحة (٢٨٣) س٤:

... إن أهل البلاء في الدنيا إذا لبثوا (كذا) على بلائهم في الآخرة....
أقول: قوله "لبثوا" تحريف والصواب "أثيبوا"

وجاء في الصفحة (٢٩٦) في ذكر ضرب سعيد بن المسيب، حيث قال سعيد بن المسيب لوالي المدينة الذي عذبه لرفضه البيعة بولاية العهد للوليد بن عبد الملك:

... فأقض ما أنت فاقض إنما تقص (كذا) هذه الحياة الدنيا..."

وقد فسّر المحقق كلمة "تقص" في الهامش رقم (٢)، تقص: أي تعاقب.

أقول: لقد تسبب تحريف الناسخ لكلمة "تقضي" إلى "تقص" إلى عدم إدراك المحقق للآية الكريمة التي ضمنها سعيد بن المسيب ردّه على الوالي الذي عذبه وهي: "فأقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا" (طه /٧٢)

وجاء في الصفحة (٣٠٣) في ذكر ضرب محمد بن عمرو بن العاص:

قال أبو العرب: حدثني غير واحد... عن أنس بن مالك، أنه قال: بينما نحن عند عمر بمنى إذ دخل عليه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين: إنه استبق هو ومحمد بن عمرو فسبقته فعدا علي فضربني... إلخ.

أقول: والصواب أن تكون بداية الرواية على لسان المتكلم والضمائر فيها للمتكلم "... يا أمير المؤمنين إنني استبقت أنا ومحمد بن عمرو فسبقته فعدا علي فضربني..."

وجاء في الصفحة (٣١١) في ذكر سبب ضرب محمد بن المنكدر:

... قال: وحدثنا مالك، أن عثمان بن حيان المري كان أميراً على المدينة، وعظه محمد بن المنكدر وأصحابه نفراً في شيء بلغهم..." أقول: والصواب:

"... إن عثمان بن حيان المري (عندما) كان أميراً على المدينة وعـظ (وليس وعظه) محمد بن المنكدر وأصحابه... إلخ".

وجاء في الصفحة (٣٢٧):

... وكان ابن المبارك يقول: ما رأيت أحداً أُفضله على سفيان الثوري ما أدري (كذا) ابن عون..."

أقول: ولعل الصواب: ما عدا ابن عون....، يدلنا على ذلك الخبر الذي قبل هذا: "وكان عبدالله بن المبارك يقول: ما وصفت أحداً إلاّ وجدته دون صفته "إلا" ابن عون وحياة بن شريح"

وجاء في الصفحة (٣٢٩) السطر السابع:

إنْ كنا لنؤدَّب عليه بالمدينة.." وقد أشار المحقق إلى أن كلمة "عليه" كانت في الأصل "عليها" وأضاف: ولعله يريد مصنفاته. أقول: الصواب هو ما جاء في الأصل "عليها" لأن الضمير فيها عائد إلى مسألة رفع اليدين في الصلاة التي ضُرب بسببها عطية بن قيس...

وجاء في الصفحة (٣٣٧) في ذكر ما امتحن به صعصعة بن صوحان:

.... فقدموا على معاوية فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قدمتم على إمامكم وهو جنة لكم، وقدمتم أرض المقدسة، المحشر والمنشر.. (أقول: والصواب: وقدمتم أرض (الله) المقدسة (منها) أو (أرض) المحشر والمنشر... إلخ (راجع خطبة معاوية في: العقد الفريد ٣/١٠٠)

وجاء في الصفحة (٣٥٣): في ذكر ضرب صفوان بن سُليم:

... كان صفوان بن سليم قد كف بصره في آخر زمانه فبينما هو ذات يوم في السوق يقاد إذ دخل بلال بن أبي بردة... فسمع الطريق والجلاوزة بين يديه،

فقال: ما هذا؟ فقيل له: بلال بن بردة، فقال: (....) سحائب صيف عـــن قريـــب تقشع، فسمعه بلال.. فضربه بالسياط...

أقول: الثابت من المصادر التاريخية والأدبية التي ذكرت هذه الحادثة، أن هذا الشخص الذي ضربه بلال بن أبي بردة، هو خالد بن صفوان التميمـــــي (ت ١٣٣ هـــ تقريباً) وليس صفوان بن سليم (انظر: الكامل/ للمبرد ٢٦٢/١ (طبعة مؤسسة المعارف بيروت)؛ العقــد الفريـــد ٢٢٠/٣ ؛ وفيـــات الأعيـــان ١١/٣؛ البصائر والذخائر ١١١/١ - ١١٢ (طبع الكيلاني).

وجاء في الصفحة (٣٧٩) في ذكر ما نزل بجطيطـــة الزيـــات: (الســـطر السادس)

.. فأخذه مُعد فوضع الوهق على ساقيه فحطمه..."

وقد فسّر المحقق "الوهق" بأنه حبل في طرفيه أنشوطة.

أقول: "الوهق" تحريف والصواب "الدهق" وهو عبارة عن آلـــة مـــن آلات التعذيب تشتمل على خشبتين يضيّق بهما على ساقي المعذب أو أحد أجزاء بدنه، (انظر: لسان العرب مادة: دهق، موسوعة العذاب / عبود الشالجي ٤ /٢١٣).

خاتمة:

وبعد فهذه بعض الملاحظات اجتزأت بها عن غيرها آملاً أن يفيـــد منهـــا دارس الكتاب، وكذلك المحقق الفاضل فيما لو أعيد طبع الكتاب للمـــرة الثالثـــة، وهذا ما نأمل أن يتم إن شاء الله.

نصوص أخرى من صناعة الكُتّاب

لأبي جعفر النحاس

الدكتور نوري حمودي القيسي

نشر الدكتور أحمد نصيف الجنابي مشكوراً نصوصاً باقية من صناعة الكتّاب لأبي جعفر النحاس في مجلة المورد العدد الرابع - المجلد الثاني - كانون الأول ١٩٧٣، وقد تناول في هذه الدراسة القيمة منهج البحث بالدرس والتحليل والشرح والتعقيب بما وقف عليه من النصوص الباقية من هذا الكتاب وهي خمسون نصاً في مختلف مناحي الكتابة وفي منهجها من حيث ابتداءاتها وعنواناتها واشتقاق قسم من أسماء مصطلحاتها. وقدم لكل ذلك بدراسة تناول فيها المؤلف، مولده، وعصره ومعاصريه، وكتبه الباقية والمفقودة، ثم عرض لتلاميذه وأخيراً وقف على كتاب صناعة الكُتّاب الذي تحدث فيه عن محتوياته وطابع الكتاب ثم مصادره وأثره فيمن ألف بعده وأخيراً ذكر النصوص... وهي دراسة مستفيضة وجليلة تستحق التقدير.

وفي المجلد الثالث ١٩٧٤ والعدد الثاني من مجلة المورد استدرك الدكتور أحمد خطاب أحد عشر نصاً من كتاب النحاس معتمداً على صبح الأعشى للقلقشندي وبدأت أشلاء الكتاب تتجمع لتكشف عن الصورة التي قدم فيها المؤلف هذا الكتاب الجليل الذي يدخل في إطار الاهتمام بلغة القرآن والنحو العربي والخط والكتابة وهي مستلزمات توجبها طبيعة البحث وتؤكدها أسباب الدراسة لتقويم اللغة وتحسين أدائها وضبط لغتها وفاءً لما تؤديه وإكراماً لجلال قدرها.. ويبدو أن كتاب صبح الأعشى يزخر بنصوص أخرى من هذا الكتاب صرّح ببعضها المؤلف ولم يصرّح ببعضها الآخر وهي مهمة يمكن أن يضطلع بها باحث للمّ شمل هذا الكتاب.. وقد وجدت من المناسب أن أدلو بدلوي في هذا الباب وأنا أعثر على نصوص أخرى في صبح الأعشى وفي كتاب مآثر الأنافة

في معالم الخلافة الذي فرغ من تأليفه سنة ٨١٩ للهجرة وقدمه إلى خليفة الوقت الإمام الأعظم المعتضد بالله أبي الفتح داود بن المتوكل وفيه عدد من نصوص هذا الكتاب ولا أستبعد أن تكون هناك نصوص أخرى منه في كتب القلقشندي أو مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري أو النويري في موسوعته الفريدة نهاية الأرب في فنون الأدب.

وإنني إذ أقدم هذه النصوص أدعو الله مخلصاً أن يعين الباحثين على إيجاد ما ترك من هذه المؤلفات التي تحمل ثمار النضوج العقلي لمرحلة علمية ازدهرت فيها حركة اللغة واستقرت في إطارها عوامل النهوض...

النص الأول ٦/٢٩٠

ما كَرِهُوه في المكاتبة إلى كل أحد.. قال القلقشندي:

وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في صناعة الكُتّاب مثله عن مالك بن أنس واحتج له بما رُوي عن الزبير رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم "جُعلت فداك – فقال له أما تركت أعرابيتك بعد" على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن مالك يوم أحد "ارمِ فداك أبي وأمي" وبما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ألا أعلِّمكَ كلمات ينفعك اللهُ بهنّ؟ قال نعم جعلني اللهُ فداك" ولم يُنكر عليه ونحو ذلك.

النص الثاني ٦/٣٣٧

ونقل النحاسُ عن بعضهم أنه استحب تقييده بالإضافة إلى شيء آخر مثل أن يكتب "أطال الله بقاءك في طاعته وكرامته" أو "أطال الله بقاءك في أسرِّ عيش وأنعم بال" وما أشبه ذلك. هذان نصّان من صبح الأعشى.

أما النصوص المذكورة في كتاب مآثر الأنافة في معالم الخلافة فقد جاء في الجزء الأول "في معنى الخلافة، ومن ينطلق عليه اسم الخليفة، ومن تكون

عنه الخلافة، وكيفية النسبة إلى الخليفة".

وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم، وقدير بمعنى قادر، ويكون المعنى فيه أنه يَخلُفُ من بعده، وعليه حمل الآية السابقة - وهي قوله تعالى: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة" - من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض الجنُّ أو الملائكة وإنه خلفهم فيها. واختاره أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكتّاب" وعليه اقتصر الماوردي (الصفحة العاشرة)... وعليه اقتصر الماوردي في الأحكام السلطانية. قال النحاس: وعليه خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله وعلى ذلك ينطبق كلام البغوي في شرح السنة حيث سُمِّي خليفة لأنه خلف الماضي قبله، ثم قال النحاس وإطلاق الخليفة على أمير المؤمنين يحتمل الوجهين جميعاً.

واختلف في الهاء في آخره، فقيل: أدخلت فيه للمبالغة، كما أدخلت في رجل داهية للكثير الدهاء، وراوية للكثير الرواية. وعلاّمة للكثير العلم. وهو قول الفرّاء واستحسنه النحاس ناقلاً له عن أكثر النحويين، ونُقل عن علي بن سليمان تخطئته احتجاجاً بأنه لو كان كذلك لكان التأنيث فيه حقيقياً، وليس كذلك، وقيل: الهاء فيه لتأنيث الصيغة، قال النحاس: وربما أسقطوا الهاء منه وأضافوه فقالوا: فلانٌ خليفُ فلان، يعنون خليفته (الصفحة الحادية عشرة).

وأجاز الكوفيون فيه (الخليفة) التأنيث على اللفظ فيقال أمرت الخليفة بكذا وأنشد الفراء:

أبوك خليفةٌ ولدتْه أُخرى وأنت خليفةٌ ذاك الكمالُ

ومنع البصريون ذلك مُحتجّين بأنه لو جاز ذلك لجاز: قالت طلحة، في رجل اسمه طلحة، وهو ممتنع، قال النحاس: فإن ظهر اسم الخليفة تعيَّن التذكير باتفاق، فتقول: قال الراضي الخليفة ونحو ذلك.

(النص في الصفحتين الحادية عشرة والثانية عشرة).

ويجمع الخليفة على خلفاء، على معنى التذكير دون اللفظ، كما في جمع كريم على كرماء، وظريف على ظرفاء. وعليه ورد قوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح" ويجمع أيضاً على خلائف حملاً على تأنيث اللفظ. كما تجمع صحيفة على صحائف، وعليه جاء قوله تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض"، قال النحاس: ويجوز أن يجمع على خلاف، ككريم وكرام، لأن الهاء زائدة.

وأما من ينطلق عليه اسم الخليفة، فقد ذهب جماعة من أئمة السلف منهم أحمد ابن حنبل رحمه الله إلى كراهية إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن علي رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره، محتجين بما رواه أبو داود والترمذي من حديث سفينة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك (الصفحتان الثانية عشرة والثالثة عشرة).

وقال:

المذهب الثاني أن الخلافة تكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال فيه: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه خلفه في أمته، وعليه ينطبق كلام الماوردي في الأحكام السلطانية والنحاس في صناعة الكتاب وعلى ذلك خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (الصفحة السادسة عشرة).

اللقب الرابع أمير المؤمنين، وأول من لُقّب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أثناء خلافته... واختلف في أصل تلقيبه بذلك، فروى أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكُتّاب" بسنده إلى أبي وبرة أن أبا بكر رضي الله عنه كان يجلد في الشراب أربعين، فجئت عمر رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن خالداً بعثني إليك. قال: فيم، قلت: إن الناس قد تخافوا العقوبة. وانهمكوا في الخمر. فما ترى في ذلك؟ فقال عمر لمن حوله: ما ترون؟

فقال عليٌ: نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدة، فقبل ذلك عمر، فكان أبو وبْرة ثم عليٍ بن أبي طالب أول من لقبه بذلك. (الصفحة السابعة والعشرون).

وجاء في الكتب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة في الجزء الثالث من كتاب مآثر الأنافة في الصفحة الرابعة والسبعين بعد المئتين...

فقد قال أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكُتّاب" بعد أن ذكر أن صورة ما يكتب به عن الخليفة: من عبدالله أبي فلانٍ فلانٍ الإمام الفلانيٍ إلى فلان، أتبع ذلك بأن قال: وليس أحدٌ من الرؤساء يكاتب عنه بالتصدير إلا الإمام وولي العهد، ولم يزد على ذلك.

والتصدير على ما فسّره ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" هو: من عبدالله أبي فلانٍ فلانٍ إلى آخره على ما تقدم، وقد قال النحاس في الكلام على العنوان: إنه يحذف من الكتاب عن ولي العهد لفظ أمير المؤمنين، ويقال فيه: ولي العهد، ومقتضى ذلك أن المكاتبة عن ولي العهد كالمكاتبة عن الخليفة إلا أنه لا يقال فيه: وليّ العهد الإمام، ويقام لفظ وليّ العهد فيه مقام أمير المؤمنين. فيكتب فيه: من عبدالله ابن فلانٍ فلانٍ الواثق بالله مثلاً - وليّ عهد المسلمين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصلّي على محمد عبده ورسوله، أما بعد، فإنّ كذا، ويؤتى على المقصد إلى آخر الكتاب، على نحو ما تقدم في الكتابة عن الخليفة.

وفي الفصل الثاني من الباب السادس ذكر عن الكتب الصادرة إلى الخلفاء فللكاتب فيها ستة أساليب. يقول القلقشندي في الصفحة الثالثة والثمانين بعد المئتين:

قال في "صناعة الكُتّاب" ثم يقال: أما بعد، فإن كذا وكذا، حتى يأتي على المعاني التي يحتاج إليها، وتكون المكاتبة: وقد فعل عبدُ أمير المؤمنين كذا (فإذا زادت حاله لم يقل عبد أمير المؤمنين) فإذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاءً وكتب: أتم الله على أمير المؤمنين نعمته، وهنّأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته وأمنه

وسلامته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وقال القلقشندي في "الكتب إلى ولاة العهد بالخلافة"

فقال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكُتّاب": ويكون التصدير في المكاتبة إلى ولي العهد على ما تقدم في المكاتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء، يعني أنه لا يقال فيه الإمام ولا أمير المؤمنين، بل ولي عهد المسلمين، وفي التصدير مع السلام: وبركاته، في أول الكتاب وآخره. وفي ولي العهد بحذف "وبركاته" من التصدير، فكانوا يكتبون لولي العهد: لعبدالله أبي فلان ولي عهد المسلمين، سلام على ولي عهد المسلمين ورحمة الله فإني أحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد، أطال الله بقاء ولي عهد المسلمين. ويأتي على المقصد على ما تقدم في الكتب إلى الخليفة، ثم يختمه بقوله: والسلام على ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته.

الجزء الثالث الصفحة الحادية والثلاثون وثلاثمئة..

ثالثاً: تعليقات ومناقشات

في رسم الكلمات وضبطها

نظرة نقدية في (المعجم المدرسي)

تأليف: محمد خير أبو حرب *

الأستاذ جورج عيسى- دمشق

أولاً : في رسم المواد (أو جذور الكلمات)

ينظر المعجميون في ترتيب المواد إلى أن الكلمات تجمعها صلة رحم معينة هي اشتراكها في جذر واحد، ثلاثي في الغالب " ف ع ل" أي فاء الكلمة وعينها ولامها. وهو ما يعبر عنه بالمادة، وتحتها تندرج مفرداتها أو مشتقاتها.

وهم في ذلك " لا ينسبون إلى حروف المادة معنى معيناً. بل إنهم يعترفون بإمكان تعدد المعاني بين الكلمات التي تشترك في هذه الأصول.. لذلك كان الإجراء المفضل عندهم في معاجمهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا تفهم منها كلمة ما."[1] فالكلمات التالية مثلاً (شال) و (شوال) و(شوّل) تشترك في "ش و ل" التي تمثل جذر هذه الكلمات، أو ما نعبّر عنه بأصول المادة التي هي أصل الاشتقاق، والتي تنسب المفردات إليها "دون أن ننسب إلى هذه الأصول الثلاثة أي معنى معجمي".[2] لذلك كان الأفضل أن ترسم المواد في (المعجم المدرسي) [3] بأحرف منفصلة، مثل "ش و ل" بدلاً من (شول) و "ح ض ر" بدلاً من (حضر)، وهكذا.

وعلى ذلك يرتب المعجميون موادهم حسب الترتيب الهجائي، إن كان بالطريقة القديمة أو الحديثة (أي حسب أواخر الكلمات أو أوائلها). ينطبق ذلك على كلمات اللغة العربية جميعها كما يقول "تمام حسّان" فيما عدا الضمائر والظروف والأدوات وبعض الخوالف، [4] لأنها الكلمات التركيبية الوحيدة في اللغة. أما الكلمات الدخيلة والمعربة الزائدة على ثلاثة أحرف، مما لا يمكن

الاشتقاق منها، فتعدّ حروفها كلها أصلية، وتثبت في مواضعها من الترتيب الهجائي حسب تتابع حروفها، لأنها تخرج عن نطاق اشتراكها في أصل واحد [٥].

ثانياً: في رسم الكلمات وضبط الحروف

• يعود ما وقع فيه (المعجم المدرسي) من اضطراب في رسم الكلمات "الدخيلة والمعرّبة" إلى ما له صلة بأصوات بعض الحروف في الألفاظ الأجنبية، ونعني بذلك حروف (P وV و g) وهو ما ليس له نظير في أبجديتنا. وحتى نلائم بينها وبين حروفنا المقاربة لها، نرسم عادة كلاً من حرفي (ب) و (ف) بثلاث نقط، مقابل الحرفين الأول والثاني، بينما نرسم حرف (غ) أو (ج) أو (ك) مقابل الحرف الثالث، للتوصل إلى صوت الحرف الذي يقع بين الجيم والكاف "الجيم المصرية" أو نرسمه أحياناً كافاً فارسية (گـ). وعلى الرغم من المقترحات والتوصيات بشأن تعريب هذه الأحرف الأجنبية وغيرها منذ زمن، إلاّ أن ذلك لم ينفّذ بشكل فعلي، ولم تلتزم به مقررات كتبنا المدرسية، ولا مصفوفات طباعتنا العربية، وظل تعريب الأصوات الأعجمية حتى الآن دون منهجيّة موحدة.

لقد اتّبع صاحب (المعجم المدرسي) هذا التقليد المجمع عليه في رسم الحرفين (ب) و (ف) وهو ما حدّده في صفحة رموزه [٦]، لكنه لم يذكر شيئاً عما يقابل الحرف (g) الذي جاء رسمه في المعجم جيماً أو غيناً. ويبدو أنه اتبع في ذلك ما قرره مجمع اللغة العربية في القاهرة[٧]. ولئن تقيّد إلى حد بعيد بهذه الرموز التي حددها لنفسه – صراحة أو ضمناً – في كتابة الكلمات المعربة والدخيلة، إلا أنه لم يراع أحياناً وجه الدقة فيها، كما في الكلمات التالية التي لم يلتزم فيها بالباء المثلثة النقط: (نبتون) في مادة (أبلوتون) ص٣١ – الباتولوجية ص٨١ –البوتاس والبوتاسيوم ص١٣٧ –باكستان في مادة (الهند) ص١١١٨. ولم يراع وجه الدقة في تعريب الحرف (g) فنقله إلى الحرف (ج) كما في (الجلسرين) ص٢٠١ ومرة أخرى إلى الحرف (غ) كما في (الهيموغلوبين) ص١١٢٦. أما في كلمات أخرى فقد أثبته بالحرفين معاً، مثل (الجرافيت،

الغرافيت) ص١٨٦.

• حرص صاحب المعجم -كما يستدل المطّلع- على أن يكتب الكلمات ذات الأصل اللاتيني المنتهية بالمقطع logy والتي تعني العلم، بالتاء المربطة، كما في كلمة (البيولوجية) ص١٤٤ و (الجيولوجيـــة) ص٢٢١ [٨] و(الميثولوجيـــة) ص١٠١٣ وغيرها. ثم شذ عن هذا الالتزام في مواضع وألفـــاظ أخـــرى مثـــل (الميثولوجيا) التي وردت في (علم الأساطير) ص٤٩٨ وكـــان عليـــه أن يتّبـــع طريقة واحدة في كتابتها، وإن كنا نرى أن ينتهي المقطع المذكور ب (يا) بـــدلاً من التاء.

والغريب في هذا الباب أنه أُثبت حرف الباء في كتابة (بســـيكولوجية) ص١١٠ مع أنه في أصله الأجنبي يكتب ولا يلفظ.

• وفي تقصّيه عيوب المعجم الحديث يقول عدنان الخطيب: "ومن أكبر عيوب المعجم الحديث في رأينا عدم التزامه بالصورة الإملائية الواحدة، وهـــذا يعني أن الكلمات التي تصح كتابتها بأكثر من صورة إملائية واحدة لا يصـــح أن ترى في معجم لغوي على أكثر من صورة واحدة إذا ما ترددت بين سطوره مرة أخرى" [٩].

ولقد وقع هذا العيب في المعجم في ألفاظ معرّبة عديدة، منها:

- (المنجا والمنجو) في مادة (أنبه) ص٦٧ و (المنجة والمنجـــو) فـــي ص١٠٠٥.

- (البندورة والبنادورى) ص١٣١ و(البنـــادورى والبنـــدورة) هـــامش ص٦٥٥.

- في مادة (سنم) ص ٥٢٥ يكتب (السنما) بينما ترد (السينما) بالياء في ص٩٢ (العمود الأول) وص٣٣٨ (ع١). وص٦٨٥ (ع١). وص٩٥٣ (ع١).

- في مادة (مكر) يذكر (المكرفـــون) ص٩٩٩، وفـــي ص٢٨٢ (ع٢) يكتبه برسم آخر (الميكروفون) وكذلك في ص٣٨٧ (ع١).

– في ص١١٠١ يذكر (الهيدروجين) وكذلك في الصفحات ١٠٦ (ع١)-٦٥٩(ع١)-١٠٨٩(ع١)، أما في ص٥٩(ع٢) وص١٠٦٧ (ع٢) فيذكره دون ياء (الهدروجين)، ثم يرد برسم ثالث دون الياء الأولى والواو (الهدرجين) في ص٣٤ (ع١).

– ويظهر هذا الاضطراب والتشويش حتى في رسم الكلمات العامية، ففي مادة (إجَاص)ص٣٥ يقول: (يطلق عليه في الشام أجّاص)، وفي ص٦٨ يقول (إنجاص: عامية شامية) وكذلك في مادة (كمّثرى) ص٩١٨ (يسمى في الشام الإنجاص).

– وفي (البراصة) ص١٠١ يقول (وهو البراصياء بلغة الشام)، وفي (الكرّاث) ص٩٠١ (والعامة في دمشق تسميه البراصية).

إنه لعيب كبير حقاً أن يكون ذلك في معجم لغوي.

• ولكن العيب الأكبر يتمثل في الرسم الإملائي. وها نحن ننظم ما ورد في المعجم من أخطاء إملائية في جدولي الخطأ والصواب:

ص(الصفحة)	ع (العمود)	س (السطر)	الخطأ	الصواب
٦٠	٢	– ١١ [١٠]	الالاهيات	الإلهيات [١١]
١٧٨	١	٩	جبرئيل	جبرائيل
٢١٥	٢	٢	دعان	دعاني
٣٦٧	١	٤	الدنيا (ج) دناً	الدنيا (ج) دنىً
٤٣٦	١	١	الضحا	الضحى [١٢]
٥٢٢	٢	–٩	(ج) سماوات	(ج) سموات [١١]
٦٣٨	١	٧	والسماوات	والسموات
١١٧٦	١	–٥	ييأس	ييئس
١١٢٨	١	٧	جاءوها	جاؤوها
١١٢٩	١	١٢	ووءولا	ووؤولا

ونعقب على الخطأ ما قبل الأخير بقولنا: إذا احتج المؤلف باتباع الرسم القرآني، فلماذا أورد استشهاده بالآية "٥١" من "الإسراء" في ص١٠٦٢ "فسينغضون إليك رؤوسهم"؟ ولماذا جاء رسم (اقرؤوا) في "الحاقة/١٩" ص١٠٩٣، ولم يتبع الرسم القرآني (اقرءوا)؟. و كذلك ما ورد في الآية "٢٥٥" من سورة البقرة ص٧٣ (يؤوده)، وهو نفسه كان قد نبه إلى الرسم القرآني في هامش ص٣١٣ عندما استشهد بالآية "٣١" من "الإسراء".

– ويبدو تغاير الرسم الإملائي في كلمتي (آسيا، وأستراليا) فبينما ترد الأولى (آسيا) في الصفحات (٢٨-١٠٣(ع١)- ٥٣٠(ع٢)) وغيرها، ترد (آسية) في تعريف (الطورانية) ص٦٥٩. أما (أستراليا) فترسم بالألف في ص٤٧ بينما ترسم بالتاء (أسترالية) في مادة (برقش) ص١٠٣.

– في ص٧٤ ذكر (أوغاريت أو أجريت). ولا ندري سبباً لحذف الواو، والألف من الرسم الثاني للكلمة إذا كانتا تؤديان نطقاً واحداً!

أشار صاحب المعجم في مقدمته إلى أن مؤلّفه جاء تلبية لحاجة الطالب إلى معجم لغوي يساعده على ضبط الكلم ضبطاً صحيحاً [١٣]. والحق أن ذلك من أولى واجبات معاجم اللغة، كي لا نقرأ اللفظ على غير وجهه، فنقع في التصحيف.

– غير أن المصنّف قيد كلمات لم يشكل حروفها لتؤدي لفظها الصحيح. نورد منها كأمثلة : (الحسكة الحكة) ص٢٤٩ وتُحرك بالفتح (الحسَكة) – (سلقين) ص٥١٣ وتُحرك بالكسر (سلقِين) – (الطبوغرافيا) ص٦٣٩ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الضم – (القنيطرة) ص٨٧٨ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الكسر.

– وهنالك كلمات ضبطت بشكل صحيح في موادها الأصلية، لكنها جاءت غير مشكولة في مواضع أخرى، ويستحسن شكلها، نورد منها كأمثلة: (القصدير) الواردة في مادة (بيض) ص١٤٢ – (مغنطيسي) في ص٢١٩ مادة

(جول)-(منطقة) في مادة (خرس) ص٣٠٠ - (القرفة) في مادة (صين) ص٦١٦- (الحمص) في مادة (موش) ص١٠١١.

- ومن الألفاظ التي جاء ضبط أحرفها مخلاً بالضبط الصحيح:

(أبلوتون) ص٣١ - (البُرُوستاتة) ص١٠٠- (البُرُنز) و (البُرُتستنتية) ص١٠٥- (البُرُتين) ص١٠٦- (الجرانيت) ص١٨٧- (جلسرين) ص٢٠١- (الكُرُوم) ص٩٠٥- (الكُرُوكي) هامش٢ ص١١٢٥.

والخطأ في لفظ هذه الكلمات المعَرّبة- كما وردت- هو أن المؤلف عاملها معاملة الكلمات العربية الفصيحة، فأحجم عن أن يقول "بْلوتو -البْروستاتة- البْرونز -الجْرانيت-الكْروم-إلخ" لئلا يبدأ بساكن كما هو معروف عند العرب، فلجأ إلى إضافة الهمزة في الكلمة الأولى، وحرك الحروف الأولى من الكلمات الأخرى كي لا يقع في المحظور. ويقول أحمد الخطيب "إن الابتداء بالساكن في كثير من الألفاظ المعرّبة يحتّمه ضبط تأدية المسميات كما يلفظها الناس في معظم أنحاء العالم.. أما إضافة حرف الألف عند تعريب الألفاظ الإفرنجية التي تبدأ بحرف ساكن، أو تحريك الحرف الساكن نفسه، فهما تحريف لامسوّغ له، يبعد منطوق اللفظ عن صورته وبيئته الأصلية". (١٤)

ثالثاً: في رسم الصور والأشكال

ونُدخل هذا تجاوزاً في باب رسم الكلمات، لما للصورة من علاقة بمعنى اللفظ، وقدرة على توضيح ما تحمله الكلمة من دقة الدلالة وإن كانت عاجزة عن أن تقوم مقامها، لأنها تظل بحاجة إلى التعبير عنها وعن الموجودات جميعها بالكلام المنطوق الذي هو خاصة الإنسان الأولى، والشرط الكافي المرادف للعقل، والذي يظل الإنسان دونه عاجزاً عن اكتساب مهارة التعبير اللغوي.

والحق أن الدعوة إلى توضيح بعض كلمات المعجم بالصور دعوة حديثة "أخذت بها المعاجم الأوروبية، حتى إننا لنجد في الألمانية ما يجعل الصورة أساساً تُرسم في دقة بالغة، ويعطى كل جزء منها رقماً. وتذكر ألفاظ اللغة بعد

ذلك كأنها هوامش على الصورة، ويوضح كل لفظ مقابل رقم جزء الصورة الذي يناسبه"[١٥].

وقد كان (المنجد) أول معجم عربي في العصر الحديث استعان بالصور والأشكال إلى توضيح معاني الألفاظ ومدلولاتها محاكاة للمعاجم الأجنبية. ففي طبعاته الأولى بلغت صوره حوالي الألف[١٦]. أما الآن والطبعة الأخيرة- السابعة والعشرون (١٩٨٤)- بين يدينا، فتزيد الصور فيه على خمسمئة وألفين، إضافة إلى أربعين لوحة ذات موضوعات مختلفة. ثم اتّبع هذا التقليد بعض المعاجم العربية الحديثة التي جاءت بعده، منها (المعتمد) لجرجي شاهين عطية[١٧]، وهو مزيّن بالرسوم والصور التي "تبلغ حوالي ٢٠٩"[١٨]، و (الرائد) لجبران مسعود[١٩]، وهو مزوّد بما يقدر بسبعمئة صورة، و (المعجم الوسيط)[٢٠] الذي اشتمل في طبعته الثالثة على حوالي ألف صورة. أما (المعجم المدرسي) فقد احتوى على تسع ومائتي صورة.

نحن لا نقول إن أهمية الصور في المعجم تتوقف على عددها، أو إن الهدف من وجودها مجرد التزيين، إنما تعود أهميتها إلى انتقاء ما يتطلبه بعض الألفاظ من توضيح، وإلى النوعية المختارة التي تعبر عن تأدية هذه الصور للغاية التي اختيرت من أجلها.

• لم يخل (المعجم المدرسي) من أخطاء بما عرضه من رسوم وأشكال، منها:

- الصورة التي وضعت للجدجد في ص١٨١ لا تمثل (الجدجد) إنما هي صورة (صرصور) ويجب أن تكون في ص٥٩١.

- في ص٣٣٢ يعرّف الخنفساء: (حشرة سوداء من مغمّدات الأجنحة، أصغر من الجعل، منتنة الريح) وهو وصف لا يصح لمفهوم يمثل "جنساً" من الحشرات، ويقوم من جهة أخرى على الخصوصية لبعض "أنواعه". ذلك أن الخنافس متعددة الأنواع، مختلفة الأشكال والألوان[٢١]، وهذا ما يجعل صورة

الخنفساء في الصفحة المقابلة لا فائدة منها في توضيح المعنى، كما أن هذا الشكل المرسوم ليس من الخنافس المنتنة الريح، ولا يبدو أنه أصغر من الجعل، بل هو الجعل نفسه الذي يرد وصفه في ص١٩٧.

- في ص٥٤٢ يصف سمك الشبوط بقوله: (عريض الوسط، دقيق الذنب، صغير الرأس) بينما الصورة الواردة أسفل التعريف لا تدل على هذا الوصف، وهي بعيدة كلياً عن أن تكون لسمك الشبوط.

- في ص ٥٦٦ ورد (الشمروخ) بمعنيين: عنقود العنب وعثكال النخل، وفي الصفحة المقابلة كتب إلى جانب الشكل المرسوم: (الشمروخ). فمعنى ذلك أنه يدل على المعنيين، ولو أضاف إلى هذه الكلمة "عنقوُد عنب" لكان أكثر تحديداً.

- ولوجه الدقة أيضاً يجب إضافة "الصفراء" إلى (الذرة) جانب الشكل في ص٣٨٠، وكتابة "خنزير داجن" إلى جانب الصورة في ص٣٠٤ بدلاً من كلمة (خنزير).

- في ص ٨٣٣ يذكر (القبّان) وفي ص٩٧٦ يذكر (المخل) ويقول إن فصيحه (العتلة) دون أن يعرض صورة لأي منهما. وفي ص٦٧٩ يأتي تعريف (العتلة) مرفقاً برسمي القبّان، والمخل أو (العتلة). والصواب أن يبقى رسم العتلة هنا في ص٦٧٩، وينقل رسم القبّان إلى ص٨٣٣ أو إلى ٤٣٥ تحت كلمة (رمانة القبان).

• وردت صور في المعجم يُشك في أنها تعبِّر عن مسمياتها. من ذلك:

- (الخشخاش) ص٣٠٧: ولا فائدة من عرض الصورة المرسومة، لأنها لا تعرفنا بهذا النبات الذي يتميز بأوراقه العريضة وأكوازه البيض.

- (العثة) ص٦٨٠: جاءت الصورة بعيدة كل البعد عما توصف به هذه الحشرة.

- (الهزار) ص١١٠٧: لا يُعرف طائر الهزار بهذا الذيل الطويل الذي يعرضه الرسم.

- عبّر عن شجر الكافور برسم ورقة من شجره ص٩١٢. والحقيقة أن هنالك عدداً من النباتات له شكل هذه الورقة، فنحن لا نستطيع التعرف على شجرة الكافور منها؛ لأننا نكون بذلك كمن يريد أن يتعرف على الكل من أحد أجزائه، مع كون هذا الجزء مشترك مع غيره.

- ورد بعض الرسوم مكرراً دون أن يكون هنالك أي داع لذلك، وهي:

- صورة البأز ص٨٢، وحامل البازي (أو البيزار) ص١٠٧

- صورة البقر الوحشي ص١٢٢، وولد البقرة الوحشية أو (الجؤذر) ص١٧٦

- أنواع الخطوط في الصفحتين ٣١٦ ، ٣١٧

- صورة (المنجا: الأنبة) ص٦٧ و ١٠٠٦ إضافة إلى اختلاف الرسم بين الشكلين.

الهوامش

* (المعجم المدرسي) معجم لغوي صدر عن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ من تأليف محمد خير أبو حرب، وتدقيق ندوة النوري. وقد ذكرت في آخر صفحة منه (ص١١٨٤) أسماء عدد من الذين ساهموا في التأليف والتدقيق اللغوي والتصحيح الطباعي والرسم والإشراف الفني.

(١) تمام حسان (اللغة العربية، معناها ومبناها). الدار البيضاء (المغرب)، دار الثقافة، دون تاريخ، ص٣٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٩.

(٣) بلغت عدة المعجم من المواد "٤٦٦٣".

(٤) يعرف تمام حسان "الخوالف" أنها " كلمات تستعمل للكشف عن موقف انفعالي ما والإفصاح عنه، وهي أربعة أنواع: خالفة الإخالة، وخالفة الصوت، وخالفة التعجب، وخالفة المدح". انظر كتابه (م.س) ص١١٣ وما بعده.

(٥) مسألة ترتيب المواد في (المعجم المدرسي) تبحث في موضع اخر من دراستنا الشاملة.

(٦) (المعجم المدرسي) ص٢٦.

(٧) انظر أحمد شفيق الخطيب (معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية)، مكتبة لبنان ١٩٧١ ص٧٣٩ رقم ٣٥.

(٨) والطريف أن هذا اللفظ يرد منتهياً بـ (يا) في أعلى الصفحة، وبالتاء في التعريف.

(٩) عدنان الخطيب (المعجم العربي بين الماضي والحاضر) معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٧ ص٧٣.

(١٠) هذه الإشارة هنا (-) تدل على أن العد يكون من أسفل الصفحة.

(١١) من الكتب المدرسية المقررة عندنا (في سورية) انظر (النحو والإملاء) للصفين الأول والثاني في دور المعلمين والمعلمات، تعديل قدري الحكيم وندوة النوري، ١٩٨٥-١٩٨٦، فصل (أشهر مواطن الحذف) ص٢٧٧ حيث يقول "تحذف الألف من الكلمات التالية: الإله، السموات...".

(١٢) "يكتب الكوفيون الاسم الثلاثي المقصور إذا كان مضموم الأول أو مكسوره بالياء غير المنقوطة.. والبصيريون بالألف". انظر (م.س.) ص٢٤٥.

فإذا كان المؤلف يتبع رأي الكوفيين، فقد أخطأ هنا في كتابة (الضحا)، وإذا كان يتبع رأي البصريين فقد أخطأ في كتابتها في مادة (ضحو) ص٦٢١ إذ وردت (الضحى).

(١٣) (المعجم المدرسي) المقدمة ص١٧.

(١٤) أحمد شفيق الخطيب (م.س.) ص٧٤٧ بند (١). انظر أيضا مقالته (منهجية وضع المصطلحات الجديدة)، مجلة (شؤون عربية) ع أيلول ١٩٨١ ص١٤٥.

(١٥) محمد أحمد أبو الفرج (المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث)، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٦ ص١٢٣-١٢٤

(١٦) صدرت الطبعة الأولى من (المنجد) للأب لويس معلوف عام ١٩٠٨.

(١٧) صدر (المعتمد) في بيروت عام ١٩٢٧.

(١٨) انظر حكمت كشلي (المعجم العربي في لبنان) ط١، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٢ ص١٧٩.

(١٩) صدرت الطبعة الأولى من (الرائد) في بيروت عام ١٩٦٥.

(٢٠) أخرج مجمع اللغة العربية في القاهرة (المعجم الوسيط) عام ١٩٦٠.

(٢١) انظر أحمد شفيق الخطيب (موسوعة الطبيعة الميسرة) ط١، مكتبة لبنان ١٩٨٥، ص٤٠.

باء الاستبدال في العربية الفصحى بالمنهج التاريخي

د. عباس علي السوسوة
مدرس علم اللغة بكلية التربية – تعز

من نافلة القول أن للأداة النحوية غير معنى. وباء الجر في العربية الفصحى لها عدة وظائف (معان) اختلف في عددها المؤلفون في حروف المعاني، فالرماني (ت٣٨٤هـ) جعلها ست وظائف[١]، وأوصلها المالقي (ت٧٠٢هـ)[٢] إلى عشر وظائف من بينها البدل، ثم أوصلها المرادي (ت٧٤٩هـ) إلى ثلاثة عشر معنى[٣]. وأوصلها ابن هشام (ت٧٦١هـ) إلى أربعة عشر معنى[٤] لكن هؤلاء العلماء الأجلاء لم يتعرضوا قط للباء الداخلة على الفعل (بدل) وما شابهه من مادته مثل: تبدل، واستبدل، وأبدل، ومصادر هذه الأفعال، فتدخل على المتروك أو المزال أو المستبعد من طرفين اثنين.

أما العلامة محمد عبدالخالق عضيمة فقد أوصل معاني الباء الواردة في القرآن الكريم فقط إلى ثمانية عشر معنى منها البدل[٥]، وهو أن تكون الباء بمعنى (بدل)، لكنه لم يستشهد على ذلك إلا بآية سورة سبأ فحسب[٦]، وأضاف إليها كل آية ورد فيها الفعل (اشترى) أو (شرى) متعلقاً بالباء، فكأنه – باستثناء آية واحدة – قد أتى بما يسمى (باء المقابلة) عند ابن هشام[٧].

ونحن نزعم أن باء الاستبدال التي تدخل على المتروك (المستبعد) قد وردت في القرآن الكريم خمس مرات متعلقة بالفعل (بدل) وما شابهه من أفعال مأخوذة من الجذر (ب د ل)[٨]، وهو ما يهمنا هنا في هذا البحث. وقبل أن نعرض لهذه الآيات الخمس نحب أن نقرر أننا لم نعثر على نص واحد موثوق بصحته ينتمي إلى عصر الاحتجاج باللغة فيه مخالفة لهذه القاعدة. أما بعد عصر الاحتجاج فإننا نجد قاعدة ثانية عكسها تماماً، أي أن الباء أصبحت تدخل على غير المتروك (غير المستبعد) عند كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين في أكثر

الفنون.

وقبل أن نأتي بالشواهد على هذه القاعدة الجديدة، نود أن نعود إلى القاعدة الأصلية لباء الاستبدال التي تدخل على المستبعد في القرآن الكريم، وترى مواقف المفسرين المشهورين منها:

١- منهم من لم يذكر هذه القاعدة ولم يستعمل في تفسيره الأفعال المذكورة في الآيات الخمس، وهو الزمخشري (ت٥٣٨هـ) والرازي (ت٦٠٦هـ) وبالطبع لا داعي للنقل منهما.

٢- ومنهم من استعمل في تفسيره هذه القاعدة ولكن دون نص عليها أو استشهاد، وهذا موقف الطبري (ت٣١١هـ) والقرطبي (ت٦٧١هـ) وابن كثير (ت٧٧٤هـ).

٣- وهناك من استعمل الباء في تفسيره، وزاد فوضح هذه القاعدة في غير موضع وهو ما فعله أبو حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ)[٩] وأبو السعود العمادي (ت٩٨١هـ).

٤- ومنهم من فسر أربع آيات بما يوافق القاعدة القرآنية تماماً لكنه في تفسيره آية سورة النساء يستعمل القاعدة الجديدة، لا الأصلية. وإليك البيان:

١- في الآية ٦١ من سورة البقرة: (فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها،وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير).

قال الطبري: "لا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه"[١٠].

وقال القرطبي: "أتستبدلون البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل الذي هو أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير"[١١].

وقال أبو حيان (ج١/ ٢١٨): "التبديل تغيير الشيء بآخر، تقول هذا بـــدل هذا أي عوضه، ويتعدى لاثنين، الثاني أصله حرف جر، بدّلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً عوض الدرهم. وقد يتعدى لثلاثة فتقــول: بدلت زيداً ديناراً بدرهم، أي حصلت له ديناراً عوضاً من درهم.. وقد وهم كثير من الناس فجعلوا ما دخلت عليه الباء هو الحاصل والمنصوب هو الذاهب حتــى قالوا: ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته. وصوابه: ولو أبدل ظاء بضاد".

وهنا تلاحظ أن أبا حيان قد جلّى قاعدة باء البدل، وزاد فأوضح تحول هذه القاعدة إلى العكس.

وقال أبو السعود: "... أي بمقابلة ما هو خير، فإن الباء تصحب الذاهــب الزائل دون الآتي الحاصل كما في التبديل في مثل قوله عز وجل: "ومن يتبــدل الكفر بالإيمان" وقوله: "وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط"[١٢].

وقال الشوكاني: "المن والسلوى استبدلوا به البقل وما حكي معه" [١٣].

٢- في الآية ١٠٨ من سورة البقرة (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضــل سواء السبيل).

قال الطبري: (ج١/ ٤٨٦): "ومن يستبدل بالإيمان بالله ورســوله الكفــر، فيرتد عن دينه فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول".

وقال أبو حيان (ج١/٣٤٧): "تقدم الكلام في التبديل، أي من يأخذ الكفــر بدل الإيمان" وقال أبو السعود (ج١/١٤٥): ومن يتبدل الكفر، أي: يختره ويأخذه (بالإيمان) بمقابلته بدلاً منه".

وقال الشوكاني (ج١/١٢٩): "يتبدل الشدة بالرخاء".

٣- في الآية الثانية من سورة النساء (وآتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلــوا الخبيث بالطيب).

قال الطبري (ج٤/٢٢٨): "ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم الحلال لكم".

وقال القرطبي (ج٥/٩): "لا تتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف".

وقال ابن كثير: "لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم"[١٤].

وقال أبو السعود (ج٢/٢٤٠): "نهي عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهي الضمني عن أخذه على الإطلاق. وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذُ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له أو في شرف الحصول، يستعملان أبداً بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" إلخ، وأخرى بالعكس كما في قولك: بدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها، نص عليه الأزهري".

أما أبو حيان فلم يتعرض لهذه الآية ولم يذكر فيها شيئاً (ج٣/١٥٠-١٥٢).

٤- أما الآية ٥٢ من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) فلا جديد فيها عند الطبري (ج٢٢/٢٩) ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا ابن كثير (ج٣/٥٠١) ولا الشوكاني (ج٤/٢٩٦) وقال أبو السعود (ج٧/١١١) فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن".

٥- الآية ١٦ من سورة سبأ (فأعْرَضوا فأرْسَلنا عليهم سيلَ العَرِمِ وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سدْرٍ قليل).

قال الطبري (ج٢٢/٨١): "وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك".

وقال أبو حيان (ج٧/٢٧١): "ودخلت الباء في (بجنتيهم) على الزائل، وانتصب ما كان بدلاً وهو قوله (جنتين) على المعهود في لسان العرب، وإن كان كثيراً لمن ينتمي للعلم يفهم العكس، حتى قال بعضهم: ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته، وهو خطأ في لسان العرب... وقد تكلمنا على ذلك في البقرة في قوله: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان".

ونلاحظ في عبارة أبي حيان خللاً مردّه إلى تحريف الطباعة، صوابه: وإن كان كثيرٌ ممن ينتمي للعلم يفهم العكس، كما نلاحظ أن أبا حيان قد وهم حين أشار إلى أنه تكلم على ذلك في الآية ١٠٨ من البقرة (البحر ج١/٣٤٧) فالواضح أنه تكلم على الباء في الآية ٦١ من البقرة (البحر ج١/٢٨١).

وقال ابن كثير (ج٣/٥٣٣): "فهذا الذي صير تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم".

ويقول أبو السعود (ج٧/١٢٨): "أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما جنتين ذواتي أكل خمط، أي ثمر بشع".

وقال الشوكاني (ج٤/٣٢٠-٣٢١): "أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة، وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما".

وقد أخرنا الموضع الذي احتجّ فيه الشوكاني لعكس القاعدة بالمعاجم، وذلك عند تفسيره لآية سورة النساء. قال: "ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، نهي لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوضونه بالرديء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً. وقيل المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم.. فإن تبدل الشيء بالشيء أخذُه مكانه. وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل" وقوله "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير".

وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاتم: إذا أذبتها وجعلتها خاتماً. نص عليه الأزهري"[١٥]. ويلاحظ هنا استفادة الشوكاني من أبي السعود، وكلاهما ناقل إما عن الأزهري[١٦] مباشرة أو بالوساطة عن طريق اللسان.

وجاء في اللسان "تبدل الشيء وتبدل به واستبدل الشيء واستبدل به: كله اتخذ منه بدلاً.. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه.. أبو العباس ثعلب: يقال: أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذا مكانه (هكذا؟). وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقة. وبدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وسويتها خاتماً"[١٧].

فالقسم الأول من هذا النص يجعل الباء داخلة على المتروك، والقسم الثاني منه ينقل عن ثعلب إجازته دخول الباء على غير المتروك مؤيداً بثلاث جمل، وإن كانت الباء تحمل معنى التحول لا الاستبعاد. وهذا ما جعل مجمع اللغة العربية في القاهرة يجيز دخول (باء البدل) على المتروك، أو على المأخوذ، والمدار في تعيين ذلك على السياق، مستشهداً للقاعدة الجديدة بما ورد في (تاج العروس)[١٨] منسوباً إلى ثعلب، وبقول طفيل الخيل لما أسلم:

وبدل طالعي نحسي بسعد[١٩]

وإذا تركنا المفسرين إلى مؤلفي كتب إعراب القرآن، لوجدناهم غير مهتمين بهذه القاعدة، فالفراء (ت٢٠٧هـ) لم يتطرق إلى وظيفة هذه الباء، ولا استعملها في كلامه، بل إنه انصرف إلى تفسير أشياء أخرى في الآيات[٢٠]. وابن الأنباري (ت٥٧١هـ) صنع الشيء نفسه[٢١]. والعكبري (ت٦١٦هـ) سلك المسلك نفسه[٢٢]، لكنه – للعجب – تحدث بوضوح شديد عن هذه الباء مستشهداً لها. ولكن ليس في مواضعها بل في الآية ٥٩ من البقرة التي لا باء داخلة على المتروك فيها، قال تعالى "فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم". قال العكبري: "فبدل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم"، فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، والذي مع الباء يكون هو المتروك،

والذي بغير باء هو الموجود كقول أبي النجم:

وبُدِّلَــــت والدهـــــر ذو تبـــــدلِ هيفــاً دبـــوراً بالصَّبــا والشــمألِ

فالذي انقطع عنها (الصبا) والذي صار لها (الهيف) فكذلك ها هنا"[٢٣].

ونحن ليس من همنا هنا إجازة تعبير معين، ولا تحريم أسلوب بعينه، بل يهمنا تتبع هذه الظاهرة، ظاهرة دخول باء الاستبدال على غير المتروك، تاريخياً.

فنجد عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) هذا النص "وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك مُلْه، وداخل في باب المزاح الطيب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب عن جهته، وإن كان في لفظه سُخفٌ وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربُها ويأخذ بأكظامها"[٢٤].

ولا شك أن السخافة هنا ليست المستبعدة.

وأبو تمام الطائي يسير في ديوانه كله على القاعدة القديمة في هذا الأمر، إلا في موضع واحد، هو:

"بُدِّلْـــتَ بعـــد تـــأنُّسٍ بتوحّـــشِ وأعرتَ ســمعكَ مــن يبلّــغ أو يشـــي
وزعمــتَ أنــي ذاهــلٌ، فمــن الــذي يدعــى خليفــةَ عُـــروةَ ومرقـــشِ
لا مُــتَّ إن كـــان الـــذي بلَّغتـــهُ حتى أُرى في صورة ابن الأعمــشِ"[٢٥]

ونجد هذه القاعدة الجديدة في شعر المتنبي (ت٣٥٤هـ) في مدح كافور الإخشيدي:

"من لِبيـــضِ الملــوك أن تبــدل اللــو نَ بلــون الأســـتاذ والســـحناء"[٢٦]

والمقام هنا مقام مدح، ولون الأستاذ الذي تتمنى الملوك أن يكون لونها هو الأسود؛ فهو المطلوب لا المتروك. والعجيب أن هذا الاستعمال المخالف للاستعمال القرآني لم يلفت أنظار الذين عابوا شعر المتنبي من القدماء؛ أمثال: الصاحب بن عباد والعميدي والحاتمي، كما لم يلفت أنظار محبي الشاعر، أمثال ابن جني والمعري، وكذا المتوسطين بين هؤلاء وأولئك مثل القاضي الجرجاني والبديعي. بل إن المحدثين الذين تناولوا شعره بالنقد والشرح لم يلتفتوا إلى ذلك، مثل: عبد الوهاب عزام وطه حسين ومحمود محمد شاكر. زد على ذلك أن بعض الرسائل العلمية الجامعية التي ركزت على جانب الاستعمال اللغوي عند المتنبي لم تلتفت إلى ذلك قط[٢٧].

وإذا فتشنا في الكتب التي اهتمت بشرح ديوان الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وجدناها تمر على هذا البيت وما فيه بهدوء شديد دون تخطئة لهذا الاستعمال؛ بل إنها تنثر البيت وتستخدم الأسلوب الجديد نفسه؛ فتدخل الباء على غير المتروك. فها هو المعري يقول: "إن البيض يتمنون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ويغيروا هيئتهم بهيئته، ولكن أين لهم ذلك"[٢٨]. وفي موضع قريب يقول: "إن الملوك البيض يتمنون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ليراهم الأبطال الذين هم أهل الحروب بالعيون التي رأوا بها كافوراً في الحرب"[٢٩].

ويكرر الظاهرة في مكان آخر فيقول شارحاً: "كنت تنزع كل يوم حلة للسؤال، وتلبس حلة جديدة، فكيف رضيت الآن بحلة لا تنزعها أبداً، ولا تبدلها بغيرها"[٣٠]. ولا شك أن غيرها هو الجديد لا المستبعد. وفي شرح بيت يسير عليه الشاعر على النهج القرآني، نجد الشارح يضطرب في شرحه؛ ففي أول شرحه يدخل الباء على غير المتروك وفي آخر شرحه يسير على القاعدة القديمة:

"إذا المنايا بدت فدعوتها أُبدل نوناً بداله الحائدُ"

الحائد إذا أبدل داله بالنون فهو الحائن، أي الهالك.. إذا ظهرت المنية في الحرب فدعوة المنايا أن تقول أبدل الله تعالى الحائد نوناً بدال"[٣١].

والواحدي (ت٤٦٨هـ) يشرح البيت بقوله: "الملوك البيض يتمنون أن يبدلوا ألوانهم بلونك، وأن تكون هيئتهم في اللون كهيئتك"(٣٢).

وفي القرن الرابع الهجري نجد هذه الظاهرة عند الشاعر عبدالله بن جعفر السمرقندي في قصيدة قالها بعد أن فتح الفاطميون مصر:

"فقل لبني العباس: شيموا سيوفكم فقدماً عصيتم ربكم بصدورها
وليتم أمور الناس شر ولاية فبدلتم معروفها بنكيرها"(٣٣)

ونجد هذه الظاهرة لدى المحسّن التنوخي (ت٣٨٤هـ) عنواناً لباب في أحد كتبه "الباب الثاني عشر فيمن ألجأه الخوف إلى الهروب واستتار فأبدل بأمن ومستجدّ نعم ومسارّ"(٣٤).

ونجدها في شعر محمد بن هانئ الأندلسي (ت٣٩٢هـ) "في هجاء شخص يعرف بابن أبي زمّور، وكان حشاشاً فعاد سقاء:

تبدّل من جام الكنيف بقربة وكان طعامياً فعاد شرابيّاً"(٣٥)

وفي القرن الخامس الهجري نجدها في شعر الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ):

"ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي وأبدل مُسود العذار بمُبيضّ"(٣٦)

كما نجدها عند القاضي عبدالجبار الأسد آباذي المعتزلي (ت٤١٥هـ): "ولذلك يصح منهما نقض هذه المواضعة، وتبديلها بأخرى. وذلك يبيّن أن ما تواضعوا عليه إنما يثبت مع بقاء حكم المواضعة"(٣٧).

ثم نجدها في نثر الوزير الآبي (ت٤٢١هـ): "رأيت صبيّة قد وقفت على

بقّال بالكوفة، وأخرجت إليه رغيف شعير وقالت له: قالت أختـــي: أبـدلْ هــذا الرغيف بالكسر، وأعطها بصرفه جزراً"[٣٨].

ونجدها عند علي بن خلف الكاتب (ت٤٣٧هـ): "ولمّــا كـانت الطبــاع الفاضلة تواقع الصواب وتباين الخطأ، وتقوى على نظم المعنى الذي تحتاج إلــى إبرازه مؤلفاً تأليفاً حسناً في أكثر الأحوال، عني صرفها عمّا يُســرت لــه إلــى إلزامها أعظم مشقة، وتبديلها من الأسهل بالأصعب ومن الأرفه بالمتعب"[٣٩].

وفي القرن السادس نجدها عند الفتح بن خاقان (ت٥٢٨هـ) في أثناء قصة لأحد القضاة مع معتوه كان قد منحه دجاجة، فأوهمه أحد المتنادرين أنها مغربلة (=رديئة) "فرجع إليه المعتوه بها، وأصابه في جماعة وقال له: يا قاضي، هــذه الدجاجة مغربلة فأبدلها لي بسمينة... فأمر فأبدلت له بأخرى"[٤٠].

ثم نجدها عند ابن عساكر (ت٥٧١هـ): "لا تستبدلن صديقاً قديماً بصديق حديث، فإنه لا ينصحك"[٤١].

وتكثر هذه الظاهرة لدى كتاب القرن السابع، فنحن نجدها عنــد الــرازي (ت٦٠٦هـ): "أجمعنا على أنه لا يجوز إبدال الركوع والسجود بغيرهما، فوجب أن لا يجوز إبدال قراءة الفاتحة بغيرها، والجامع رعاية الاحتياط"[٤٢].

ونجدها في شعر الوزغي (ت٦١٠هـ) الذي ترك النصرانية وأسلم قائلاً:

تبدّلــت مــن عيســى بحــب محمــــد هديت، ولولا اللـــه مـــا كنـــت أهتـــدي
ومـــا عـــن مـــلال كـــان ذاك وإنمـــا شـــريعة عيســى عُطلــت بمحمـــد"[٤٣]

ثم نجدها عند الأزدي (ت٦١٦هـ) يروي حكاية حدثت عــام ٦٠٣هــ، يقول في ختامها: "وأبدى من جميله ما أبدلني بالنفاق بعد الكساد"[٤٤].

ونجدها عند عبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ) يصـــف المجاعـــة التـــي

حصلت في مصر في أثناء رحلته إليها:

"ولكـن بُدلـــت البـــلاد بالذئـــاب والضباع ترتع فـــي لحـــوم أهلهـــا"(٤٥)

ونجدها عند ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) ينثر بيت أبي تمام المشهور:

"تردّى ثياب الموت حُمــراً فمـــا دجــى لها الليل إلاّ وهي من ســـندس خُضــرُ"

يقول: "وأما بيت أبي تمام فإني قلت في نثره: لم تكسه المنايا نسج شفارها، حتى كسته الجنة نسج شعارها. فبدل أحمر ثوبـــه بـــأخضره، وكـــأس حمامـــه بكوثره"(٤٦).

ونجدها عند ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ). في أثناء حكاية رواها: "فجـــاء الجار بالدراهم الزائفة فدفعها إلى الولد فلم يقبلها، فأبدلها بدراهم جيدة"(٤٧).

وفي موضع آخر من شرح النهج يذكر بعض العادات المنتشرة بين الناس، ومنها: "أن الغلام إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام، واستقبل الشمس إذا طلعت، وقذف بها وقال: أبدليني بسن أحسن منها"(٤٨).

ونجدها عند ابن المنَيِّر الإسكندري (ت٦٨٣هـ) في حاشيته على الكشاف للزمخشري يقول: "وتحريفها: تبديلها، كتبديلهم الرجم بالجلد"(٤٩).

وفي موضع آخر يفسر الزمخشري معنى قوله تعالى "يد الله فوق أيديهـــم" بقوله: "على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعـــن صفـــات الأجسام. وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى "من يطع الرسول فقد أطاع الله".

فيعقب ابن المُنير بقوله: "كلام حسن بعد إســـقاط لفـــظ التخييـــل وإبدالـــه

بالتمثيل"(٥٠).

وفي القرن الثامن نجدها في شعر ابن دانيال الكحّال (ت٧١٠هـ): قال لابن الكويك التاجر:

قد كان رسمي منك شاش، وقد بدلت ذاك الشاش بالنطع

وكتب إلى نور الدين وهو أرمد:

كتبتُ ولحظي قد تبدل نرجساً بورد، ودمعي قد تساقط منثورا"(٥١)

والمعلوم أن العيون تشبّه بالنرجس، أما الأرمد فتحمر عيناه فتصبحان كالورد.

وهذه الظاهرة تقابلنا كثيراً في شعر صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) في موضوعات مختلفة، ففي وصف تأثير الخمر يقول:

"لو حسا ابن التسعين منها ثلاثاً أبدلت قوس قدّه بقناة"(٥٢)

ويقول بعد أن عزل شمس الدين بن كبش من ولاية طريق خراسان، ورتّب مكانه نجيب الدين بن ذئب:

"بشمس الدين لم تطق الرعايا فكيف وقد تبدّل بالنجيب
رعايا ما أطاقوا بأس كبش محالٌ أن يطيقوا بأس ذيب"(٥٣)

وعن الصداقة يقول:

"إن الصديـــــق إذا رآك مخالفـــــــاً لهــــواه، بــــدّل ودّه بعقـــــوق"(٥٤)

وعن امرأة تتحدث عن شيبه:

"تقـــول لمّـــــا أن رأت لمتـــــي محفوفـــة بالشــــــعر الأشـــــيب
بُدلـــت مـــن مســــكك كــــافورة فقلــت بـل بــــالعنبر الأشــــهب"(٥٥)

وأحد مؤرخي القرن الثامن (٨٠٧هـ) يذكر في حوادث ٦٩٥هـ حكايـــة مطولة عن ثور تكلم قبل أن يموت، فقال "... فأجابه الثور: الله عز وجل كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدباً، ولكن لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أبدلها الله تعالي بالخصب"(٥٦).

ونجد الظاهرة في شعر قيل حول حادثة حدثت سنة ٧٨٣هـ، وينقل ابـــن حجر في الإنباء قائلاً: "وفيها قبض على سيف المقدم.. واستقر عوضــه أحمـد العظمة، فقال الشاعر:

مضـــى المقـــــدم ســــيف بنغمــــــة وبتُهمـــــــــــــه
وكــــان لحمــــــا ســــــميناً فــــــأبدلوه بعظمــــــــه"(٥٧)

ونجدها عند ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في تاريخه؛ فهو يتحدث عن بربــر هوّارة واختلاطهم ببني سليم وأنهم "قد نسوا رطانة البربر واستبدلوها بفصاحـــة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم"(٥٨).

وفي موضع آخر يتحدث عن أمراء معزولين فيقول: "فقدم عوضــاً عنــه عمه منديل، ثم استبدل منهم أجمعين بــأولاد يوسـف، فشـمروا فـي طاعتـه فأبلوا"(٥٩).

وفي القرن التاسع نجدها عند الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ): "كيمياء العوام: استبدال المتاع الأخروي بالحطام الفاني"[٦٠].

ونجدها عند ابن المرتضى (ت٨٤٠هـ): "لأن معنى اللوح المحفوظ معروف يتمكن من تبديله بمثله"[٦١].

ونجدها عند المقريزي (ت٨٥٤هـ): "ألزم بعض أمراء الدولة قاضي القضاة شرف الدين بن منصور الحنفي أن يحكم له باستبدال بعض الدور الموقوفة بملك أحسن منه"[٦٢].

ثم نجدها عند ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) كثيرة:

- "استبدل السلطان خان الزكاة من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون بقطعة أرض"[٦٣].

- "وكان يلثغ بالجيم فيجعلها زاياً... وهو يبدل الجيم بالزاي فتضحك الناس من ذلك"[٦٤].

- "وكان علي السلاخوري يبدل القاف بالهمزة كما هي عادة أوباش الناس من العامة"[٦٥].

- "وأقبل على العدل وإرداع (!) المفسدين، فبدل الجور بالعدل، والخوف بالأمن"[٦٦].

ثم نجد الظاهرة عند الكفوي (ت١٠٩٤هـ) في كلياته: "والإرداف هو عبارة عن تبديل كلمة بردفها من غير انتقال من لازم إلى ملزوم"[٦٧].

والكفوي هنا يخالف القاعدة التي ذكرها في بداية كتابه عندما قال: "والإبدال والتبدل إذا استعملا بالباء نحو (أبدل الخبيث بالطيب) و(تبدل به) فلا تدخل الباء حينئذ إلا على المتروك. والتبديل مثلهما"[٦٨].

ونجدها في القرن الثاني عشر الهجري عند الحيمي (ت١١٥١هـ)، في قصيدة لمعاصره الحسين بن الحسن العوامي كتبها إلى الحسين الأخفش، قال:

فلا زال كهفاً للعلوم وأهلها فوجدانه باليُسر قد بُدل العسرا"[٦٩]

وهي موجودة في ترجمة معاصره محمد بن أحمد المفضّل: "ولمّا قلب الدهر ظهر المجن، وبدّل أيام المسرة بالشجن. ضاق به العيش، وطاش عقله أي طيش"[٧٠].

وتستمر هذه الظاهرة في العربية المكتوبة، فنجدها عند الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) في ترجمة ابن بريدة من رجال القرن التاسع: "لا جرم قد أبدله الله بسلطان خير من سلطانه، وجيران أفضل من جيرانه، ورزق أوسع مما منعوه، وجاه أرفع مما حسدوه عليه"[٧١].

ونجد هذه الظاهرة بعد نحو قرن عند الشيخ محمد عبده، في مقال نشر في ١١/٥/١٨٨١م، يقول فيه: "فمن كانت رغبته متجهة إلى كتب أبو زيد وما معها من الكتب؛ كعنترة عبس وغيرها، أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة، كتاريخ المسعودي وتاريخ إظهار أنوار الجليل لحضرة رفاعة بك، وتاريخ الكامل لابن الأثير"[٧٢].

ثم نجدها في تعليقات المرصفي على حماسة أبي تمام، حين يقول عنه إنه "كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه، فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته، وأحياناً يبدل بعض كلمات العرب بكلماته"[٧٣].

وسيطول بنا الوقت لو أخذنا نتتبع هذه الظاهرة في العربية الفصحى المعاصرة، التي أصبحت فيها الباء تدخل على غير المتروك بصفة عامة؛ إلا عند أفراد معدودين من ذوي الثقافة اللغوية الواسعة، أو عند من اطلع على شيء من كتب التصحيح اللغوي واقتنع – بعد عرض الشواهد القرآنية – أن باء

الاستبدال تدخل على المتروك (= المستبعد، والمزال).

ونظن أن سيطرة القاعدة الجديدة/ القديمة للباء ترجع إلى أن الذهن يريد أن يبدل شيئاً بشيء، فأول ما يرد إلى الذهن هو المستبعد ثم يليه المطلوب الذي تتعلق به الباء.

ونختتم تتبعنا لهذه الظاهرة لأربعة أدباء راحلين، بادئين بأمير الشعراء (ت١٩٣٢م):

"أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا"(٧٤)

ونثني بجبران خليل جبران (ت١٩٣٢م) في مقال له نشر في مجلة الهلال القاهرية عام ١٩٢٣م. يقول: "فالتشويش في شرعي ينفع دائماً، لأنه يبين ما كان خافياً في روح الأمة، ويبدل نشوتها بالصحو، وغيبوبتها باليقظة،... ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة... ولا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي"(٧٥).

ونثلث بمارون عبود (ت١٩٦٢م) فنجدها في حديثه عن الفلاح الذي أصبح جندياً. "ها هو يستبدل المسّاس بالطبنجة، والسيف والغدّارة والقرابية، وجراب البذور يصبح كنانة الفلاح البطل"(٧٦).

ونجدها - في ختام كلامنا - لدى عمر فاخوري (ت١٩٦٤م) عندما تحدث عن بيت شعر للمتنبي، فانتقد النحاة والبيانيين، لأنهم لم يقفوا عند هذا البيت "حين لم تستوقفهم فيه نادرة نحوية أو لغوية، ولا مسألة صرفية أو بيانية، مما جرت عليه العادة أن يعيروه نظراً واهتماماً، حتى ولا لفظة غريبة يتكلفون مشقة إبدالها بلفظة أخرى تكون أقرب تناولاً وأكثر تداولاً"(٧٧).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع والإحالات والحواشي

(١) علي بن عيسى الرماني: معاني الحروف، تح عبدالفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة: نهضة مصر ١٩٧٣م، ص٣٦-٤٠.

(٢) أحمد بن عبدالنور المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص١٤٣-١٤٧.

(٣) حسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق طه محسن، جامعة بغداد ١٩٧٧م، ص١٠٢-١٠٨.

(٤) جمال الدين بن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دمشق: دار الفكر ١٩٦٤ ج١/١٠٦-١٠٧.

(٥) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: ط حسان ١٩٧٥م، ق١ ج٢، ص٣-٥٧.

(٦) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات، ق١ ج٢، ص١٥.

(٧) ابن هشام: مغني اللبيب، ج١/ ١١٠.

(٨) في ورود هذا الفعل في القرآن الكريم بالباء وبدونه، راجع: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٣٩م، ص١١٥-١١٦.

(٩) أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي: تفسير البحر المحيط، القاهرة ط السعادة، ١٣٢٨هـ.

(١٠) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٥٤ ج١/ ٣١٢.

(١١) محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة دار الكتب المصرية ٥٢- ١٩٥٧م، ج١/٤٢٨.

(١٢) أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي: تفسيره المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١/ ١٠٧.

(١٣) محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القاهرة: ط عيسى الحلبي ١٩٦١م، ج١/ ٩٣.

(١٤) عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار المعرفة ١٩٦٩م، ج١/٤٤٩. لم ترد الباء ولا الفعل في كلامه في الموضوعين السابقين، انظر ج١/١٠١-١٠٢ و١٥٢-١٥٣.

(١٥) الشوكاني ج١/١٤٩.

(١٦) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، مادة (بدل) ج١٤ (تحقيق يعقوب عبدالنبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م)، ص١٣٢.

(١٧) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف بالقاهرة ٧٧-١٩٨١م، مادة (بدل) ص٢٣١ وقارن بالمادة نفسها في المصباح المنير للفيومي.

(١٨) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس شرح جواهر القاموس، القاهرة: ط الخيرية ١٣٠٥-١٣٠٧هـ مادة (بدل) ج٧/٢٢٣.

(١٩) مجمع اللغة العربية، القاهرة: كتاب الألفاظ والأساليب ج١/٣٧.

(٢٠) يحيى بن زياد الفراء: معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وعبدالفتاح إسماعيل شلبي، ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٧٢-١٩٨٠م، ج١/٤٢، ٨٣ وج٢/٤٣٦، ٣٥٨-٣٥٩.

(٢١) أبو البركات عبدالرحمن الأنباري: البيان في غريب إعراب القران، تحقيق طه عبدالحميد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ٦٩- ١٩٧٠م، ج١/ ٨٦، ٨٧، ١١٧، ٢٤٠، ٢٤١ وج٢/٢٧٢، ٢٧٩.

(٢٢) أبو البقاء عبدالله الحسين العكبري: التبيان في إعراب القران تحقيق علي محمد البجاوي القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٧٥م، ج١/ ٦٨، ٦٩، ١٠٤، ٣٢٧ وج٢/ ١٠٥٩-١٠٦٠، ١٠٦٦-١٠٦٧.

(٢٣) العكبري: التبيان ج١/٦٦-٦٧ وقول أبي النجم غير منسوب في اللسان (بدل) ص٢٣٢ وفيه (فبدلت).

(٢٤) الجاحظ: الحيوان، تح عبدالسلام هارون، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٦٥م، ج٣/ ٣٩.

(٢٥) ديوان أبي تمام الطائي بشرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠م، ج٤/٣٨٨.

(٢٦) ديوان المتنبي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لناصيف اليازجي، بيروت ١٨٨٨م، ص٤٧٩.

(٢٧) من ذلك: (أ) محمد عزت عبد الموجود: الظواهر اللغوية والنحوية في شعر أبي الطيب المتنبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٤٣م.

(ب) علي محمد علي فاخر: الأخطاء النحوية والصرفية في شعر المتنبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٧٩م.

(٢٨) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تح عبدالحميد دياب، القاهرة: دار المعارف ٨٦-١٩٨٨م، ج٤/٣٩.

(٢٩) المعري: معجز أحمد، ج٤/٤٠ وانظر شرح البرقوقي ١/١٥٩ (مصورة) دار الكتاب العربي، بيروت. د. ت.

(٣٠) معجز أحمد ج٤/٢٢٥.

(٣١) معجز أحمد ج٤/٣٨٥.

(٣٢) ابن المستوفي الإربلي: النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام، تح خلف رشيد نعمان، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨م ج١/٤٤٦.

(٣٣) محمد اليعلاوي (محقق): الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي (٢٩٦-٣٩٥) بيروت: الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص٣٤٦.

(٣٤) القاضي المحسن بن علي التنوخي: الفرج بعد الشدّة، تح عبود الشالجي، بيروت: دار صادر ١٩٧٨م، ج٤/٢٦٨.

(٣٥) محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية، ص٣٣٤ والحشّاش: الذي يفرغ المراحيض بعد امتلائها.

(٣٦) ديوان الشريف الرضي، صنعة أبي حكيم الخبري، تح عبدالفتاح محمد الحلو، بغداد: وزارة الإعلام ١٩٧٩م ج٢/٣٥.

(٣٧) القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني: المغني في أبواب العدل والتوحيد، ج٥ تحقيق محمود محمد الخضيري ص١٦ (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٥م).

(٣٨) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي: نثر الدر، تح محمد علي قرنة، الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة ٨١-١٩٨٤م ج٣/٢٨١. والصرف: الفرق بين الدرهم والدينار، انظر لسان العرب (صرف) ص٢٤٣٥.

(٣٩) علي بن خلف الكاتب: مواد البيان، تح حاتم صالح الضامن، مجلة المورد بغداد ١٩٨٨م، مج ج٢/١٤٢.

(٤٠) الفتح بن خاقان الأندلسي: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح هدى شوكة بهنام، بيروت: دار الغصون ١٩٨٩م ص٩٣.

(٤١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف من عاصم إلى عايذ الله) تح شكري فيصل، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٧هـ، ص٢٢٨.

(٤٢) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، بعناية محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة: ط البهية ١٣٥٧هـ، ج١/١٩٣.

(٤٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، تح شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٤هـ، ج١/٢٢٠.

(٤٤) علي بن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص٣٢٥.

(٤٥) عبداللطيف البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار، تح أحمد غسان سبانو، دمشق: مكتبة أسامة ١٩٨٢م، ص٩٢.

(٤٦) ضياء الدين نصر الله بن محمد الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة نهضة مصر ١٩٧٣م، ج١/١٠٧.

(٤٧) عز الدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني: شرح نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: ط عيسى الحلبي ٦٥-١٩٦٧م، ج١١/٢٢٠.
(٤٨) شرح نهج البلاغة ج١٩/٣٩٧.
(٤٩) أحمد بن محمد المنير الإسكندري: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على حاشية الكشاف للزمخشري) مصور دار المعرفة، بيروت، د. ت، ج١/٥١٣.
(٥٠) الانتصاف (على حاشية الكشاف للزمخشري) ط٣، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٦٦م، ج٣/٥٤٣.
(٥١) محمد بن دانيال الموصلي: المختار من شعر بن دانيال، اختيار صلاح الدين الصفدي، تح محمد نايف الدليمي، الموصل: مكتبة بسام ١٩٧٩م، ص١٢٣، ص١٣٤، وفي شاهد آخر ص١٢١ من "شرح المضنون به على غير أهله" لعبيد الله بن عبدالكافي، أتمه عام ٧٢٤هـ، ط القاهرة ١٩١٣م.
(٥٢) ديوان صفي الدين الحلبي، دار صادر، بيروت ص٥١٦.
(٥٣) ديوان الحلي، ص٦٣٥.
(٥٤) ديوان الحلي، ص٦٥٤.
(٥٥) ديوان الحلي، ص٦٧٧.
(٥٦) تاريخ محمد بن عبدالرحيم بن الفرات، تح قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بيروت: الجامعة الأمريكية ١٩٣٩م، ج٨/٢٠٣.
(٥٧) أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، حيدر أباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ٦٧-١٩٧٦م، ج٢/٤٣.
(٥٨) عبدالرحمن بن خلدون: كتاب العبر، القاهرة: دار الطباعة الخديوية ١٢٤٨هـ، ج٦/٢٨٨.
(٥٩) كتاب العبر ج٦/١٤٩. وانظر أمثلة أخرى في ج٦/٢٠٥، ج٧/٧.
(٦٠) الشريف الجرجاني: التعريفات، بغداد: دار الشئون الثقافية ١٤٠٦هـ، ص١٠٦.
(٦١) محمد بن إبراهيم بن علي المرتضى اليماني: إيثار الحق على الخلق، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ص١٣٤.
(٦٢) تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ج٣ ق١ ص٢٦٩.
(٦٣) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ج١١/٢٣٩.
(٦٤) النجوم الزاهرة، تح فهيم محمد شلتوت، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧٠م، ج١٣/١٧٣ وانظر مثالاً آخر في ج١٤/٢٥٥ (تح فهيم شلتوت وجمال محمد محرز).
(٦٥) النجوم الزاهرة ج١٥/١٧١ (تح إبراهيم علي طرخان ١٩٧١م).
(٦٦) المصدر السابق ج١٦/١٢٥ (تح جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت ١٩٧٣م).

(٦٧) أبو البقاء الكفوي: الكليات، تح عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١م، ج١/١١١.

(٦٨) الكليات ج١/٢٥.

(٦٩) أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني: طيب السمر في أوقات السحر، تح عبدالله محمد الحبشي، صنعاء: مكتبة الإرشاد ١٩٩٠م، ص٢٦٩.

(٧٠) طيب السمر، ص٣٣١.

(٧١) محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة: ط السعادة ١٣٤٨هـ، ج١/٤١.

(٧٢) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ط٢، القاهرة: المنار ١٣٤٤هـ، ج٢/١٥٦.

(٧٣) سيد بن علي المرصفي: أسرار الحماسة، القاهرة: مطبعة أبي الهول ١٣٣٠هـ، ص(ز).

(٧٤) أحمد شوقي: الشوقيات، ط التجارية بالقاهرة ١٩٣٥م، ج٢/١٨.

(٧٥) جبران خليل جبران: مستقبل اللغة العربية (ضمن أعماله الكاملة) بيروت: دار صادر ١٩٥٩م، ج٣ ص٥٤٤-٥٥٢. وانظر أمثلة أخرى في ج١/٥١.

(٧٦) مارون عبود: سبل ومناهج، بيروت ١٩٥٠م، ص٥٦، والمماس: منخس البقر.

(٧٧) عمر فاخوري: الفصول الأربعة، بيروت: دار الثقافة ١٩٧٢م، ص٨٨.

رابعاً: أخبار مجمعية

إصدارات

١ – بيلي ولاف: الموجز في ممارسة الجراحة

انطلاقاً من الأهداف التي نص عليها قانون مجمع اللغة العربية الأردني فإن المجمع يعمل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها تواكب متطلبات الآداب والعلوم والفنون الحديثة. ولتحقيق هذا الهدف القومي النبيل فإن المجمع يحرص على تشجيع التأليف والترجمة والنشر، ونقل العلم والتقنية الحديثة إلى اللغة العربية لتحتل هذه اللغة مكانتها اللائقة بها في مؤسساتنا العلمية والتعليمية ولتصبح لغة التدريس والبحث العلمي على مستوى الوطن العربي. كما يحرص على إغناء المكتبة العلمية العربية الحديثة ورفدها بأحدث الكتب العلمية في مختلف التخصصات. وقد أصدر المجمع ضمن مشروعه لتعريب التعليم العلمي الجامعي ثمانية عشر مرجعاً علمياً في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والعلوم الحياتية وعلوم طبقات الأرض من مستوى السنتين الجامعيتين الأولى والثانية، وأصدر مجموعة من المصطلحات العلمية والتقنية. كما دعم إصدار بعض الكتب في مجال العلوم الطبية.

وإن مجمع اللغة العربية لواثق أن تعريب التعليم العلمي الجامعي في جميع مستوياته ومؤسساته العلمية والتقنية ضرورة قومية للمحافظة على اللغة العربية التي تعد ركيزة أساسية من ركائز وحدة أمتنا العربية وأن الإبداع العلمي والفكري لا يكون إلا باللغة العربية القومية.

وحرصاً من المجمع على الاستمرار في مشروعه الرامي إلى تعريب التعليم الجامعي فقد عهد إلى لجنة العلوم الصحية في المجمع لاختيار مصدر مهم من مصادر الجراحة العامة، فاختارت كتاب

Baily and Love's , Short practice of surgery

لمكانته العلمية الرفيعة وانتشاره الواسع عالمياً وفي الوطن العربي، حيث صدرت أولى طبعاته باللغة الانجليزية عام ١٩٣٢م، وتوالت الطبعات بانتظام. وبعد وفاة مؤلِّفيه تعاقبت عليه نخبة من المحررين المرموقين حتى الطبعة الثانية والعشرين التي صدرت عام ١٩٩٥م. وقد ترجم هذا الكتاب إلى خمس عشرة لغة لم تكن العربية واحدة منها.

ويعد هذا الكتاب أحد المراجع الرئيسية في الجراحة على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا الجامعية، وهو في الوقت نفسه مرجع جراحي مهم للطبيب الممارس العام والمتخصص.

ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة وستين فصلاً، وقد صدر بالعربية في أربعة أجزاء، كل جزء منها يتضمن المواد الطبية المتشابهة. يتضمن الجزء الأول مبادىء الجراحة، والجزء الثاني جراحة العظام والأعصاب، والجزء الثالث جراحة الرأس والعنق والغدد الصم والصدر والقلب، ويتضمن الجزء الرابع السبيل الهضمي والجهاز التناسلي البولي.

ويأمل مجمع اللغة العربية الأردني، بإصدار هذا الطبعة العربية الأولى لهذا المرجع المهم في الجراحة، أن يجد فيه المتخصصون والطلبة بخاصة والمهتمون بعلم الطب الجامعي بعامة النفع الكثير، كما نأمل أن يكون هذا العمل المتواضع حافزاً لهم جميعاً للعمل على جعل اللغة العربية لغة العلم والبحث العلمي في العلوم الطبية والعلوم الطبيعية لتحتل هذه اللغة مكانتها اللائقة بها في مختلف الكليات العلمية في جامعاتنا العربية، وأن تكون لغة التدريس والبحث العلمي.

ترجمة الكتاب

ألف المجمع هيئة تحرير لهذا الكتاب من الأستاذ الدكتور أحمد شيخ السروجية والأستاذ الدكتور محمود أبو خلف والأستاذ الدكتور أكرم الدجاني والدكتور عبدالله البشير. ورأى أن يشترك في هذا العمل أكبر عدد من ذوي

الاختصاص، فاختار ثلاثة وأربعين متخصصاً من المرموقين في اختصاصاتهم الجراحية في مختلف القطاعات الطبية في الأردن، ليقوموا بإنجاز هذا العمل العلمي القومي النبيل. وأقبل الزملاء على هذا العمل بجد وحماسة. وجرت مراجعة المادة مراجعة علمية وفق المنهجية التي يتبعها المجمع فقابلت بين النصين العربي والانجليزي، والتزمت، ما أمكن، باستعمال المصطلحات العلمية كما جاءت في المعجم الطبي الموحد، حرصاً على توحيد المصطلح الطبي العربي، واعتمدت هيئة التحرير العلمي أسلوباً سهلاً في عرض المادة. وحرصت أيضاً على وضع المصطلحات الأجنبية إلى جانب المصطلحات العربية في المتن. ومن ثم دفعت المادة المترجمة إلى المراجع اللغوي الذي ضبط سلامة اللغة العربية نحواً وإملاءً.

ميزات الطبعتين الأخيرتين

احتفظت الطبعة الحادية والعشرون من هذا الكتاب الشهير بمكانته العلمية من حيث هو مرجعٌ علميٌّ عالمي. وقد نال الكتاب الإعجاب الواسع لتقديمه قواعد الممارسة الجراحية بمنهج مباشر موجز بإشراف جراحين خبراء متميزين في تخصصاتهم المختارة. وقد حافظت الطبعة الثانية والعشرون كذلك على المبادئ التي كانت وراء نجاح الطبعات السابقة وطورتها.

واستمر في الطبعة الثانية والعشرين التركيز على أهمية الملاحظات السريرية بجانب سرير المريض، والحاجة إلى إيجاد العلامات الجسدية الدقيقة للوصول إلى التشخيص الصحيح. وعلى الرغم من وصف أساليب الاستقصاءات الحديثة والاعتراف بمساهماتها المهمة، فقد بُني الكتاب على أن الممارسة الجراحية السديدة تعتمد أولاً على مهارات الجراح ومعلوماته، وثانياً على مقدرة الأقسام المتخصصة والمختبرات المساندة.

وقد وجه المجمع رسائل إلى رؤساء مجامع اللغة العربية وإلى رؤساء الجامعات العربية وعمداء كليات الطب في الوطن العربي تضمنت تعريفاً موجزاً بهذا الإنجاز لكي تستفيد منه الهيئات التدريسية والعلمية في هذه المؤسسات.

ويطلب هذا الكتاب من:

مجمع اللغة العربية الأردني– عمان

بجوار مسجد الجامعة الأردنية
ص.ب (١٣٢٦٨)

الهاتف:
٨٤٣٥٠٠
٨٤٣٥٠١
٨٤٣٥٠٢
٨٤٣٥٥٣

ناسوخ (فاكس) ٨٤٣٥٠٠

سعر الكتاب:

٥٠ دينارا أردنيا–داخل الأردن أو ٧٢ دولارا أمريكيا–خارج الأردن	للأجزاء الأربعة مجتمعة
١٢ دينارا أردنيا–داخل الأردن أو ١٧ دولارا أمريكيا–خارج الأردن	لكل جزء من الأجزاء الثلاثة الأولى
٢٤ دينارا أردنيا–داخل الأردن أو ٣٤ دولارا أمريكيا–خارج الأردن	للجزء الرابع

يضاف إلى ذلك أجور الشحن أو البريد

٢ – كتاب "الموسم الثقافي الخامس عشر لمجمع اللغة العربية الأردني":

أصدر مجمع اللغة العربية الأردني حديثاً كتاب "الموسم الثقافي الخامس عشر" الذي اشتمل على محاضرات الموسم الثقافي التي ألقيت في المجمع في الفترة من ٣ أيار – ٧ حزيران ١٩٩٧م.

وقد تضمن الكتاب أيضاً المحاضرة التي ألقاها الأستاذ أحمد شفيق الخطيب رئيس دائرة المعاجم في مكتبة لبنان – بيروت بعنوان: "المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية" التي ألقاها في ندوة "العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين" التي عقدت في البحرين خلال الفترة من ١١-١٤ أيلول ١٩٩٥م.

ويأتي حرص المجمع على إقامة موسمه الثقافي كل عام ليكون مساهمة فاعلة في تنشيط الحركة الثقافية، ومعالجة كثير من القضايا التي تتعلق باللغة العربية وتيسير تعليمها وتعزيز مكانتها، لتكون لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي في جامعاتنا العربية ومؤسساتنا العلمية.

وقد اختار المجمع هذا العام موضوع "التعريب في الوطن العربي" محوراً لموسمه الخامس عشر، وتم اختيار علماء من ستة أقطار عربية هي سورية والأردن والعراق وتونس والسودان ومصر، قدّم كل عالم دراسة موضوعية للتعريب في قطره من حيث الواقع والمستقبل ومن حيث ما يتلمسه من قضايا وما يقترحه من حلول.

والمجمع وهو يقدم كتاب الموسم الثقافي الخامس عشر ليأمل أن يكون وثيقة تاريخية لمسيرة التعريب في الوطن العربي.

المؤتمرات والندوات والمحاضرات

انطلاقاً من حرص المجمع على المشاركة الفاعلة في المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية التي تعقد داخل الأردن وخارجه فقد شارك المجمع في المواسم والندوات التالية:

١ – الموسم الثقافي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأردن:

أقام المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأردن موسماً ثقافياً برعاية الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة رئيس المجمع، كان موضوعه

"القدس في الدين والأدب". واشتمل الموسم الذي عقد في قاعة الندوات والمحاضرات في المجمع على ثلاث محاضرات ومهرجان شعري.

افتتح الموسم يوم الأربعاء ١٤١٨/٣/٢٥هـ الموافق ١٩٩٧/٧/٣٠م بكلمة الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع، وكلمة للدكتور مأمون فريز جرار، رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأردن، ثم ألقى الدكتور عودة خليل أبو عودة محاضرة عنوانها "القدس في القرآن والسنة".

وكانت المحاضرة الثانية يوم الأربعاء ١٤١٨/٤/٣هـ، الموافق ١٩٩٧/٨/٦م بعنوان "القدس في الأدب العربي القديم" للدكتور عبد الجليل عبدالمهدي، والمحاضرة الثالثة يوم الأربعاء ١٤١٨/٤/١٠هـ الموافق ١٩٩٧/٨/١٣م بعنوان "القدس في الأدب العربي الحديث" للدكتور عبدالله الخباص. واختتم الموسم يوم الأربعاء ١٤١٨/٤/١٧هـ الموافق ١٩٩٧/٨/٢٠م بمهرجان القدس الشعري.

٢- الندوة الخامسة في سلسلة الحوار بين المسلمين:

شارك الدكتور عبدالكريم خليفة رئيس المجمع في الندوة الخامسة التي عقدها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، في سلسلة الحوار بين المسلمين بهدف التقريب بين علمائهم من مختلف المذاهب والمدارس الفقهية. وقد عقدت الندوة في الرباط بالمملكة المغربية بدعوة كريمة من صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، ولي العهد المعظم، الرئيس الأعلى للمجمع، وبضيافة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ومشاركتها، وذلك من ٢٠ – ١٠/٢٢ إلى ١٩٩٧/١٠/٢٢م. وكان موضوعها "حقوق الإنسان في الإسلام بين الخصوصية والعالمية" وكانت مشاركة الأستاذ الرئيس في الندوة ببحث عنوانه: "حقوق الإنسان في العدالة الاجتماعية في الإسلام".

٣- ندوة عن أبي العلاء المعري:

يشارك الأستاذ الرئيس أيضاً في ندوة عن أبي العلاء المعري وذلك بدعوة من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في دمشق، الجمهورية العربية السورية. في الفترة من ٢٤-٢٧/١١/١٩٩٧م.

رسائل الدكتوراة والماجستير

حرصاً من المجمع على التعاون والتنسيق بينه وبين المؤسسات العلمية والأكاديمية بعامة، والجامعة الأردنية بخاصة، فقد تمت في قاعة الندوات والمحاضرات في المجمع مناقشة الرسائل الآتية المقدمة إلى الجامعة الأردنية:

رسالة دكتوراة بعنوان:

"المعايير النقدية في المختارات الشعرية من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري"

مقدمة من الطالبة حنان محمد موسى حمودة

وتألفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور محمود السمرة المشرف رئيساً وعضوية: الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي والأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حور. وذلك يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ربيع الأول ١٤١٨هـ، الموافق التاسع والعشرين من تموز ١٩٩٧م.

رسالة ماجستير بعنوان:

"أعمال سلوى بكر في سياق الأدب النسائي"

مقدمة من الطالبة رزان محمود إبراهيم

وتألفت لجنة المناقشة من الدكتور سمير قطامي المشرف رئيساً وعضوية: الأستاذ الدكتور محمود السمرة والدكتور خالد الكركي والدكتور إبراهيم خليل وذلك يوم الأربعاء الرابع من ربيع الأول ١٤١٨هـ الموافق التاسع من شهر تموز ١٩٩٧م.

رسالة ماجستير بعنوان:

"إبراهيم بن المهدي شاعراً"

مقدمة من الطالبة ووشو تشينغ

وتألفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي المشرف رئيساً وعضوية: الأستاذ الدكتور إحسان عباس والدكتورة عصمة غوشة والدكتور عبد الحميد محمود المعيني، وذلك يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول ١٤١٨هـ، الموافق الحادي والعشرين من شهر تموز ١٩٩٧م.

رسالة ماجستير بعنوان:

"ابن نباتة الفارقي خطيباً"

مقدمة من الطالب عمر محمود محمد دعسان

وتألفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي المشرف رئيساً وعضوية: الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن والأستاذ الدكتور محمد حور والدكتورة عصمة غوشة. وذلك يوم الثلاثاء السابع عشر من ربيع الأول ١٤١٨هـ، الموافق الثاني والعشرين من شهر تموز ١٩٩٧م.

رسالة ماجستير بعنوان:

"حركة الشعر في بني كلاب في العصر الجاهلي"

مقدمة من الطالب غالب إبراهيم علي شريم

وتألفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور هاشم ياغي المشرف رئيساً، وعضوية: الأستاذ الدكتور نهاد الموسى والأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن والأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن أبو الهيجاء. وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين من ربيع الأول ١٤١٨هـ الموافق السابع والعشرين من شهر تموز ١٩٩٧م.

إلى الأخوة الكتّاب :

يرجى مراعاة ما يلي :

١ ـ أن تقتصر البحوث على اللغة العربية ، والتراث العربي الإسلامي : العلمي والأدبي والفني ، وشؤون التعريب ، ومراجعة الكتب المحقّقة وما إليها ، والمناقشات والتعليقات المتعلقة بهذا وأمثاله .

٢ ـ أن يتأكّد الكاتب من سلامة اللغة ، وحسن الترقيم ، والتوثيق قبل إرسال بحثه للنشر .

٣ ـ أن تتّسم البحوث النقدية بأسلوب النقد العلمي الهادئ ، الخالي من الانفعالات الحادّة التي قد تسيء إلى المؤلّف أو الباحث .

٤ ـ أن تكون البحوث المرسلة للنشر في نسختها الأصلية ، وخاصة بالمجلّة .

رئيس التحرير

JOURNAL
Of The Jordan Academy Of Arabic

No. 53

VOL XXI

Thu AL-Qadah 1417 - Rabia II 1418

July - December 1997